روايات الهلال

جنون الحب

ستيفان زفايج

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

المستشار الفنى
محمد أبو طالب

المدير الفنى
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
هالة زكى

الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٧٢جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٣٥ دولاراً - أوربا وآسيا وأفرقيا ٤٠ دولاراً - أمريكا وكندا والهند٤٥ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا)

ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).

المكاتبات: ص.ب: ٦١العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدي ١١٥١١ ـ

تلغرافيا: المصور ـ القاهرة ج. م. ع.

تلكس: Telex 92703 hilal u n

فاكس: FAX: 3625469

ثمن النسخة

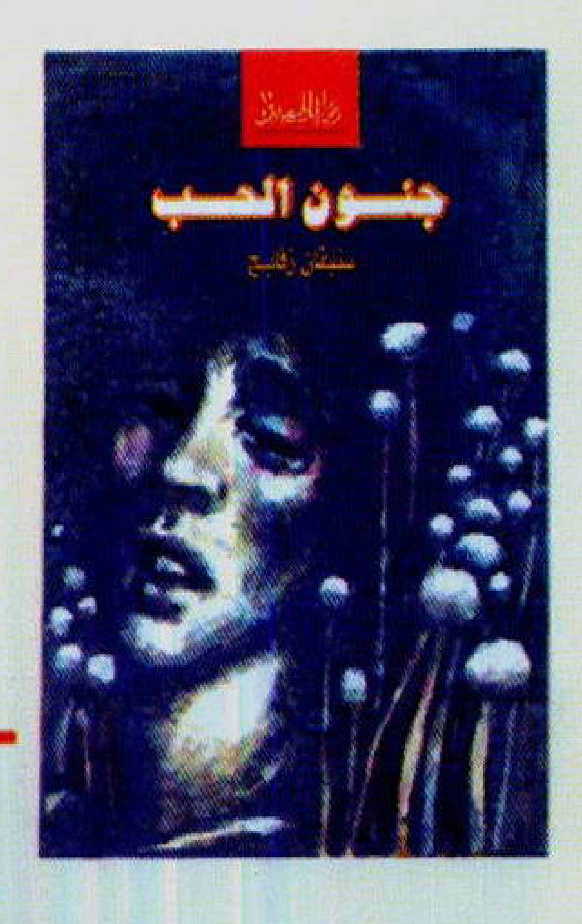
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٢٥٠ فلس. الكويت ١,٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا البحرين ١,٢ دينار- قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٢دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٣,٥ جنيه

الإصدار الأول يناير ١٩٤٩

العدد ٧٣٩ - يوليو ٢٠١٠م - شعبان ١٤٣١هـ - أبيب ١٧٢٦ق

البريد الإلكترونى darhilal @ idsc. gov. eg

بريد الاشتراكات Email : subscription_dep@yahoo.com



الغلاف للفنان: محمد حجى

جنون الحب

بقلم:

ستيفان زفايج

دار الهلال

إشراف : محمود قاسم

رقم الإيداع :١٤١٤٧ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى :I . S . B . N 977-07-1416-X

٢٤ ساعة فى حياة امرأة

شخصيات الرواية

مسز «س»: .Mrs. X عجوز وقور إنجليزية

هنرييت : Henriette زوجة حسناء شابة لبدين ثرى

آنيت وبلانش ابنتاها Annelie and Blanche

الفصل الأول

حـادث مـروع

بلغ النقاش ذروته من الحدة، وأنا جالس إلى المائدة فى ذلك الفندق الصغير القائم فى بقعة جميلة على ساحل «الريفييرا» ، وكان ذلك ذات يوم من أيام الشتاء لعشر سنوات خلت قبل الحرب، وكنت قد اعتدت أن أقضى الشتاء فى تلك البقعة التى تأسر النفوس بسحرها وجمالها فتجذب الناس إليها ..

ودون أن ندرى ، تدرج النقاش حتى تحول إلى احتدام كاد يصير عراكا لما تخلله من ألفاظ السباب، ويرجع ذلك لما تميز به القوم من إدراك ضيق، جعلهم يتطرون إلى الأمور من الناحية السطحية، حتى لتدفعهم توافه الأحداث إلى حدة فى الانفعال ليس لها ما يبررها ..

وعلى هذا الغرار كانت الجماعة التى تجلس إلى مائدتنا ، وجل أفرادها من أبناء الطبقة العالية.. فكانت أحاديثهم مقتضبة خالية من الصخب تتخللها دعابات تافهة .. فإذا ما انتهى الطعام تفرق كل لشأنه وهوايته، فيذهب الرجل الألمانى وزوجته إلى النزهة لإشباع هوايتهما فى التصوير .. ويعمد الدانمركى إلى صيد السمك الذى كان يقتضى جهودا كبيرة ، أما السيدة الإنجليزية فكانت تفضل قراءة الكتب على سواها من أسباب التسلية .. بينما كان الشاب الإيطالى وعروسه الفاتنة يترددان بين الحين والحين على «مونت كارلو» حيث يجدان متعتهما .. أما أنا فكنت أقبع فى مكان منعزل هادئ وانصرف إلى التأليف .. ولكن الجدل فى ذلك اليوم أنسانا أنفسنا ، فلم نبرح أماكننا .. وكان البعض ينهض من مكانه لا عن رغبة فى الانصراف بل بتأثير انفعال أو غضب ..

وكانت جماعتنا مكونة من سبعة أفراد ، فى ذلك الفندق الصغير الذى بدا وكأنه مبنى قائم بذاته يطل على منظر ساحر على الشاطئ .. بيد أنه كان فى الواقع مبنى متواضعا ملحقاً بفندق فخم كبير اسمه فندق «بالاس»، تقوم بينهما حديقة، كان من السهل علينا أن نتصل عبرها بنزلاء الفندق

الكبير ، وكان الموضوع الذى أثار جماعتنا غريبا، إذ كانت قد حدثت ضجة شديدة فى الفندق .. فقد وصل شاب فرنسى قبيل منتصف الساعة الواحدة بدقائق، واختار لنفسه حجرة تطل على البحر مما يوحى بأنه من أهل الثراء، وجذب الشاب اليه الأنظار، ليس لأناقته فقط، بل لوسامته المفرطة ودماثته .. فقد كان ذا وجه دقيق التقاطيع أقرب إلى وجه الحسناء منه إلى وجه الرجل، كما كان فمه ينم عن عواطف مضطرمة ويتساب فوقه شارب ناعم فى لون الذهب ، أما شعره فكان ناعما أيضا يتخلله تموج محبب يزيد من بهائه، يعز على المرء أن يصف لونه بدقة فهو مزيج من اللون البنى والأحمر الداكن .. تشع الدقة والحنان من عينيه ، فهو بذلك نموذج للجمال الطبيعى ، يذكرنا بتماثيل الجمال في متاحف الشمع ، ويمكن القول باختصار إن التدقيق فى تأمل ملامح الشاب عن كثب يؤكد للمرء أنه نموذج رائع نادر للدماثة الطبيعية فى غير تكلف .

وأخذ الشاب يحيى كل واحد فى بساطة وحفاوة .. وكان لبقا فى أداء التحية مقرونة بالمجاملة الرقيقة، فلا يفوته أن يبادر إلى السيدة التى تبحث عن معطفها فيعاونها فى أدب وعن طيب خاطر ، ويبتسم لكل طفل ويداعبه .. فكان لطيفا فى غير تكلف يشيع البهجة فى النفوس ، فيضفى عليه ذلك سحرا وبهاء ! .. فخلق وجوده جوا من الحيوية بين النزلاء وبخاصة المسنين منهم ، فاستطاع فى غير عناء أن يسلبهم لبهم بفيض شبابه الذى كان ينفذ إلى القلوب وبما كان يضفيه من مرح وبهجة وحيوية.. فلم تكد تمر بضع ساعات على حضوره حتى كان قد أنس إليه الجميع ، واستأثرت به ابنتا الرجل المكتنز الثرى صاحب أحد المصانع الكبيرة فى «ليون» ، فأخذتا تلعبان معه «التنس» ، وكان عمر إحداهما حوالى ثلاثة عشر عاما، وعمر الأخرى حوالى أربعة عشر عاما، واسمها «آنيت» و«بلانش» ..

وكانت والدتهما مدام «هنرييت» لطيفة بالغة الاحتشام والوقار، فراحت تراقب فتاتيتها وهما تسمران مع الشاب وتمزحان معه فى سذاجة وبراءة ، فتعلو شفتى الأم ابتسامة الغبطة والرضى ، ولما جاء المساء اندمج الفتى فى زمـــرتنا، وكنا نلعب الشطرنج.. وراح يروى لنا فى هدوء وأدب بعض الأقاصيص الممتعة، وإذ فرغ من ذلك، ذهب إلى الشرفة وراح يتجاذب أطراف الحديث مع والدة الفتاتين ، بينما كان زوجها منهمكا فى لعب «الدومينو» مع رجل من رجال الأعمال، ومضى بنا الوقت دون أن نشعر .. حتى إذا كاد الليل ينتصف ، وجدت الشاب فى مكتب سكرتيرة الفندق وقد استغرقهما حديث هادئ خاص وكأن حديثهما سر من الأسرار!

وانطوى الليل وانبلج الصبح .. فإذا الفتى يشارك «الدانمركى» صيد السمك ، وقد أظهر مهارة فائقة فى تلك الهواية دهش لها رفيقه .. وعاد فاندمج فى حديث مع والد الفتاتين – صاحب المصنع – وكان حديثهما فى النواحى السياسية ويبدو أن الشاب كان محدثا لبقا، حتى لقد سمعنا الرجل العجوز يضحك فى قهقهة عالية بين الحين والحين ..

وجلس الشاب بعض الوقت مع مدام «هنرييت» فى الحديقة يحتسيان القهوة، ولعب بعد ذلك «التنس» مع ابنتيها مرة أخرى ، حتى إذا انتهى راح يتحدث مع الزوجين الألمانيين فى البهو ، وحينما وافت الساعة السادسة ، خرجت قاصدا محطة السكة الحديد لألقى خطابا فى مكتب البريد .. فالتقيت بالشاب ورأيته يقبل نحوى فى خطوات حثيثة ، وقال لى بسرعة إن ظروفا قاهرة لم تكن فى الحسبان تضطره للسفر، ولذلك فإنه يودعنى .. ثم ذكر أنه سيعود بعد يومين ..

وعندما حان موعد العشاء لم نره بيننا حول المائدة، ولكننا أحسسنا أن روحه ماثلة بيننا وإن كان غائبا عنا بجسمه .. فقد كان هو مدار الحديث، لا على مائدتنا فقط بل على جميع الموائد، والكل يمتدحونه ويطرون دماثة

أخلاقه وخفة روحه ، وتفرق معظم الجماعة إلى مخادعهم فى تلك الليلة يلتمسون النوم .. فذهبت الى حجرتى ، وتناولت كتابا كنت قد قطعت فى قراءته شوطا كبيرا ، فأردت أن أفرغ منه ، وكانت الساعة قبيل منتصف الليل، حين طرقت سمعى بغتة ، خلال النافذة التى كانت مفتوحة ، ضوضاء فى الحديقة وأصوات تتصايح .. وحدست أن أمرا غير عادى يجرى ، فألم بى شعور بالقلق ، وأسرعت الخطى وأنا أجتاز الممر الذى يصل بين الفندق والملحق، يحدونى التوجس أكثر مما يحدونى الفضول .. وإذا بى أجد الجميع – النزلاء وموظفى الفندق وعماله – فى صخب وقلق .. وكان والد الفتاتين قد انهمك فى لعب «الدومينو» مع صاحبه كعادتهما كل ليلة .. بينما لم تكن والدتهما قد عادت من نزهتها التى كانت تواظب على القيام بها كل مساء على شاطئ البحر، وقد توجس الجميع من أن يكون قد أصابها شر ، فاندفع زوجها المكتنز فى رزانة وخفة، وراح يذرع الشاطئ عدوا كحيوان مطارد مذعور، وبدا صوته رهيبا وهو يصيح ويناديها فى انفعال: «هنرييت» .. «هنرييت» .. فكان صوته أشبه بحشرجة حيوان صريع ، وراح عمال الفندق وموظفوه يذرعون الفندق ذهابا وإيابا، صعودا وهبوطا ليوقظوا النزلاء النائمين، واتصل مدير الفندق بمركز الشرطة تليفونيا ، كان ذلك يجرى فى الفندق، بينما كان الزوج يهيم على الشاطئ وهو يتخبط وكأن مساً أصابه ، فقد انتابته نوبة صراخ هستيرية : «هنرييت» ... «هنرييت» فكان صراخه أشبه بالعويل ..

واستيقظت الفتاتان ، ووقفتا بملابس النوم وأخذتا تناديان أمهما .. وإذ سمعهما والدهما، هرع يرقى الدرج اليهما ليهدئ من روعهما ..

***

حدث بعد ذلك مالم يدر بخلد أحد .. ولا يوجد ما هو أبشع ولا أبعث على الألم منه ، فسرعان ما رأينا الرجل يهبط الدرج، وقد بدا عليه الإعياء

والشراسة، وارتسمت على أساريره مسحة جامدة وقد نشر ورقة بين يديه، وراح ينهى إلى رئيس الخدم ويهيب به وبرجاله أن يكفوا عن البحث الذى لا طائل من ورائه قائلا :

- لقد هربت زوجتى .. !

ورغم تلك الطعنة المسمومة التى أصابته ، فقد أبدى الرجل كثيرا من الشجاعة الخارقة وضبط النفس وجلدا فوق الطاقة والاحتمال ، أمام من التفوا حوله وراحوا يمطرونه بأسئلتهم ويرشقونه بنظراتهم .. ثم تفرقوا من حوله وقد ران عليهم الخجل والفزع فى آن واحد ، فشق الرجل طريقه أمامنا وهو يترنح دون أن يتطلع إلى أحد ، ويمم شطر غرفة المطالعة .. فدلف إليها وأطفأ الأنوار ، ثم سمعنا الضجة التى أحدثها جسمه البدين الهائل وهو يلقى به على أحد المقاعد متهالكا، وانخرط فى نحيب وحشى .. شأن من طلق البكاء منذ نعومة أظفاره !

وأثر فى نفوسنا ذلك الألم القاتل، حتى فى أقلنا إرهافا وحساسية .. فذهلنا جميعا، فلم تتحرك شفة ببمسة أو كلمة تتصل بالمأساة .. وتفرقنا فى صمت ، وقد غشيتنا سحابة من الكآبة، كأنما شعرنا بالخجل لصدمة الرجل ونكبته ، فراح كل منا يتلمس الطريق إلى غرفته ، الواحد إثر الآخر ..

وظل المسكين - وقد تحول إلى حطام - يبكى ويصل شهيقه إلى آذاننا ، وقد لفته العزلة فى ظلام الحجرة التى لاذ بها .. وكأنه وحيد فى ذلك الفندق، الذى عج لفترة بالهمسات وكأنها طنين خلية نحل، بيد أنها ما لبثت أن أخذت تتضاءل شيئا فشيئا حتى تلاشت فى ظلام الليل، فساد السكون إلا من نحيب المسكين ..

الفصل الثانى

السيدة الوقور

غنى عن القول أن الإنسان يلجأ إلى هذه الأماكن التماسا للراحة والهدوء، وليكون بعيدا عن جو الأعمال والهموم، وعلى هذا الاعتبار فإن حادثا مروعا كهذا - يقع بغتة على غير توقع - كفيل بأن يكون له أثر فى النفوس بعيد المدى .. فالمفروض أن الناس يغشون هذه الأماكن سعيا وراء التسلية وأسباب اللهو لتجنب الملل والضجر ..

وكان النقاش الذى اشتد حول مائدتنا والذى كاد يتطور إلى شجار، يمت إلى الحادث الأليم.. ولكنه اتخذ مظهرا لخلاف فى الآراء حول مبدأ بذاته .. فكان احتداما بين رأيين متعارضين فى الحياة.. كان الرجل فى فورة غضب عاصف أفقدته وعيه، فألقى بالورقة التى كانت بين يديه على الأرض بعد فركها فى عصبية، وحدث أن دخلت إحدى الخادمات حجرة المطالعة، ورأتها ملقاة على الارض فالتقطتها ثم قرأتها ، وجرى لسانها بما حوته الورقة.. فلم يعد سرا أن مدام «هنرييت» رحلت برفقة الشاب الفرنسى .. ! وما إن تجلت هذه الحقيقة، حتى أخذت نظرة الإعجاب بذلك الشاب تتقلص ، وإن لم يبد غريبا أن سيدة فتية حسناء كهذه تضن بجمالها على رجل مسن مكتنز بشع المنظر كزوجها، لترتمى بين أحضان شاب وسيم المحيا منطلق الأسارير .

بيد أن اللغز الذى استغلق على الجميع ، وأثار حنقهم ، أن أحدا من أفراد تلك الأسرة المنكودة - الزوج أو الابنتان أو الزوجة - لم يكن قد رأى ذلك الشاب الفرنسى من قبل .. وأن من العسير أن يقبل العقل أن حديثا لساعة أو بعض ساعة - ذات مساء فى شرفة الفندق - وحديثاً آخر أثناء تناول القهوة فى الحديقة، يكفيان لاستمالة امرأة تناهز الثلاثين من العمر، - تعتبر ذات مركز مرموق فى عرف المجتمع - وإغرائها على أن تستهين بالمثل العليا، فتهرب من زوجها بهذه الطريقة المزرية .. وتضحى بابنتيها ، فتندفع فى نزوة الشباب وتضع مستقبلها بين يدى شاب غريب !

وانتهت جماعة مائدتنا إلى ترجيح الرأى القائل بأن الزوجة لابد أنها كانت على علاقة أثيمة بذلك الشاب من قبل، وهى بذلك قد اقترفت خيانة شنيعة .. فظروف المأساة واضحة كل الوضوح لا غموض فيها ، وأن حضور الشاب كان بمثابة الخيط الاخير فى تدبير هرب الزوجة معه .. فعل يعقل أن تتحول زوجة عن طريق حياتها الزوجية، ويؤثر فيها أول لقاء مع رجل الى حد يدفعها الى الهروب معه ؟! ..

اتفقت الجماعة على هذا الرأى .. أما أنا فقد رأيت غير ذلك .. وأبديت رأيى فى شجاعة وحزم، وذكرت أن الزوجة التى تصدم بخيبة فى آمالها وتعتقد أنها لم تحظ بمثلها العليا أو أن حياتها الزوجية يعتورها الضيق والتبرم، لا نستبعد عليها أن تستسلم لأول تجربة عاطفية أو عرض براق .. ! وقد حدث ما توقعته . فقد تعرض رأيى لنقاش أخذ يحتدم حتى صار صخبا، فقد استهجن فريق وجهة نظرى ، وأبى أن يعترف بالحب الذى ينبثق بغتة .. الحب من أول نظرة، وسفهنى هذا الفريق معلنا أن شيئا كهذا هراء وحماقة، وليس واقعيا ، بل إنه لا يعدو أن يكون من مبتكرات الخيال ..

ولا أنكر أن جدالا يحدث بين جماعة، يضمهم مكان عام، لا يكون راسخا فى حججه .. وأن ما يصدر من تلك الحجج غث لأنه يلقى فى عجلة وارتجال، ولا أدرى كيف احتدم النقاش بشكل خاطف.. ولعل ذلك يرجع إلى الاحساس المرهف ورد الفعل الذى نجم عن الحادث، كما يرجع أيضا إلى أن الفريق الذى عارضنى يتكون من النزيلين الألمانى والإيطالى وزوجتيهما .. فقد حرص الزوجان أن يبثا فى النفوس أن زوجتيهما لا يمكن أن تقدما على عمل قذر ينطوى على الحماقة كالذى اقترفته مدام «هنرييت» .. ولم يستطيعا أن يدللا على رأيهما الا بضيق أفقى ، وقلة خبرتى بالنساء ، وأننى أجهل أنهن أنواع .. وقد أثارنى ذلك وبخاصة عندما ذكرت الزوجة الألمانية أن

هناك نسـاء فضليات ونسـاء فـاجـرات .. وأن «هنرييت» لابد وأن تكون من النوع الثانى ، فلم أطق منها ذلك ودفعتها بأن قلت :

– كثيرا ما تقع المرأة فى حياتها ضحية لعوامل مبهمة أقوى من إرادتها وخصـالها ، فـلا يمكن الحكم على هذه المرأة بالفـجـور .. ثم أوضـحت أن اللجوء إلى الأساليب الملتوية، وطمس الحقائق ، إنما نغرر بـه أنفسنا حتى لا نستشعر بشاعة غرائزنا ، وفى اعتقادى أن كثيرا من النساء اللواتى يعتبرن أنفسهن أمنع من الوقوع فى الزلل ، وأنهن على خلق وطهارة .. أولئك أقرب إلى الانزلاق فى الزلل ، وأنا أرى أن تسير المرأة فى حياتها على سجيتها وتخـضع لغريزتها ، فـإن ذلك أحرى بـها من أن تعيش فى الظلام فـتـخـون زوجها وهى فى عصمته فتحيا حياة مزدوجة شأن الكثيرات من النساء ..!

وإذ ألقيت بقنبلتى، تكهرب الجو واشتدت حدة النقاش .. فكنت أدافع عن مـدام «هنرييت» الضـحـيـة كلمـا اشـتـد هـجـوم المعـارضين عليـهـا، بيـد أننى شعـرت أننى اندفـعت أكثر من اللازم تحت تأثير اسـتـثـارتى ، وبدا لجبـهـة المعـارضـة المكونة من الألمانـى وزوجـتـه ، والإيطالى وزوجـتـه ، أن اندفـاعى يحـمل مـعنى الإهانة ويهـدف إلى الاسـتـفـزاز .. وكـانوا أربعـة وأنا واحـد ، فغالوا فى مهاجمتى بعنف ، وتحول الجدل إلى نقاش ، والنقاش إلى صخب هائج حـدا بالدانمركى العـجـوز أن ينظر إلينا باشـا وينقـر على المائدة بأصابعه لكى ينبهنا ، قائلا فى اقتضاب :

– رفقا أيها السادة .. !

فحملتنا إشارته على الهدوء لحظة قصيرة .. نهض بعدها أحد الزوجين فى اندفاع وغضب كأنما يهم بالإقدام على سخافة، مما جعل زوجته تبذل عناء كبيرا كى تـهدئ من ثائرته ، ووصل بنا الأمر إلى أن كدنا نشتبك فى عراك، لولا أن الله قيض لنا مسز «س» التى هالها الموقف فأخذت تشيع جوا من الهدوء والسلام ، وأمكنها أن تهدئ حدة توتر أعصابنا ..

ومسز «س» امرأة انجليزية وقور، تقدمت بها السن، ذات شعر أبيض وكأنه خيوط من الفضة .. وأمكنها لهذه الأسباب أن تحظى بمركز الصدارة في مائدتنا .. فعندما نلتف حول المائدة تأخذ مكانها في جلسة متزنة وتشمل كلا منها برعايتها دون محاباة أو تفضيل .. وكانت ترسل حديثها في اقتصاد لأنها كانت تفضل الإصغاء على الكلام، ومما يستحق الذكر أن مظهرها يجمع بين المهابة والبشاشة في صورة تشرح النفس، ورزانتها تحمل جليسها على تقديرها.. ولها قدرة فائقة على تكييف الجو الذي تكون فيه فتمنح الود لمن يستحقه، وتزامل من ترى أنه جدير بزمالتها.. بيد أنها في أغلب الاحيان كانت تخلو الى نفسها في الحديقة وتنصرف إلى القراءة أو تعزف على «البيانو» اذا راق لها ذلك، ونادرا ما كانت تتحدث إلى غيرها.. واذا تحدثت فبمقدار وميزان، فقد كانت بطبيعتها تحب العزلة والهدوء.. فلا عجب أن يكون لها تأثير سحري في النفوس، وليس أدل على ذلك من أننا - حين تدخلت في المسألة التي كنا بصددها - عرفنا أننا جانبنا الصواب وانتهجنا أسلوبا في الجدل لا يليق..

وفي اللحظة التي شملنا فيها الهدوء ، ورأن علينا الوجوم، حين وجهت إلينا القول بالترفق في مناقشاتنا، وأمكن لزوجة الالماني أن تهدئ من فورة غضبه وتحمله على الجلوس بعد أن نهض وافقا، رفعت مسز «س» عينيها الصافيتين - على غير انتظار - ورمقتني بنظرة طويلة مترددة، ثم تكلمت في الموضوع موضحة وجهة نظرها في لباقة وبراعة تدل على تعمق في التفكير، ووجهت إليّ الكلام قائلة :

- إذا لم أخطئ فهم ما أدليت به، فمن الجائز أن تكون مدام «هنرييت» قد ترددت في هذه المغامرة تحت وحي الساعة وبدون اتفاق سابق.. وفي رأيي أن ذلك محتمل الوقوع لأية أنثى، فتجد نفسها مسوقة إلى أمور، قد

تبدو لها قبل ذلك وكأنه لا يمكن الإقدام عليها أو حتى مجرد التفكير فيها، وفى هذه الحالة ، من الظلم أن يحكم عليها بسوء التصرف.. !

وأعجبنى منطقها فى الحديث وتقديرها للأمور الذى دل على تعمق ودراية، فقلت لها على الفور :

– هذا هو رأيى يا سيدتى ..

فعادت تقول فى تؤدة ورزانة شأن من يصدر قوانين راسخة :

– ولكن هذا يقلب مقاييس الاخلاق، بل يجعلها حبرا على ورق، لأنه يعنى الاستهانة بالأوضاع الخلقية والقوانين الاجتماعية .. فاذا كنت ترى أن الاندفاع فى إثم خلقى تحت تأثير العاطفة لا يجوز أن يعتبر جريمة، فلماذا نظم المجتمع ووضعت القوانين وقام القضاء ؟.. وإذا كان الأمر كذلك من وجهة نظرك، فإنك ولا شك لن تعدم دافعاً عاطفيا وراء كل جريمة ..!

وراقت لى بسمتها الغامضة التى تخللت كلامها، وأعجبتنى نبراتها الواضحة فى اعتداد ، فقلت محاولا أن أجاريها فى لهجتها:

– مما لاشك فيه أن القائمين على العدالة يكون رأيهم أكثر حدة من رأيى لأن من صلب أعمالهم صيانة الأخلاق والمحافظة على الأوضاع الاجتماعية وتقاليدها، ولذلك يلومون أكثر مما يعذرون.. إننى أقف موقف الدفاع لا الاتهام.. أننى أحلل تصرفات الناس نفسيا دون أن أحكم عليهم !

ورشقتنى بنظرة عميقة ثاقبة، ثم بدا عليها التردد .. فجال بخاطرى أنها ربما لم تدرك مغزى كلامى، فهممت أن أكرر بلغتها ما قلت، ولكننى عدلت عن ذلك، إذ وجدتها تستأنف كلامها فى صلابة وصرامة كأنها أستاذ وكأننى تلميذ:

– ألا يتسم هذا التصرف بالخزى والعار ؟ .. أليس شائنا وخزيا أن تهجر زوجة رجلها وابنتيها لتفر مع شخص دخل حياتها عرضا دون أن تقدر مصيرها، أو تستوثق من أنه يستحق منها هذه التضحية ؟ هل يسيغ

المنطق التماس العذر لتصرف شائن طائش كهذا، وبخاصة من سيدة جاوزت سن الشباب الأرعن كان خليقا بها أن تقدر إنسانيتها وتحترم نفسها ووضعها الاجتماعى، إن لم يكن ذلك من أجل زوجها فمن أجل ابنتيها ومستقبلهما ؟

ولم يقنعنى كلامها، وتمسكت بوجهة نظرى فى تشبث فقلت لها:

– لقد ذكرت ، وها أنذا أكرر، أننى أتكلم فى الموضوع بصفة عامة دون اتخاذ رأى معين، أو دون أن أحكم على السيدة إزاء تصرفها .. بيد أنه لا يسعنى إلا أن أقرر أننى بالغت بعض الشىء فى تجسيم الحادث.. إننى لا أميل إلى تمجيد تصرف مدام «هنرييت»، بل على العكس أعتبره تصرفا منطوياً على الخسة، وفى الوقت نفسه لا يمكننى أن أقول إنها عاشقة ولهانة، فهى فيما يبدو لى عادية ضعيفة الجناح.. وإن كنت أقدر لها إقدامها على تنفيذ رغبتها فى جرأة عجيبة ودون تهيب مما سيؤول إليه مصيرها، ولذلك فإنى أستشعر العطف والرثاء لها ليقينى من مبلغ ما ينتظرها من تعاسة فى الحياة إن عاجلا أو آجلاً.. ولعلها جعلت الرعونة رائدها، فقد تعجلت فى إقدامها واندفاعها، ورغم كل ذلك لا أرى أن ما أقدمت عليه ينطوى على دناءة، وأنكر أن يحتقر الناس امرأة تعيسة..!

وإذ رأت منى هذا الإصرار والتشبث قالت :

– هل أفهم من ذلك أنك ما زلت مصرا على احترامها وتقديرها .. ألم تتغير نظرتك إليها، حينما كانت بيننا بالامس زوجة فاضلة، ثم بعد ذلك تضرب بجميع معايير الاخلاق والنظم الاجتماعية عرض الحائط فتهرب مع رجل غريب عنها مخلفة وراءها زوجها وابنتيها ؟

– لا فارق فى رأيى بين الاثنتين ! ..

وكأنما لدغتها عقرب، فقد رأيتها تهتف دون وعى حيث استبد بها الموضوع :

– أتعقل ما تقول ؟.. أحقا هذا رأيك ..؟!

وأخذت تفكر لحظة، ثم نظرت إليَّ بعينيها الصافيتين وقالت :

– وإذا فرضنا أنك التقيت بمدام «هنربيت» ، وكانت بين أحضان عشيقها.. فهل تحييها مثلما كنت تحييها من قبل ؟

– طبعا !..

– وتتحدث إليها ؟

– بلا شك ..!

– وإذا كانت لك زوجة.. هل تسمح لها بمعرفة هذه السيدة وكأنها امرأة شريفة فاضلة ؟

– أسمح بذلك بلا شك !..

وكأن قنبلة انفجرت بجانبها عندما سمعت جوابى الأخير، فقد استبدت بها الدهشة وأخذها العجب وكأنها لا تصدق ما سمعت فقالت :

– هل تعي ما تقول ؟ .. أتفعل ذلك حقا ؟

– أفعله دون تردد !..

ورأن عليها الصمت لحظة واستغرقت فى تفكير عميق، ثم تفرست فى وجهى كأنها تستشف ما استغلق عليها فى دخيلتى، وفجأة قالت فى جرأة :

– ترى ماذا كنت أفعل أنا ؟ .. لعلى كنت أفعل ما فعلته !

قالت ذلك، ثم نهضت واقفة وصافحتنى وهى أشد ما تكون هدوءا واطمئنانا.. شأن بنى جنسها من الانجليز حينما يختمون أى نقاش فى وداعة ودون جفاء ، وعادت السكينة إلينا بفضل أسلوبها فى مناقشة الموضوع، وشعرنا فى قرارة أنفسنا بمبلغ ما لهذه السيدة الوقور من تأثير أشاع بيننا الوئام بعد أن كدنا نتشاجر.. وأخذ التوتر يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى تلاشى تماماً دون أن يترك فى نفوسنا أثراً لجفوة أو حفيظة، ولا يعلم سوى الله ما كانت ستصل إليه الحال لولا تدخل هذه السيدة الوقور فى النقاش وتمحيص الرأى فى ذلك الموضوع فى عمق ورزانة .

الفصل الثالث

لحظـات الطيش !

اصطبغت علاقتى بمن عارضونى فى آرائى بلون من الفتور ، بالرغم مما ساد نفوسنا فى ختام جدلنا من وئام وسلام .. فعمد الالمانى وزوجته إلى التحفظ تجاهى، وكانا يتحاشيان التحدث إلىَّ ، وإن حدث ففى برود ملموس.. بينما دأب الإيطالى وزوجته على ملاطفتى، فكانا يسألانى كلما سنحت لهما الفرصة - بلهجة لا تخلو من التهكم - عما إذا كان قد وصل إلى علمى شىء من الانباء عن «سنيورا هنرييتا» .. وبالرغم من أننا تمسكنا بأهداب المجاملة والأدب فى الحديث، إلا أن ثغرة أصابت علاقاتنا فأضعفت روح الإخلاص والتبسط وحجبت قدرا كبيرا من الصراحة التى كانت تتسم بها أحاديثنا، وحل محلها التحفظ والتوجس ..

وآلمنى ذلك كثيراً.. ولكن روح المودة التى حبتنى بها مسز «س» بعد المناقشة التى دارت بيننا خففت من ذلك الفتور الذى اختطه إزائى أولئك الذين خالفونى فى الرأى وحفظوا على فى دخيلتهم.. فقد أخذت مسز«س» «تنتهز» أى فرصة لتبادلنى الحديث فى الحديقة، على غير عادتها التى عرفناها فيها من ميل إلى العزلة والهدوء والصمت والتحفظ ، إذ أنها - كما سبق أن ذكرت - نادرا ما كانت تتبسط فى الحديث، بل كانت لا تتحدث إلا لما .. أما وقد خرجت عن هذه القاعدة معى، فقد اعتبرت تحينها الفرص للتحدث إلىَّ، ثم التبسط معى فى الحديث، رفعا من شأنى فى نظرها وجميلا تؤثرنى به على سواى، ولا أغالى إذا قلت إنها كانت تسعى إلىَّ وتبحث عنى، وقد لحظت ذلك جليا.. حتى لقد ذهبت بى الظنون من ناحيتها لولا ذلك التاج من خيوط الشعر الفضى الذى يعلو رأسها ..

ومن عجب أن ألاحظ أن جميع أحاديثنا كانت تتصل - دون وعى منا - بمدام «هنرييت» .. وبدا لى أن مسز «س» كانت تستطيب فى قرارتها اتهام تلك المرأة المنكودة - التى استهانت بالمثل العليا والواجبات - بالرعونة والطيش والافتقار إلى الخلق .. وفى الوقت نفسه تصارحنى باغتباطها لما

أستشعره من عطف صادق بالغ لهذه المرأة ، وبسرورها من أن مؤثرا ما لم يمكنه أن يحملنى على أن أحيد عن ذلك العطف، وكانت أحاديثها تدور حول هذه النقطة بالذات، حتى جعلتنى فى حيرة من إصرارها هذا الذى كاد يبلغ حد الإلحاح ..

وظل لغز أهتمامها بهذا الموضوع مستغلقا علىَّ بضعة أيام، دون أن أوفق إلى تفسيره، وحدث أن ذكرت لها فى إحدى نزهاتنا أن رحيلى أضحى وشيكا، وأننى أفكر فى السفر بعد يومين .. وعندئذ تجلى لى اهتمامها واضحا، فقد اكفهر وجهها الهادئ، وغامت سحابة أسى على عينيها الصافيتين وقالت :

– وا أسفاه .. لدى الكثير أود أن أفضى به إليك ..

ولفتها حيرة شديدة، كأنما انصرف فكرها إلى موضوع آخر .. ثم أضجرها شرود ذهنها ، وصمتت فجأة، ومدت إلىَّ يدها فى حركة سريعة وقالت :

– ليس باستطاعتى التعبير عما أود الإفضاء به إليك..لذلك أرى من الأفضل أن أبعثه إليك كتابة .

وتركتنى وحثت الخطى نحو الفندق فى سرعة لم أعهدها فيها من قبل ..!

ولم أدهش حين ذهبت إلى حجرتى قبيل العشاء، فوجدت خطابا كتب فى سرعة ولكن بوضوح، لا أذكر نصه بالضبط، تضمن سؤالى عما إذا كان لا يضايقنى أن تروى لى حدثا وقع لها فى حياتها.. وذكرت أن هذا الحدث قديم حتى أنها تشعر بأنها اقتطعته من واقع حياتها، وبما أننى مزمع على الرحيل، فإن ذلك يجعل الحديث ميسورا فى أمر ظل يقلق بالها، ويجعلها تستشعر العذاب فى قرارة نفسها لأعوام نيفت على العشرين .. فإذا كان لا يضيرنى أن أصغى إليها، فعلىَّ أن ألقاها فى ساعة حددتها ..

وأخذتني الدهشة لما حواه الخطاب، فقد كان أسلوبه معبرا ودقيقا لا يصدر إلا عن سيدة محنكة مثلها .. واستعصى عليَّ الرد فى سهولة حتى أننى مزقت بضعة ردود سطرتها لأنها لم ترق لى، وأخيراً كتبت بأسلوب ارتضيته فقلت : «إننى أعتز بتلك الثقة التى تؤثريني بها، وسأكون عند حسن ظنك فيما طلبت .. ولك مطلق الحرية فى أن تفضى إلىَّ بما ترين وأن تخفى عنى ما تشائين، بشرط التزام الحقيقة نحوك ونحوى فى الرواية، وأكرر لك أننى أعتبر ثقتك تقديرا يشرفنى»

وبعثت رسالتى إليها فى نفس الليلة، فجاءنى فى الصباح التالى رد يقول: «إن آراءك صائبة، فالحقيقة المشوهة تافهة.. ولا بد من إيراد الحقيقة كاملة .. لذلك سأبذل قصارى جهدى لكى لا أبترها، ولكى لا أخفى شيئا عن نفسى وعنك، احضر بعد العشاء إلى حجرتى، فلن أخشى ألسنة الناس وأنا فى هذه السن المتقدمة، والحديقة ليست مكانا مأمونا للحديث كما اننى أخشى آذان الناس .. إن قرارى هذا ليس بالأمر الهين على نفسى !»

وتم لقاؤنا على المائدة قبل أن ينصرم النهار.. وكان الحديث متقطعا فى أمور مختلفة، وكأنه ليس بيننا اتفاق ما ، ولكن الاضطراب بدا واضحا على السيدة حتى تقابلنا بعد ذلك فى الحديقة .. ولحقت أنها تتحاشانى، فحز ذلك فى نفسى، وانتابنى شعور بالعجب والإشفاق، وأنا أرقب تلك العجوز تهرب منى كالغزال النافر فى أحد ممرات الحديقة تحف به أشجار متقابلة.. وكأنها شابة فى ميعة الصبا ..

وحان الموعد الذى حددته من ذلك المساء، فيممت شطر حجرتها ونقرت على الباب فى خفة .. ففتحت لى الباب وبمجرد أن طرقته وكأنها كانت واقفة خلفه فى انتظار مقدمى ، وقد خيم الظلام على الغرفة إلا من ضوء باهت ينبعث من مصباح صغير فوق منضدة.. واستقبلتنى السيدة وهى رابطة الجأش، وكأن زياتى لها زيارة طبيعية عادية ، وليست بتدبير سابق واتفاق

للإفضاء إلىَّ بمكنون نفسها، وقدمت لى مقعدا، وجلست هى على آخر فى مواجهتى، وبدأ أنها تلتزم الحيطة فى حركاتها وسكناتها .. وران علينا صمت فرض نفسه، فلم يقو أحدنا على خرقه، كذلك الذى يسبق أمرا جللا أو حدثا خطيرا يوشك أن ينطلق ويعلن .. وطال الصمت ثم طال .. ولم أجد فى نفسى الجرأة على أن أبدأ الكلام، فقد رأيت نفسى أمام شخصية جبارة ذات إرادة فولاذية تصطرع مع صاحبها ومع مقاومة شديدة .. وخفف من توتر أعصابى لذلك الصمت القاتل، ما تناهى إلى سمعى من أنغام موسيقية تنبعث من حجرة الاستقبال .. فسبحت فيها بذهنى وأذنى ..

وضاقت السيدة بذلك الصمت المطبق، فشحذت عزيمتها كمن يقبل على هجوم، وانطلق عقال لسانها وأخذت تقول :

«إن أقسى ما فى الأمر أننى لا أدرى كيف أبدا الكلام .. ومنذ يومين وأنا أروض نفسى على التزام الصدق والصراحة فيما سأرويه، وأتمنى لنفسى التوفيق، ولعلك لا تدرك الدافع الذى يحدونى فيما اعتزمت، وأنت لا تمت إلىَّ بصلة.. بيد أن ذلك الامر استغرق كل تفكيرى ، ويمكنك أن تثق فى صدقى حين أقول إن مما هو فوق طاقة الانسان أن يظل فكره طيلة حياته نهبا لحادث شغل من تلك الحياة يوماً واحداً.. نعم استغرق ما سأفضى لك به يوما واحدا من عمرى الذى قارب السبعين عاما .. !

« وكم كنت أحدث نفسى فى شبه هذيان : ماذا فى أن تمر بالمرء لحظة من لحظات الطيش .. مرة واحدة فى هذا العمر المديد ؟! .. ولكن أين المفر من ذلك الرقيب الغامض .. الضمير ؟! وحين شاءت المقادير وسمعتك تناقش حادث مدام «هنرييت» من الناحية الواقعية، قفز إلى ذهنى أن باستطاعتى أن أضع حدا لأمرى الذى يقضنى ، والذى يدفعنى دائما إلى أن أقف من نفسى لنفسى موقف الاتهام، وجال بخاطرى أننى سوف أحظى براحة البال

إن أنا أفضيت فى صدق وصراحة لشخص ما بحديث ذلك اليوم المفرد من أيام عمرى ..

« وقد كان فى الإمكان أن أخفف من وطأة ذنبى ووخز ضميرى بالاعتراف من أمد بعيد لو أننى كنت أعتنق الكاثوليكية، ولكننا بتبعيتنا للكنيسة الانجليزية محرومون من هذا السبيل .. لهذا فقد استقر رأيى على ما أنا مقدمة عليه ، فأفضى إليك بسرى لأتطهر منه أو على الأقل لأخفف من عبء وزرى، ولا يسعنى إلا إزجاء الشكر لك لقبولك ما عرضت ولم ترفض أو تتردد، ولذلك سأروى لك قصة ذلك اليوم من أيام عمرى، فإن بقية الأيام ليست بذات قيمة بل لعلها تبعث الضجر لمن يلم بها..

« سارت حياتى رتيبة عادية لا يتخللها طارئ من الطوارئ حتى وصلت الى بداية الحلقة الخامسة من عمرى .. فقد نشأت فى أسرة ذات ثراء كبير فى «اسكتلندا» وكانت لنا ضياع مترامية ومصانع عظيمة، فكنا نعيش فى بذخ كما يعيش النبلاء .. نقضى جل السنة فى ضياعنا، ونمنح أنفسنا عطلة فى كل عام نقضيها فى «لندن» ووضعت المقادير فى طريقى الرجل الذى قدر له أن يكون زوجى، فعرفته فى أحد المجتمعات وكنت فى الثامنة عشرة حينذاك، وكان الابن الثانى فى أسرة «س» وهى من الاسر المرموقة الذائعة الصيت.. قضى فى خدمة جيش الامبراطورية عشر سنوات بالهند، ولم نلبث أن تزوجنا وعشنا فى بذخ شأن الثراة من أمثالنا.. ورتبنا حياتنا فى نظام شائق بديع ،ثلاثة أشهر نقضيها فى «لندن» نغشى فيها المجتمعات الراقية من أبناء طبقتنا، وثلاثة أخرى نقضيها فى مزارعنا نستمتع بسحر الريف وجماله ونضرته، وكنا نقضى بقية السنة فى ربوع فرنسا وإيطاليا، وإسبانيا، ترفرف السعادة على حياتنا الزوجية ..

وقد منّ الله علينا بولدين اكتملت الآن رجولتهما ..

« ثم ضن عليَّ القدر وشاء أن ينتزع هنائى.. فمات زوجى فجأة - وكنت وقتذاك فى الأربعين من عمرى - وكان قد مرض بالكبد بسبب السنين التى قضاها فى المناطق الحارة.. وعانى فى أيامه الاخيرة من الآلام ما لا أستطيع وصفه، وكان ابننا الاكبر فى ذلك الوقت قد جند فى الجيش، كما كان الابن الثانى فى الكلية الحربية.. وهكذا وجدت نفسى لا أنيس ولا جليس يخفف من كربى ووحشتى ، فكانت الوحدة عذابا لا يطاق لمن ألفت حياة المجتمعات، فتملكنى القنوط.. وبدا لى أن بقائى أضحى مستحيلا فى ذلك البيت الخاوى، تقض مضجعى وتستنزف نفسى ذكريات الكارثة التى حلت بى وفجيعتى فى زوجى .. فخطرت لى فكرة بدا لى أن فيها عزاء وسلوى هى أن ألجأ إلى التنقل والأسفار ، فاستقر رأيى على ذلك، وشجعنى أن ابنىَّ لم يكونا قد تزوجا ..

«وبدت لى حياتى بلا هدف أو جدوى، فقد قضى الرجل الذى تقاسمت معه الحياة والهناء والسعادة والافكار والميول مدى ربع قرن تقريبا.. وكان ولداى قد بلغا من العمر حدا يستطيعان معه أن يستقلا عنى، بل لقد أحببت لهما ذلك حتى لا يعكر وجودى معهما مرح شبابهما بحزنى وأساى .. فضلا عن اننى زهدت متع الحياة، ولم تعد نفسى تهفو الى شىء منها.. !

« ويعجز لسانى الآن أن أصف لك تلك الشهور الاولى التى خيم عليها الحزن والكآبة والأسى .. وأذكر أننى تمنيت أن أموت فأستريح، واستبدت بى تلك الرغبة، بيد أننى لم أجد فى نفسى جرأة على مجابهة الموت عمداً ، الموت الذى أتمناه لينقذنى من لوعتى وأساى !

« وذات يوم ، وكان قد انقضى على وفاة زوجى عام وبضعة أشهر، وكنت قد بلغت الثانية والأربعين من عمرى فى ذلك الوقت، وجدت نفسى في «مونت كارلو» وقد سعيت إليها مدفوعة بالرغبة الملحة فى الابتعاد بنفسى عن حياتى التى أضحت مملة ، ولكى أهرب من همومى وأفكارى .. لأن

حياتى كما ذكرت صارت بلا هدف أو جدوى ، فليست هنالك غاية أسعى إليها أو أشغل فيها وقتى، لقد كان الدافع الحقيقى الذى ساقنى إلى «مونت كارلو» هو الملل والضجر والفراغ والحياة الخاوية المعتمة تتضافر مع بعضها فتثقل على النفس، فتحاول الهروب ولو عن طريق ما يصادف الانسان من أحداث تافهة عارضة، وكنت كلما شعرت بجمود مشاعرى وأحاسيسى، وبوطأة السأم على روحى ونفسى، وبالخواء الذى يكاد يفتك بى ، استبدت بى الرغبة فى الاندفاع بكليتى فى خضم الحياة المنطلق فى سرعة مذهلة .. إن الإنسان الذى حرم متع الدنيا ولذائذها وأهدافها، تستيقظ أعصابه من جديد وتنبض أحاسيسه بالأحداث العنيفة التى تصيب الغير، تماما كتأثير الموسيقى العميقة فى السامعين أو الروايات التى تظهر على المسارح فى الناظرين ..

الفصل الرابع

مــوائد اللعــب

استرسلت السيدة فى ذكر أحداث يومها المشهود فقالت :

« عمدت الى الإكثار من التردد على «الكازينو» .. فقد كنت أستشعر لذة غريبة طاغية، وأنا أرى أمارات البهجة والفرح ترتسم على وجوه فريق من اللاعبين، فى حين تزخر وجوه فريق آخر بآيات الأسى والتعاسة، بينما لا تهتز فيَّ أنا جارحة بشعور ما .. وقفزت الى ذهنى ذكرى زوجى، فقد كان رغم اتزانه واعتداله يهوى اللعب ويمارسه عندما كنا نحضر إلى «الكازينو» فى سالف الايام .. فرأيت أن أتعبد فى محراب أحزانى بالوفاء لهوايته تلك..!

« وانبثق أول شعاع من حدث ذلك اليوم فى تلك القاعة.. وكان ذلك أشد صرامة وإثارة من كل مر بى فى حياتى ودنياى .. فما أن بدأت ساعات ذلك اليوم، حتى انقلب ميزان حياتى لبضع سنوات .. إذ حدث أن تناولت طعام الغداء ذات يوم مع دوقة «م» ، التى تربطها بأسرتى صلة قربى النسب، وانصرم النهار، وأقبل الليل، فشعرت بنشاط جعلنى لا أرغب فى أن آوى إلى فراشى بعد العشاء.. فدلفت الى صالة اللعب، ورحت أتنقل من مائدة إلى مائدة كالفراشة متفرجة متسلية دون أن أشترك فى اللعب .. فقد كانت هوايتى أن أرقب – بطريقة معينة كان قد علمنى إياها زوجى الراحل – من خانهم الحظ من اللاعبين المنتثرين على الموائد، حين رآنى وقد استبد بى الضجر لتحديقى فى الوجوه التى تتبدل .. من سحن عجائز متغضنات، وهن يقضين الساعات تلو الساعات بغير ملل .. جالسات إلى موائد اللعب ، دون أن تجرؤ إحداهن على الاشتراك فى شوط واحد من اللعب، أو وجوه المحترفين الماكرين أو الغانيات هاويات المقامرة.. وإنه حقا لخليط عجيب لا يجمعه توافق أو انسجام سعى إلى هذا المكان من جميع أنحاء العالم، وهو فى الحقيقة أقل بهاء وإثارة للرائى، بعكس ما درجنا على تخيله فيما نقرؤه

فى الاقـاصـيـص التى تضـفى عليـهم ثوبا وبراقـا ونموذجـا للاناقـة والارستقراطية .. !

« إننى أنقل إليك الآن ما كان يحدث منذ عشرين عاما، عندما كان الرخاء يعم العالم والنقود تتناثر على موائد اللعب من كل الانواع والفئات من أوراق مالية وعملات ذهبية، وكان «الكازينو» – معقل القمار العالمى – أعظم روعة وأشد بهاء وفتنة مما هو عليه الآن .. وكانت أموال الوافدين إليه تنساب كالماء السائل دون وعى أو تعقل ..

« وكانت هذه المظاهر حرية بأن تلفت النظر وتبعث على التسرية والتسلية .. ولكننى رغم ذلك ضقت برتابتها المتشابهة ، إلى أن دلنى زوجى – وكان نابغة فى الفراسة وفى قراءة الكف – على طريقة فذة ابتكرها لتتبع الانعكاسات التى تظهر على وجوه اللاعبين ، وهى طريقة عجيبة تطرد عن الانسان ما قد يعتريه من خمول أو جمود.. ومؤدى هذه الطريقة عدم تأمل الوجوه، بل التفرس فى مسطح المائدة حيث تتحرك أيدى اللاعبين وأناملهم فى حركات جد عجيبة ..

« ولا أعلم هل سمحت لك فرصة شاهدت فيها إحدى موائد اللعب، تلك التى يسمونها الموائد الخضراء .. حيث تجرى فوقها الكرات فى ترنح المخمور وهى تنتقل بين الأرقام ، والنقود من جميع الانواع والفئات تتساقط على مربعات الموائد كالمطر، فيجمعها المراقب أو يدفع بها إلى سعيد الحظ..

« وأطرف ما يراه الإنسان هو أيدى اللاعبين، إنه حشد من أيد متباينة.. فمنها الضامرة، ومنها النحيلة المعروقة، ومنها المرتعشة فى ترقب وتوفز انتظارا لبدء اللعب ونتيجته .. ثم منها العارية ، ومنها ما برزت من أكمامها، ومنها ما تكدست فيها الخواتم ذات الجواهر المتلألئة ، ومنها البضة الناعمة ومنها ما كساها شعر كثيف .. على أنها على اختلاف أنواعها وصفاتها

وأشكالها تتفق فى أمر واحد هو توتر الأعصاب وانفعال الحركات والرعشة التى تنبئ عن نفاد الصبر ..

« ومنظر الأيدى فى حركاتها اشبه بما يجرى فى ساحة من ساحات سباق الخيل التى شدت أعنة جيادها حتى لا تكبح فى جماحها لحظة الانطلاق، فإنها - أى الأيدي - تنقبض ، وترتعش، وتتراجع ، ثم تندفع فى حركات هستيرية وهى ممسكة بالنقود فى تكالب، ثم فى توقفها عن الحركة وكأنها شلت .. تشى بنفسية اللاعب وشخصيته، فالأيدى ذات الأظافر التى أهمل تهذيبها تدل على أن صاحبها شحيح، والأيدى التى تتحرك فى بطء واسترخاء تنم عن إسراف، والأيدى الثابتة الساكتة تحمل معنى الدقة فى تقدير نتائج اللعب .. أما الأيدى المرتعشة فصاحبها مشحون بالقنوط وفقدان الأمل .. فحركات الأيدى أشبه بشاشة «السينما» تنعكس عليها شتى المرئيات ، وهى تمسك بالنقود فى أشكال متباينة .. فبعض الأيدى يفرك النقود، والبعض ينثرها ، والبعض يقبض عليها فى تشبث ثم يلقى بها فى قنوط مما يدل على أن صاحبها قد منى بخسارة فادحة يحتقر معها الضئيل الذى تبقى له.. !

«يقولون إن اللعب مرآة اللاعب» .. ولكننى لست على هذا الرأى، ففى اعتقادى أن يد اللاعب تعطى صورة حقيقية له أثناء اللعب ، ومن ثم فإن جميع المقامرين، أو معظمهم على الأقل، يروضون أعصابهم على الصلابة، ويتحكمون فى انفعالاتهم بحيث لا تنعكس أو تظهر دلائلها على وجوههم .. ففى يتشبثون بالجمود، ويخفون حركات أفواههم ، ويبتلعون أحاسيسهم النفسية والعصبية، ويقيمون سدا بين عيونهن الواشية وسرائرهم الدفنية حتى لا تشى عيونهم بانفعالاتهم ، ويتظاهرون بعدم الاكتراث .. إنهم بكل ذلك يحصرون كل اهتمامهم فى وجوههم ناسين أيديهم،، دون أن يلحظوا عيون الرقباء المسلطة على تلك الايدى فيستشفون منها ماجهد أولئك فى

إخفائه على وجوههم ، فلا تغرهم الابتسامة الصفراء المغتصبة أو التظاهر بعدم الاكتراث ..

«ولاشك أن اليد عنصر فعال يميط اللثام عن أعمق الأحاسيس، ولابد من لحظة يخونها فيه ثباتها الاضطرارى ، وذلك فى اللحظة التى تستقر فيها الكرة عند نهاية مطافها فى لف ودوران ، فتعلن بذلك عن الرقم السعيد.. فتصدر عن مئات الأيدى حركات تشنجية لا إرادية هى أقوى تعبير يفصح عن غريزة الإنسان، وقد وجدت بالخبرة أن مراقبة حركات الايدى العصبية والتى تكشف عن مدى انفعال صاحبها ، أشبه بمشاهدة مسرحية مؤثرة أو سماع موسيقى تثير الشجن ! ..

«ولا أطيل عليك فى وصف المئات من حركات تلك الايدى المتباينة .. فبعض هذه الايدى خشن ذات أصابع صماء تقبض على النقود فى استماتة، وبعضها لا تزايله الرجفة فيتهيب من لمس النقود، ويمكن القول إن لكل يد ما يميزها عن غيرها، حتى لقد تختلف اليد اليمنى فى حركاتها عن اليسرى فى الشخص الواحد، أما أيدى المراقبين فعلى العكس من ذلك، فهى مجرد أعضاء جامدة ذات حركات منتظمة رتيبة، وهى تحدث أصواتا غريبة وهى تلوح هنا أو هناك .. ولها تأثير سحرى عجيب فى اللاعبين ، فهى بمثابة القائد الذى يحسم الأمر فى ثورة جامحة!.

«ولا يفوتنى أن أنوه بالمتعة التى كنت أستشعرها فى مراقبتى لهذا الخضم من الانفعالات وحركات الايدى ، وكان ظهور أيد جديدة مبعث سرور كبير عندى ، فكنت أبادر الى تأملها، ولا أكون مبالغة حين أقول إننى كنت أعتبرها وكأنها أشخاص .. منها ما يروق لى ومنها ما لايروق ، وكنت أتقزز من بعضها فلا أتطلع إليها ولا يعنينى أمرها .. وكأنى أرى فيها منظرا يبعث النفور فى النفس ! بيد أننى كنت أجد متعة كبيرة فى كل يد جديدة

لأنها تثير عندى شعور الفضول وحب الاستطلاع، وكثيرا ما كنت لا ألقى بالا إلى الوجوه سواء أكانت للرجال أو السيدات ..

«وكنت قد مررت بمائدتين تكاثر الناس حولهما عندما وطئت قدماى «الكازينو» فى تلك الأمسية التى بدأت فيها حكايتي وما إن اقتربت من المائدة الثالثة حتى أخذت أحصى بعض القطع الذهبية وإذا بى أرى ما أدهشنى .. فقد ران على المائدة وجوم وصمت مفعمان بالتوفز، وخيل إلىّ أننى أسمع صوت الصمت. إن كان للصمت صوت .. فقد اقتربت الكرة من نهاية مطافها، ولم يبق إلا لحظة تستقر بعدها عند الرقم المحظوظ ، وإذا بى وسط هذا الصمت الرهيب أسمع صوتا غريبا فى مواجهتي يشبه صوت العظام حين تتهشم ! .. وملأنى الذعر حين تطلعت ناحية الصوت لأرى يدين ليس لهما نظير ، وقد أطبقت إحداهما على الأخرى فى التحام عنيف وفى شدة وحشية، فانطلق منهما ذلك الصوت الغريب الذى يشبه شيئا صلدا يتكسر ..

«وراعنى أن أرى الجمال فى هاتين اليدين.. ذلك النوع النادر من الجمال، فقد كانتا طويلتين فى إسراف، شديدتى النحول ، ولكن عضلاتهما خارقة فى القوة.. كما كانتا فى بياض الثلج، وفى أطرافهما أظافر كالحة لامعة شذبت فى عناية، ووجدت نفسى لا أكف عن التحديق فيهما، فقد أخذتنى الدهشة لهاتين اليدين العجيبتين، وراعتنى حركاتهما وهما تتصارعان فى عصبية وعنف، وأيقنت أنهما لرجل تضاهى قوته قوة هرقل ، وأن قوته تلك تجمعت فى أصابعه، ففاضت بها حتى لا يكبتها فتقضى عليه.. وانفصلت كل من اليدين عن الأخرى ، وتراختا على المائدة بلا حراك فى اللحظة التى استقرت فيهما الكرة وأعلن المراقب الرقم المحظوظ، وقد نمت اليدان فى ارتخائهما عن هلع وأسى يعجز أبلغ بيان عن وصفهما .. فكأنما

أردتهما رصاصة أو انقضت عليهما صاعقة .. لقد كانتا يدين لشخص سرت روح المقامرة فى عروقه ودمه ، فعبرتا عن انفعالاته أصدق تعبير ..!

«استلقت اليدان على المائدة، وظلتا كذلك برهة وكأنهما سمكتان ميتتان لفظهما البحر وألقى بهما على شاطئه .. يبعث منظرهما فى النفس غثيانا .. وبعد فترة أخذت أصابع اليد اليمنى تتحرك فى ارتجاف، ثم تتقلص فى انكماش وتردد ، وتمسك «فيشة» فى حركة عصبية وتقلبها فى حيرة .. ثم إذا باليد تتراجع فجأة وكأنها أسد يتحفز للهجوم، فتقذف «بالفيشة» إلى حيث المربع وكأنها لقمة غير سائغة تلفظها .. وفى هذه اللحظة اضطربت اليد اليسرى بعد استرخاء، ونهضت إلى زميلتها اليد اليمنى التى كانت ترتعش فى تشنج، وكأن إلقاء «الفيشة» قد هدها واستنفد قواها ، وراحت اليدان ترتجفان معا، فصدر عنهما صوت كصرير الاسنان حين تصطك تحت وطأة المرض، وأخذتا ترتطمان بالمائدة بشكل لا شعورى ..

«أجل .. لم يحدث أن رأيت - على طول عهدى بالسنين - يدين بليغتين فى التعبير كهاتين اليدين التى ترجمت اختلاجاتهما جميع المشاعر والاحاسيس .. حتى لقد تضاءل بجانبهما كل نشاط كان يجرى فى حجرة اللعب من همهمة وصياح وغدو ورواح ، بل فى حركة الكرة ذاتها وكأنها فى قفزاتها جواد هائج جامح .. لقد تضاءل كل ذلك على تعاقبه - فى نظرى - بجانب هاتين اليدين المنتفضتين العجيبتين اللتين استغرقتا كل انتباهى وتفكير .. !

«واستبد بى الفضول الجارف لأن أتطلع الى وجه صاحب هاتين اليدين النادرتين .. فاختلست النظر في حذر كما اختلسته فى توجس، فقد كانت اليدان تبعثان الرهبة في نفسى ، وزاد ارتياعى حين انتقلت بنظرى من اليدين الى الذراعين، ثم الى الكتفين اللذين يعلوهما وجه لا يقل فى ثورته وانفعاله عن اليدين.. تنم أساريره عن صراع عنيف، بيد أن الوجه كان دقيق

التقاطيع نموذجا لجمال فريد رائع وكأنه وجه حسناء فاتنة !.. لم يسبق لى أن رأيت وجها يضارعه فى بهائه، حتى ليخيل إلى الانسان أنه ليس وجه ذلك الجسد الذى يحمله .. وكأنه وجه ناعم رقيق مستعار لجسم مارد مكتمل الرجولة !

«وأشبعت غريزة الفضول .. فرحت أتأمله مليا، فخيل إلىّ أن قناعا يكسوه فيخفى حقيقة أمره ، أو أنه رجل صناعى لا حياة فيه، فقد كانت عينه ثابتة لا تطرف إلا نادرا وفى ومضات خاطفة، كما كانت حدقة العين السوداء ساكنة هى الأخرى وكأن لا حياة فيها ، ينعكس عليها طيف كرة اللعب وهى تجرى فى جنون داخل الصندوق المستدير .. !

الفصل الخامس

يدان ساحرتان

وسكتت قليلا لتسترد أنفاسها ، ثم استطردت تقول :

«كان ذلك الوجه الجميل الفاتن الزاخر بشتى الأحاسيس والانفعالات ، والذى لم يصادفنى فى حياتى نظيره ، وجه شاب فى عنفوان الفتوة فى حوالى الخامسة والعشرين من العمر .. كان وجها دقيقا يميل إلى الاستطالة فى خفة، يترجم فى وضوح ما ينتابه من أحاسيس ، ولا يمت لمظاهر الرجولة بسبب ، فكأنه وجه طفل يلهو فى براءة.. وقد أدركت ذلك فيما بعد ، فقد بدا لى لأول وهلة محتجبا خلف قناع من الأحاسيس الانفعالية التى تدل على جشع مستعر مضطرم .. وكان فمه دقيقاً وكأنه فم فتى يافع ، أطلت من بين شفتيه الزاخرتين بالحيوية أسنان كانت تصطك فى تشنج وانفعال، بينما الشفتان ثابتتان منفرجتان ، وزادت من بهاء طلعته تلك الخصلة من الشعر الذهبى اللامع المسترسل - فى غير تموج - التى انسدلت على جبينه.. وراحت فتحتا أنفه تهتزان فى اختلاج متواصل، وكأن تيارا كهربائيا يدفع موجاته فتسرى تحت صفحة وجهه .. وأخذت رأسه تزداد انحناء إلى الإمام ، دون وعى منه، فقد كان يتابع بكل جوارحه حركة الكرة فى دورانها..

«وتكشف لى إذ ذاك سر الصراع كانت يداه واقعتين تحت تأثيره، فقد كان اشتباكهما لكى يحفظ توازن ذلك الجسد الذى فقد القدرة على الصمود.. ولا يضيرنى أن أعيد القول إننى لم يصادفنى فى حياتى وجه يزخر بالمشاعر الدافقة فى سفور واضح كهذا الوجه، فوجدت نفسى - تلقائيا - أتفرسه فى نهم ، وقد أخذتنى تلك النظرات الحائرة التى كان يتتبع بها الكرة فى حركاتها .. وقد شغلنى ذلك عن أى أمر عداه ، فلم أعد ألقى بالا إلى شىء آخر .. لأنه استحوذ على كل اهتمامى حتى بدا لى أن كل أمر آخر تافه عديم القيمة، معتم، بجانب ذلك البريق الذى يتدفق من ذلك الوجه..

«وظللت ساعة بأكملها وأنا شاخصة اليه وحده دون سواه، قضيتها فى التفرس فيه وتأمل ومتابعة كل حركة من حركاته وخلجة من خلجاته ، وعلى حين غرة ، ومضت عيناه ببريق مؤتلق وهاج، وافترقت يداه عن بعضهما ، وانفصلت الأصابع عن بعضها فى حركة عصبية.. حين وضع المراقب فى اليدين عشرين قطعة ذهبية، أطبقتا عليها فى استماتة.. فأشرق الوجه ، وزايله الانفعال، واكتسى بالبشاشة ونشوة الصبا.. فنمت أساريره عن غبطة وتألقت عيناه ، واعتدل رأسه بعد انحناء فى رشاقة واطمئنان، فانتصب فى وقفته وقد انتشى بالفوز ، وراح يقلب القطع الذهبية بين يديه فتحدث رنينا محببا ..

«وراح الشاب ينظر الى رقعة المائدة ثانيا كأنه ينشد صيدا جديدا .. وبحركة عصبية وضع القطع الذهبية جميعها فى لهفة على أحد المربعات ، ثم أخذ يترقب النتيجة ، وعاد الانفعال يعتريه من جديد .. فأخذت شفتاه تهتزان وتوترت يداه، وارتسم على الوجه الذى كان قد هدأ قلق جارف، واستمر الأمر هكذا الى أن فعل القنوط فعله، فاسترخت اليدان وشحب الوجه الذى كان منذ لحظة يفيض بالشباب والحيوية، فأضحى وكأنه وجه كهل ذهب تألق عينيه..

«وقد حدث ذلك بين غمضة عين وانتباهتها .. فقد استقرت الكرة على غير الرقم الذى وضع فوقه قطعه الذهبية، وبذلك جانبه الحظ.. وأخذ يرسل نظرات بلهاء بلا وعى أو شعور، ومرت على ذلك بضع ثوان اعقبتها صيحة من المراقب نبهته وكأن مسا كهربائيا سرى فى جسده ، فتناول قطعا ذهبية أخرى ووضعها فى أحد المربعات ثم نقلها الى مربع آخر .. وإذ بدأت الكرة تتحرك ، عاد فتناول ورقتين ماليتين ألقى بهما فى نفس المربع الذى اختاره كأنما أوحى إليه أن يفعل ذلك ..

«وتأرجح به الحظ بين ربح وخسارة ساعة أو بعض ساعة، لم أكف خلالها عن التطلع الى ذلك الوجه الذى تتناوبه شتى المشاعر والأحاسيس تبعا لنتائج اللعب من إقبال الحظ أو إدباره .. كما لم أكف عن متابعة يديه الساحرتين وهما ترتفعان وتنخفضان وكأنهما كرة تتقاذفها الأمواج .. وهما تنمان بحركاتهما عن انفعالات صاحبهما التى لم أر لها مثيلا على وجه أكفأ المثلين براعة .. انفعالات وأحاسيس كأنها أضواء تعكس مرئيات طبيعية، وما انصرفت يوما من الأيام بكليتى ، وحصرت اهتمامى فى أمر من الأمور أو شىء من الأشياء ، مثلما انصرفت الى تأمل هذه الفورة المضطرمة.. وأنا واثقة لو أن أحدا راقبنى حينذاك لذهب به الظن أننى كنت واقعة تحت تأثير تنويم مغناطيسى ، فقد كنت مسلوبة الحس كلية ..

«وما كان باستطاعتى أن أحول نظرى عن التطلع إلى هذه الانفعالات التى كانت تتعاقب فى إثر بعضها .. فقد كان كل ما أسمعه من ضحكات أو زفرات ، وكل ما أراه من نظرات وانطباعات ومخلوقات وكأنه اشباح تخطر أمامى فى صورة باهتة، عدا ذلك الوجه الذى خيل الى أن هالة من النور تحيط به فتجعله واضحاً دون سواه .. فلم أعد أعى شيئا مما حولى أو أسمع صوتا أو أرى القوم فى تدافعهم، فلم تستقر أمام عينى سوى هاتين اليدين، وهما تقذفان بين الفينة والفينة بالنقود فوق المائدة أو لتجمعاها .. بل إننى لم أعد أفكر فى أن أنظر إلى الكرة لأتابع حركاتها وموضع استقرارها، أو أنصت إلى المراقب وهو يعلن النتائج .. ومع ذلك تراءى لى كل شىء واضحا ، وأنا أراقب يدى الشاب واختلاجاتهما ، وخيل إلىّ أننى فى حلم لا فى يقظة واقعية .. !

«لم أكلف نفسى عناء التطلع إلى المائدة لأتبين اللون الذى استقرت عنده الكرة ، أو أنها قد استقرت فعلا ، أم لا تزال تجرى كما فى فلك دورانها ..

فقد كنت أقرأ نتيجة كل شوط، ربما كان مكسبا أو خسارة، فى انفعالات ذلك الوجه الذى استغرقته شهوة المقامرة واستبدت بأعصابه واختلاجاته ..

«وحلت لحظة قاسية رهيبة، كنت أتوجس منها فى قرارة نفسى .. ناءت بها أعصابى المتوترة، كما ينوء المرء تحت وطأة العاصفة قبل أن تدهمه .. فقد رأيت الكرة تتباطأ فى تثاقل وأخذ الصوت الذى تحدثه يخفت رويدا .. وأصبحت اللحظة الحاسمة وشيكة الحلول ، والتى تتقلص فيها الشفاه لتحبس الأنفاس القلقة المترقبة اللاهثة .. حين أعلن المراقب أن رقم «صفر» هو الفائز ، وأخذ يجمع النقود الذهبية والورقية من مربعات المائدة .. فندت عن اليدين حركة تفيض بالهلع، قد انتفضتا فى عصبية.. ثم استرختا فى إعياء وتهالك ، وكأنما تحت وطأة ثقلهما قد جذبتهما قوة طاغية نحو المائدة، فراحتا ترتعشان فى ألم .. وفجأة دبت الحيوية فيهما، فانحسرتا عن المائدة واتجهتا الى جسم صاحبهما تتلمسان جميع جيوبه بلهفة شديدة لعل بأحد هذه الجيوب قطعة من نقود لم ينتبه اليها.. ولكنهما وجدتا الجيوب خاوية فعاودتا البحث مدفوعة بالأمل .. دون جدوى ، وعاد اللاعبون فاستأنفوا اللعب، وعاد رنين النقود الذهبية يطن فى الآذان، وأخذت المقاعد تتحرك وتتنقل ، وامتلأ الجو بالهمسات والتكهنات .. أما أنا فقد اعترتنى رجفة شديدة وشملنى قنوط قاتل ، فقد وجدت نفسى دون أن أشعر قد اندمجت فى تل الأحاسيس والمشاعر ، وكأننى أنا التى رحت أنقب بين جيوبى عن قطعة نقود منسية..!

«وفجأة انتصب الشاب واقفا، وكأنه أصيب بما هد قواه ، وأخذ يتمطى حتى لا تختنق أنفاسه .. وترنح المقعد من خلفه تحت تأثير وقفته المباغتة ، وهوى على الأرض محدثا صوتا شديدا.. بيد أن الشاب لم يلق بالا إلى ماحدث، ولم يكلف نفسه عناء التطلع إلى من بالقاعة من المقامرين الذين أخذتهم الدهشة وهالهم منظر الشاب الذى كاد يهوى إلى الأرض من فرط

القنوط .. ولكنه تحامل على نفسه وأخذ يبتعد عن المائدة فى خطى متئدة متثاقلة ..!

«وهالنى ذلك المنظر .. فشعرت أننى مشدودة إلى مكانى لفرط هلعي، وأيقنت بالبديهة أن الشاب فى طريقه إلى لقاء حتفه .. فلم تكن الطريقة التى نهض بها توحى بأنه ذاهب الى نزهة، أو حفل سمر ، أو ملهى ، أو أن موعدا له مع امرأة قد حان فهو ساع الى مخدعها .. وإنما ارتسم على صفحة وجهه فى جلاء أنه اعتزم أمرا جللا .. اعتزم ان يضع حدا لحياته فيموت ولم يكن ذلك ليخفى على أبسط العقول ، أو حتى أصحاب النظرة السطحية ، فقد بدا واضحا أن الشاب قد أفلس ولم يعد يملك بنسا واحدا فى جيبه أو بيته ، وأنه قامر بكل ما يملك ، فاستقر رأيه على أن يقامر بما تبقى له فى الدنيا .. بحياته ، فسار بتلك الخطى الوئيدة المتعثرة نحو المجهول .. الذى لابد وأنه خارج نطاق الحياة ..

«وكان قد خالجنى الشعور بالتوجس منذ طرقت هذا المكان ، أن ممارسة المقامرة لا تقتصر على الربح والخسارة، بل إن لها آثارا أعمق غورا وأبعد مدى من ذلك بكثير .. آثارا لا تنحصر فى المال فقط بل فى حياة الإنسان وصيرورته ، لذلك هالنى أن أرى شبح الموت يحوم حول الفتى ، وقد تجلى ذلك لما رأيته من شحوب على وجهه الذى لا يزال فى نضارة الشباب .. فلما رأيته ينهض متحاملا فى إعياء بالغ، تقلصت قبضتاى لا شعوريا، لأننى كنت قد انصرفت بجميع حواسى إليه .. فأثرت فى نفسى خطواته المتعثرة ، كما أثرت انفعالاته من قبل فى أعصابى ، ووجدت نفسى أتبعه تلقائيا بدافع قوة لا إرادية .. ودون وعى منى أو انتباه رحت أهرول فى الممر المفضى الى الخارج، وكأننى منومة تنويما مغناطيسيا أو إحدى صريعات مرض السير أثناء النوم ..!

«فى تلك اللحظة كان الشاب قد دلف إلى حجرة الثياب، وقد حمل الخادم معطفه .. ولكن ذراعى الشاب وهنتا كما لو كان قد أصابهما شلل ، فراح الخادم يعاونه وكأنه يعاون طفلا صغيرا لا يدرى كيف يرتدى معطفه أو عاجزا يقعده المرض عن ارتدائه فى سهولة.. ولمحت الشاب يبحث بطريقة آلية عن قطعة من النقود فى أحد جيوبه ينفح بها الخادم دون جدوى .. وبدا لى فى هذه اللحظة أنه استعرض كل ما مر به فى غرفة اللعب وتذكره ، فلم يسعه إلا أن يتمتم ببضع كلمات مبهمة كأنه يعتذر بها للخادم .. وكما حدث حين انتصب واقفا فى حجرة اللعب، سار فجأة الى الخارج وأخذ يهبط السلم متعثرا كالمخمور ..

«ومنظر كهذا حرى بأن يكون محرجا ومثيرا، حتى لقد شعرت بالخجل لوقوفى ومشاهدته .. فأشحت بوجهى لأننى استشعرت بالضيق والكآبة فقد تراءى لى أننى أمام مأساة من مآسى اليأس وتجربة من تجارب الحياة القاسية، يعانيها شخص لا يمت لى بصلة .. فشملنى ألم قاتل استغرق كل مشاعرى وكيانى ، وجعلنى أتبع الشاب ، فتناولت معطفى وارتديته على عجل، وبلا شعور ، ودون وعى أو تفكير ، اندفعت فى غمرة الظلام مقتفية أثر الشاب وخطواته ..

الفصل السادس

مـــــأزق

ران الصمت على السيدة، وتوقفت عن الكلام .. وكانت طوال حديثها قابعة فى مقعدها فى سكون دون حراك، ولم تتوقف عن الحديث إلا نادرا ريثما تسترد أنفاسها، يشملها ذلك الهدوء المعروف عنها .. كما كان حديثها واضحا جليا كأنما كانت قد أعدت نفسها له إعدادا كاملا ، فقد سردت الحوادث فى ترتيب وتنسيق بديعين .. وأطالت الصمت فى هذه المرة ، وبعد شىء من التردد تركت سياق القصة جانبا وأخذت تحدثنى موجهة الى الكلام قائلة :

«غنى عن القول أننى أخذت على نفسى عهدا بأن أقص لك الموضوع، وأن أسرد دقائقه فى صدق وصراحة دون مواربة أو دوران .. ولذلك أرى لزاما علىّ أن أرجوك أن تثق كل الثقة فيما أرويه، وألا ينصرف ذهنك الى تعليل تصرفى إلى بواعث عاطفية أو جنسية يخجلنى أن أفكر فيها الآن.. فإن خطر ذلك ببالك ، فسيكون قد جانبك الصواب وستتراءى لك احتمالات أبعد ما تكون عن الحقيقة والواقع ، ولذلك فمن الضرورى أن أجعلك توقن أننى حينما اقتفيت أثر ذلك الشاب المحطم الموشك على الهلاك، لم أكن قد استشعرت عاطفة حب نحوه على أية صورة من الصور .. وأننى أنفى عن نفسى أننى نظرت اليه نظرة أنثى إلى رجل أو نظرة جنس ، لأننى - وأصدقك القول - كنت قد نيفت على الأربعين فى ذلك الحين ولم يشغل فكرى بأى رجل بعد وفاة زوجى .. بل اعتبرت ذلك أمرا ولى وانقضى وصار فى سجل الماضى ، ولابد لى من أن أذكر لك ذلك على وجه التدقيق .. وإلا فلن تدرك ما تلا ذلك من أحداث لبشاعتها وشناعتها ..

«وإنه لمن العسير على حقا أن أصور الشعور الذى انتابنى والذى لم أجد فى نفسى القدرة على مقاومته تصويرا دقيقا .. ذلك الشعور الذى دفعنى الى تتبع ذلك البائس ، ولاشك أن الفضول كان أحد الدوافع ، ولكنى أعتقد أنه يرجع بالأكثر الى الهلع والتوجس من حدوث أمر رهيب ، ولا أكون مبالغة

إذا ذكرت اننى استشعرت ذلك منذ اللحظة الأولى التى رأيت فيها ذلك الشاب.. وليس باستطاعتى تحليل أو تعليل تلك المشاعر فهى غامضة كل الغموض، وبخاصة لأنها كانت متلاحقة متشابكة فى عنف وسرعة ودون تفكير أو سابق تدبير .. وأقرب تشبيه يعن لى الآن أننى تصرفت كشخص هم بإنقاذ طفل يوشك على الهلاك بإلقاء نفسه تحت عجلات سيارة أو قطار، وكيف تعلل الدافع الذى يحدو بشخص مالا يعرف من شئون السباحة شيئا، ورغم ذلك يلقى بنفسه فى اليم محاولا إنقاذ إنسان يشرف على الغرق .. لابد وأن هناك قوة غير مفهومة أو إرادة غامضة تطغى على تفكير الشخص فيقدم دون وعى على امر ترجح فيه كفة هلاكه ..

«هكذا تماما كنت أنا .. فقد اندفعت بلا وعى أو تبصر أو روية ، فرحت أتعقب ذلك اليائس البائس من حجرة اللعب الى حجرة الثياب الى الباب الخارجى ثم الى فناء «الكازينو» .. وأنا على يقين أنه ما كان فى وسع أحد غيرى - رأى ما رأيته - أن يقف مكتوف اليدين ، أو يستطيع مقاومة الفضول ازاء أمر مثير يبعث القلق فى النفس .. وهل هناك منظر يدعو الى الاشفاق والأسى أشد تأثيرا من منظر فتى لا يزال فى ميعة الشباب ، وقد أخذ يجر قدميه فى تهالك ويأس - وقد تحطمت قواه - الى مصير مجهول..!؟

«ورأيته وقد تهالك فى إعياء بالغ على أحد المقاعد فى فناء «الكازينو» وكأنه جثة آدمية لا حراك فيها .. فانتابتنى موجة من الارتجاف ورعشة شملت كل أوصالى ، وأيقنت أن الشاب قد استنفد كل طاقة على المقاومة وأن اليأس قد استبد به الى أقصى مداه .. فهذه حال من فقد كل حساسية، ولم تعد تنبض فيه عضلة حية ، فقد مال رأسه الى الخلف متكئا به على ظهر المقعد ، وتدلت ذراعاه مسترخيتان شأن من فارقته الحياة، ولو أن أحدا رآه فى وضعه هذا لما شك فى أنه قد قضى ..

«وخيل إليّ ذلك أنا أيضا، وليس باستطاعتي تفسير قيام هذه الصورة بذهني .. بيد أنه هكذا تراءى لي ، وكأن ما أراه حقيقة واقعة ملموسة مروعة.. فخيل إليّ أنني أمام جثة لشاب فارقته الروح في ميعة الصبا قبل الأوان ، ولم أشك في أنه يحمل مسدسا، وأن أمره لن يلبث أن يكتشف هكذا هامدا غارقا في بركة من الدماء، وكأنه حجر قذف به في هاوية فاستقر في قاعها .. لقد كان كتمثال ينطق باليأس القاتل والإعياء المهلك ، لم أر له نظيرا من قبل..

«تصور موقفي إزاء ذلك .. لقد وجدت نفسي في مأزق لا أحسد عليه، في ورطة عز عليّ التصرف فيها .. فقد كنت على قيد خطوات من رجل تهالك وتداعى وفقد كل طاقة وحركة، وحزب بي الأمر ، واشتدت حيرتي فلم استطع التفكير فيما يجب أن أفعل ، وتنازعتني الرغبات والهواجس ، فأنا أشعر بالرغبة في انقاذه ومد يد الغوث له .. وفي الوقت نفسه ، أستشعر الجزع من الإقدام على مخاطبة رجل غريب عني - تحت تأثير ما درجت عليه في حياتي ومن تربيتي - وكان السائرون القليلون يحثون السير على ضوء المصابيح الشاحبة، وتحت السماء التي تلبدت بالغيوم في ذلك الليل البهيم الذي كاد أن ينتصف ، وبذا وجدت نفسي منفردة في ذلك المكان، مع ذلك الشاب الموشك على الانتحار والهلاك .

«وشددت من عزيمتي أكثر من مرة ، وهممت بأن أدنو ن الشاب .. بيد أنني كدت أعدل وأتراجع بدافع لعله الخجل أو الحياء ، أو لعله بدافع الاحساس الغامض الذي يوحي الى النفس بأن المشرفين على الهلاك يجتذبون معهم من يخف لإغاثتهم ، أو لعله بدافع الغريزة التي تهيب بالنفس أن تنأى عن مواطن الهلاك ناجية بنفسها .. وبينما أنا في غمرة هذه الدوامة، أدركت مدى الحرج الذي وضعت نفسي فيه ورميت نفسي بالحماقة.. وتبلد تفكيري ، فلم أستطع أن أنطق بكلمة ، ولم يسعفني ذهني

فيرشدنى إلى أن أفعل شيئا ، حتى إلى أن أترك الشاب لشأنه .. ولا أكون مبالغة إذا قلت إننى ظللت على تلك الحال ساعة خلتها شهرا ، بينما كانت أمواج البحر التى يحجبها الظلام الدامس عن عينى تتدافع متعاقبة مع الزمن السائر الذى لا يتوقف .. وأنا فى حيرة وأسى واضطراب أمام مشهد لمأساة تمثل نهاية مفجعة لواحد من بنى الإنسان.. !

«شل تفكيرى وشلت حركتى ، فلم تسعفنى القريحة بكلمة، ولم يسعفنى العقل بعمل أو إجراء أقدم عليه أو أقوم به، وكان من الممكن جدا أن أظل على تلك الحال حتى ينبلج الصبح ، أو أن أعود القهقرى من حيث أتيت بدافع من حب الذات أو الأنانية - أو كما سبق أن ذكرت - بدافع الغريزة التى تهيب بالنفس أن تنأى عن مواطن الهلاك وتلوذ بالنجاة، واعتقد أن رأيى كان قد استقر على أن أدع هذه الكومة التعسة لشأنها ومصيرها ، لولا أن قوى جارفة قضت على ترددى وبلبلة أفكارى .. فقد أخذ المطر ينهمر حين جمعت الريح السحب المشبعة ببخار الماء الذى أثقلها ، فأخذت تتساقط غيثا، ثم صارت سيلا مدراراً، وكأنما يطاردها مطارد .. فلجأت تلقائيا إلى إحدى المظلات أحتمى بها من المطر ، ورغم ذلك فقد انتشرت حباته على ثيابى فبللتها ، بل إننى شعرت بالرذاذ على وجهى ويدى .. وقد كان المنظر مروعا بالغ الرهبة يلفنى الهلع كلما تذكرته ، وظل المسكين رغم كل هذا جامدا لا يتحرك، ولا تبدر منه بادرة حياة، وظل المطر ينهمر فى غزارة فيجرى ماؤه جارفا، بينما كانت طرقعة عجلات العربات تترامى إلى سمعى من المدينة .. كما كان الناس يحثون السير ويسرعون الخطى ، وقد التفوا فى معاطفهم، وعمد كل مخلوق الى الانكماش ، وأخذ ينشد ملاذا يقيه وقد انتابه فزع شديد .. فنشرت الطبيعة الثائرة سلطانها على مخلوقات الله فبثت فيهم الخوف ودفعتهم الى التماس الاحتماء ، عدا ذلك التعس المسكين الذى ظل جامدا فى مكانه دون حراك ولا يشعر بشىء .. !

«لعلك تذكر ما سبق أن قلته لك عن القدرة البالغة التى تميز بها الشاب فى التعبير عن اختلاجاته وأحاسيسه بما يعترى وجهه ويديه من حركات وتقلصات .. بيد أنه لم تكن هناك صورة حقيقية لليأس وفقدان الشعور بالحياة من ذلك الجمود المطبق، بالرغم من انهمار المطر .. وذلك الإعياء الشديد الذى جعله لا يقوى على التحرك التماسا لمأوى يحتمى به .. لقد نسى نفسه وفقد كل مشاعره .. لقد كان مثالا ناطقا لليأس والقنوط والشقاء، إذ ترك نفسه فريسة لهلاك محقق ..

«ووجدت نفسى أمام أمر واقع ، وأنه يتحتم علىّ ألا أقف مكتوفة اليدين.. بل لابد لى من إجراء فعال أستجمع شجاعتى فأقدم عليه، وسرعان ما اقتربت منه غير مبالية بذلك السيل المنهمر من المطر ، وأخذت أجذب ذلك الجسد الجامد الذى بلله الماء وصرخت فيه وأنا أحرك ذراعيه المتراخيتين : «انهض !» فطالعنى وجه مكفهر ، وتطلع إلىّ بنظرات زائغة ، وأحسست أن ذلك الجسد المتهالك لاتزال فيه بقية من حياة ، بيد أن نظراته لم توح بأنه أدرك ندائى .. فأعدت الكرة وأنا أجذبه من كتفه ، وصرخت فيه بصورة تنم عن غضب وأمر : «قم ..» .. فتحامل على نفسه ، ونهض فى ترنح بصورة آلية ، ثم قال : «ماذا تريدين منى ؟..» .

«وبعث سؤال الحيرة فى نفسى ، فلم أحر جوابا .. لأننى لم أفكر – وقد أقدمت على مد يد العون له – فى المكان الذى أذهب به إليه ، فقد كان كل اهتمامى أن أحميه من المطر والصقيع، وأن أبث فيه روحا من الحيوية والهمة لأنزع منه روح التخاذل الذى أسلمه الى يأس مهلك ، وظللت متشبثة بذراعه ، ثم أخذت أسحب ذلك الجسد المضنى حتى بلغت دكانا صغيرا لبيع الأزهار، تعلوه حافة تدرأ المطر المنساب الذى حوله الريح إلى سيل جارف، وكانت أمنيتى أن أقى المسكين من ذلك السيل الجارف، وانصرف تفكيرى إلى العثور على مأوى له ..

«هكذا عفوا وجدت نفسى بجانبه فى ذلك المكان الضيق الذى لجأنا اليه التماسا للحماية من المطر أمام الدكان الذى كان بابه مغلقا ، وحافته ليست من الاتساع بالقدر الذى يقينا تماما .. فكان الماء يصيب وجهينا وملابسنا ، وضقت ذرعا بذلك المأزق الذى وضعت نفسى فيه ، فما كان باستطاعتى أن أطيل البقاء على هذا الوضع إلى جوار رجل غريب عنى .. وفى الوقت نفسه كان من المتعذر أن أتركه للقدر بعد أن آليت على نفسى أن أنقذه ، فقد رأيت أن الواجب يقتضينى ذلك .. وفكرت فى الأمر من جميع الوجوه ، فهدانى تفكيرى الى ما رأيت أنه أفضل ما يمكن عمله وهو أن أستقل عربة توصلنا الى محل اقامته ، ثم أعود أدراجى .. وقدرت أنه لابد سيفكر فى أمر نفسه ومصيره فى الغد..

«ونظرت إلى الكائن البشرى الماثل إلى جانبى والذى كان يرسل نظرات زائغة فى ذلك الليل المدلهم .. ثم سألته عن محل اقامته ، وأدهشنى جوابه الذى نطق به ، فقد كان آخر ما كنت أتوقع أن أسمع .. إذ أنبأنى ألا مأوى له ، وأنه حضر فى تلك الليلة من سنيس» وأنه لم يكن يتوقع أن يحظى برفقة أحد، ولم أفهم مقصده فى مبدأ الأمر ، ولكننى أدركت فيما بعد أنه ظن أنى احدى الفراشات الرخيصة من اولئك الغوانى اللائى يجئن إلى «الكازينو» طمعا فى أن يصبن بعض المال السائل على الموائد من بعض الرواد الذين يسعدهم الحظ ويتسم لهم، والذين أدار المال والخمر عقولهم فيسهل إغراؤهم.. ويكونون بمثابة الصيد لأولئك الغوانى اللائى يعج بهن ذلك المكان الذى يتحول فيه المال إلى شىء رخيص سهل البذل . وعجبت كيف ذهبت الظنون بذلك التعس الذى كان منذ لحظة مشرفا على الهلاك الى هذا الحد الذى لم يخطر لى ببال ، وقد التمست له العذر ، فأية فكرة كان يمكن أن تراوده غير تلك الفكرة، بعدما رأى من تطفلى وبعد أن حملته على النهوض

من مقعده دون معرفة أو حرج ؟ !.. إننى لا أنكر أن مسلكى هذا لا تقدم عليه سيدة تحترم نفسها .. بيد أننى لم أضع ذلك موضع الاعتبار وقتذاك، وقد أدركت بعد فوات الأوان مدى احتقاره البالغ لى ، ولو أننى فهمت مغزى كلامه حين نطق به ، ما تصرفت ذلك التصرف الذى أوحى إليه بأنه صادق فى ظنونه ..!

الفصل السابع

خلوة اضطرارية!

«ظن التعس بى السوء حين أشرت عليه أن يأوى لتوه إلى حجرة فى أحد الفنادق ، فأفحمنى برد قاس جعلنى أفطن إلى ظنه الخبيث.. إذ أنبأنى فى سخرية لاذعة دون أن ينظر إلىَّ أنه ليست به حاجة إلى غرفة، وليست به رغبة فى شىء ، وأنه أحرى بى ألا أسعى وراء ذلك، وأننى أخطأت فى اختياره بالذات لأنه لا يملك نقودا .. قال ذلك بأسلوب ناب وفى سخرية مثيرة !

«وبدا فى وقفته المتراخية واستناده على الجدار منفرا يبعث الاشمئزاز فى النفس ، فقد كان واهنا ومبتلا .. وآلمنى جدا ذلك التصرف من جانبه نحوى حتى جعلنى أحس بمرارة الاهانة التى رمانى بها فى قحة بالغة وعدم تبصر ، بيد أن ذلك لم يغير من شعورى نحوه ، الذى يتلخص فى أن أمامى شابا فى مقتبل العمر دفعه اليأس إلى الإقدام على الانتحار .. وأن الواجب الانسانى يقتضينى أن أنقذه، فاقتربت منه وهمست فى أذنه ألا يفكر فى أمر المال، وطلبت اليه أن يصحبنى ، لأن البقاء هكذا لا يجدى ، وأننى سأتولى البحث عن مأوى .. وما أردت بذلك سوى أن أتم المهمة التى أخذتها على عاتقى لكى أجنب المسكين سوء المصير ..!

«وتململ الشاب وهز رأسه بحركة تنم عن اقتناع ، إذ إن المطر ينهمر فى سيل جارف وينساب ماؤه بين أقدامنا بحيث يتعذر علينا أن نتقدم خطوة واحدة .. ولمحته يختلس النظرات إلى وجهى ، وكانت هذه أول مرة يفعل فيها ذلك .. وبدا كأنه أخذ يسترجع قواه ويفيق مما ألم به ويعى ما يجرى ، إذ مالبثت أن رأيته يوافق على ما ارتأيته ولكن فى عدم مبالاة.. إذ أردف موافقته بقوله إن كل شىء عنده سواء فلماذا يعترض ؟!!.

«واقترب منى عندما بسطت مظلتى.. وادهشنى وبعث فى نفسى التقزز آن أراه يضع ذراعه تحت ذراعى كأن الكلفة قد زالت بيننا.. وتوجست من ذلك، وشعرت بدبيب الخوف ينفذ إلى قلبى، بيد أننى آثرت ألا أصده، أو

أرده، أو أشعره بعدم لياقة ذلك الفعل من جانبه، لأننى خفت أن يورده اعتراضى موارد الهلاك.. فأكون قد قضيت على ما آليت نفسى عليه قضاء مبرما.

«وتلمسنا طريقنا فى حذر بخطوات متئدة نحو «الكازينو» وفى تلك اللحظة اتضح لى جليا أننى أصبحت فى مأزق عواقبه وخيمة، فأعملت التفكير الذى هدانى إلى أن من الأفضل أن أذهب به إلى أحد الفنادق.. ثم أمنحه بعض المال ليواجه به أجر الفندق عن تلك الليلة، وليستطيع أن يسافر إلى «نيس» فى الصباح.. لقد كان هذا كل ما جال بخاطرى، ولا شىء غير هذا.. وكانت العربات تتتابع فى سرعة أمام «الكازينو»، فاستوقفت عربة ركبناها.. وكان من الطبيعى أن يسأل الحوذى عن وجهتنا، وأخذتنى الحيرة أى فندق أذكره للحوذى.. فقد كانت الأمور تسير ارتجالا وفى سرعة دون تفكير، وتدبر، وجالت بخاطرى فكرة، هى أن ذلك التعس الجالس إلى جانبى فى إعياء وتهالك والذى لا يكاد يميز شيئا، لا يهمه أن ينزل فى فندق من فنادق الدرجة الأولى أو الفنادق الممتازة.. كما لم أنتبه - لسذاجتى - أن من الجائز جدا أن يسىء بى الظن أحد حين يرانى فى هذا الوضع مع شاب، فأومأت إلى الحوذى أن يذهب بنا إلى فندق متواضع..!

«وما إن سمع الحوذى ذلك، حتى ألهب ظهر جواده فى عنف وقسوة كى يستحثه السير فى أقصى سرعة.. وقد سرنى ذلك كى لا أكون محط أنظار الفضوليين، كان كل ذلك يجرى، والشاب الغريب قابع إلى جوارى وقد لفه صمت مطبق، بينما عجلات العربة تحدث صوتا يصم الأسماع ، وماء المطر يرتطم بنوافذ العربة بشدة.. وتراءت لى العربة وكأنها تابوت يضم جثة فى طريقها إلى القبر، وبذلت جهدا كبيرا فى أن أطرق حديثا فى أى موضوع أخفف به من وطأة هذا الموقف فى ذلك الليل البهيم دون جدوى.

«ومرت دقائق توقفت بعدها العربة، فترجلت وأعطيت الحوذى أجره فى سخاء، وهبط الشاب فى أثرى وأغلق باب العربة وهو بين اليقظة والنعاس، ورأيت أننا أمام فندق لم تسبق لى معرفته، تعلو بابه مظلة من الزجاج وقتنا شر المطر المسترسل فى فظاعة.

«ولم يقو الشاب على التماسك فاستند إلى الحائط، والماء يقطر من ثيابه المبللة ومن قبعته، وكأنما ينساب من صنبور مفتوح، وكأن الفتى قد أشرف على الغرق ثم أنقذ فلم يعد إلى رشده.. وتجمع الماء فى المكان الذى وقف فيه، بيد أن الفتى لم يحاول أن يسترد وعيه أو يطرد عنه ذلك التهالك أو ينفض الماء عن وجهه، بل ظل جامدا كالتمثال.. فأثار فى نفسى الشعور بالإشفاق عليه، فقد كان محطما إلى درجة تدعو إلى الرثاء له.. فكان من المحتم أن أقدم على عمل ينقذ الموقف، فأخرجت بعض النقود من حافظتى وقلت للشاب:

– معذرة إذا رجوتك أن تأخذ هذه المائة فرنك لتسدد منها أجر الفندق، ولكى تستطيع أن تسافر فى الغد إلى «نيس».

«فرشقنى بنظرات زائغة ممزوجة بالدهشة، بيد أننى استطردت أقول له وقد بدا عليه التردد:

– أرجو ألا يكون فى ذلك أى حرج لك ، فقد رأيت أنك خسرت جميع نقودك إذ كنت أراقبك فى قاعة اللعب، وخفت أن يتملكك اليأس فتقدم على أمر فيه حماقة.. وأرجو ألا يضيرك أن تتقبل هذه المعونة الضئيلة وأتوسل إليك ألا ترفضها..

«وادهشنى أن أراه قد رد يدى فى عنف لم أتوقعه منه، وقال لى بلهجة يمتزج فيها اليأس بعدم المبالاة:

– يبدو أنك سيدة نبيلة الخلق عريقة المنبت، احفظى نقودك فلم يعد هناك متسع لأمل، ولا يهمنى أن أنام الليلة أو لا أنام.. وسأضع حدا لذلك غدا.

«بيد اننى اعترضت على رده اليائس وعلى رفضه قبول النقود، وألححت عليه أن يقبلها، وأوضحت له أن الغد كفيل بأن يغير رأيه ونظرته إلى الأمور.. ورجوته أن يأوى إلى الفندق لكى ينال قسطا من النوم والراحة، ففى الليل عزاء للحزانى والمتعبين، وأنه عندما ينبلج فجر النهار ينبثق معه نور الأمل..

«وأعدت الكرة محاولة أن أضع النقود فى يده، فدفعنى بعنف أقل فى حدته عن المرة الأولى، وهو يقول فى صوت كأنه حشرجة:

– لا فائدة ترجى، ولا مطمع فى أمل.. من الأفضل أن أنفذ ما حزمت عليه الرأى فى مكان آخر حتى لا أتسبب فى إزعاج صاحب الفندق بتلطيخ فندقه بالدم.. ليس باستطاعة مائة فرنك أو حتى ألف فرنك أن تنقذنى.. بل على العكس من ذلك، ستقودنى إلى «الكازينو» حيث أفقدها كما فقدت غيرها، فلماذا أرتد إلى تلك الهاوية بعد أن تجرعت علقهما حتى الثمالة؟!

«من العسير جدا أن تستطيع التعبير عما أحدثته تلك الحشرجة الآسية من أثر فى أعماقى.. أرجو أن تقدر الظرف.. أمامك شاب فيه حيوية وذكاء، عزم فى إصرار على أن يضع حدا لحياته وآلامه، فإذا لم تطرق معه كل الحيل وإذا لم تستعمل معه المنطق المقنع، فإن هذه الزهرة المتفتحة لن تلبث أن تذبل.. وهذا الشباب المقبل سينوى وينتهى إلى عدم، قبل أن ينقضى الليل، واستبد بى الأمر، وشملتنى رغبة ملحة فى أن أتغلب على إصراره الأحمق، فجذبته من ذراعه وهتفت به:

– أما لهذا التهريف من نهاية؟! بالله كف عما تردده.. واتبع العقل والتمس الراحة بالفندق، وسأحضر إليك مع الصباح لكى أودعك عند سفرك، فليس من صالحك أن تبقى فى هذا المكان.. بل الأفضل أن تعود إلى موطنك فى الغد، ولن يرتاح بالى حتى أراك وقد ركبت القطار، فمن الحماقة أن تقدر شبابك بحفنة من المال خسرتها فتقضى على ذلك الشباب من

أجلها.. إن هذا ضعف لا يجمل بالرجال.. إنها نزوة من نزوات الحنق والقنوط.. وسوف تقتنع فى الغد بحكمة نصائحى.

«ورأيته يجيب فى مرارة قاسية وقد أثاره ترتيبى لأموره على هذا النحو وكأنه لا يعترف بالغد فى قاموس حياته:

– تتكلمين عن الغد.. ولا يدرى أحد ماذا سأكون فى الغد! حتى أنا نفسى لا أعلم، وكم أتلهف إلى معرفة ذلك.. أحرى بك أن تعودى من حيث أتيت أيتها الحمامة الوديعة التى هبطت على حياتى بعد فوات الأوان.. ولا تكبدى نفسك متاعب لا جدوى تعود عليك منها، ولا تبعثرى مالك سدى..!

«بيد أننى تشبثت بما عقدت عليه العزم، فقد استبد بى الحنق لعناده، فجذبت يده ودفعت بالورقة المالية فيها رغم أنفه قائلة:

– لا ترفض .. ولا تعترض.. وادخل فورا..

«وتقدمت نحو الباب فى عزم وحزم وضغطت زر الجرس، ثم التفت إليه بعد أن وضعته أمام الأمر الواقع وقلت له:

– لقد انتهى الأمر فليس هناك مجال للتردد، فلن يلبث الباب أن يفتح ويطل منه الحارس، فعليك أن تتبعه إلى الحجرة التى يرشدك إليها فتنام.. وأقول لك صادقة إننى سأكون فى انتظارك أمام الفندق فى الساعة العاشرة صباحا لأذهب بك إلى المحطة.. ولا تفكر فيما يكون بعد ذلك، لأننى سأتولى تدبير كل شىء لكى تعود إلى موطنك، فأرجو ألا تستسلم للقلق أو التفكير فى شىء، بل عليك أن تركن إلى الراحة والهدوء والنوم.

«وفتح باب الفندق فعلا، وأطل منه الحارس.. وإذا بالفتى يصرخ فىَّ بلهجة حازمة وكأنه يأمرنى:

– ادخلى معى..!

«وشعرت بأصابعه المتصلبة تطبق على معصمى فى عنف فارتعت إلى درجة فقدت فيها السيطرة على الإدراك، ففقدت القدرة على التملص

والإفلات من يده فقد تلاشت إرادتى. ولعله لا يخفى عليك حرج مركزى فى تلك اللحظة، إذ إننى شعرت بالخجل من الحارس الذى طال انتظاره، وخشيت أن أشتبك فى أخذ ورد ونضال مع الفتى أمامه.. وهكذا دون شعور وجدت نفسى فى بهو الفندق، وعالجت الكلام ولكن صوتى غاص فى حلقى، وكانت يد الفتى لا تزال قابضة على ذراعى فى قوة شديدة، كأنه يخشى أن أفلت منه وأعود أدراجى. ثم أحسست وقد تلاشى وعيى أنه يقودنى - دون إدراك أو قدرة على التفكير فيما يجب أن أتصرف - إلى السلم، وصعدناه.. ثم طرق سمعى صوت مفتاح يتحرك..

«وهكذا تطور الأمر فى لمح البصر، وأدركت أننى فى خلوة مع ذلك الشاب الذى لا تربطنى به صلة ما.. لا أعرفه ولا أعرف اسمه.. وقد تم كل ذلك بشكل لا شعورى.. أى دون رغبة منى أو إرادة، وأنا أقول كل ذلك فى صدق وصراحة حتى يكون حكمك فيما بعد حكيما.. لأننى فى حيرة من أمر نفسى لا يقر لى قرار، وقد أوردت لك كيف سارت الأحداث تباعا وكأننى كنت مسوقة إليها دون وعى أو شعور..!

الفصل الثامن

ليلة ليلاء!

وتوقفت السيدة عن الحديث.. وفجأة هبت واقفة، وقد أحسست بصوتها يحتبس فلا يطاوعها، وسارت إلى النافذة وسرحت النظر خلال زجاجها، وظلت على تلك الحال بضع دقائق لا تنطق بكلمة، ولعلها لم تكن تنظر إلى شيء معين أو تتطلع إلى شيء اطلاقا، وإنما أرادت أن تستريح. فقد رأيتها تدنى جبهتها من الزجاج البارد حتى ألصقتها به، وحز فى نفسى أن أتتبعها في حركاتها وقد راحت نهباً لانفعالات مسمومة.. فظللت فى مكانى ثابتا صامتا كالحجر، لا أحاول أن أسألها الاسترسال فى سرد قصتها، أو حتى أحدث صوتا ولو طفيفا قد يزعجها.. وبقيت هكذا حتى استدارت وعادت فى خطوات بطيئة متئدة، فجلست أمامى وراحت تقول:

«إلى هنا أعتقد أننى سردت أبشع ما فى قصتى من أحداث.. وأرجو أن تنفى عن ذهنك – وقد أقسمت لك وعاهدتك على الصدق والصراحة – إننى لم يدر بخلدى إطلاقا، حتى تلك اللحظة، أى تفكير فى احتمال حدوث اتصال جنسى بين ذلك الشاب وبينى.. ولكننى كنت مسلوبة الشعور والإرادة، حتى جنحت فجأة عن حياة الشرف والاستقامة، وترديت فى هذا الموقف دون وعى أو إدراك وكأنه شرك وقعت فيه رغما عنى.. وأستطيع أن أؤكد لك وقد التزمت الصدق إننى لم أكن مدفوعة برغبة ما، اللهم إلا إسداء العون لذلك التعس، فلم أستشعر رغبة شخصية لنفسى، ولذلك فقد انزلقت إلى هذا الوضع المخزى دون أن أتوقع ودون رغبة.

«وأستميحك العذر فى أن تعفينى من سرد ما حدث فى تلك الغرفة.. إننى لن أنسى كل بادرة وكل دقيقة من دقائق تلك الليلة الليلاء.. لقد كنت فى نضال وصراع مع شخص أهدف إلى إنقاذ حياته، وكان هذا كل همى، فقد كان الأمر مسألة حياة أو موت لهذا المنكود.. كما كنت أحس فى أعماقى أنه إذا رأى بصيصا من أمل، فإنه سوف يتشبث به فى استماتة، فكنت أنا ذلك الخيط من الأمل لذلك المسكين الذى يسرع إلى الموت ويسرع إليه الموت،

فراح يتشبث بى فى إصرار، ومن ناحيتى أنا فقد بذلت قصارى جهدى لكى أصل به إلى شاطىء السلامة.

«وفى اعتقادى أن حدثا كهذا لا يصادف الإنسان إلا مرة واحدة فى حياته.. وهو لا يصادف الكثير من الناس، فهو أمر نادر الوقوع جدا.. وما دار بخلدى يوما من الأيام أن المشرف على الهلاك تمنحه الطبيعة فى تلك الفترة الانفعالية من حياته قوة خارقة واستماتة جامحة كى يتشبث بالحياة فى اللحظات الأخيرة، وقد قضيت أعواما طوالًا بعيدة عن دنيا الشرور؛ لذا فقد عز على نفسى أن أرى الطبيعة تتجلى بشكل رائع حين تحشد فى وقت واحد كل ما فيها من حرارة أو برودة ومن نعيم أو تعاسة ومن حياة أو عدم..

«لقد زخرت تلك الليلة بشتى الأحداث والأحاسيس.. بنضال، وحديث، وشهوة، ورثاء، وعطف، وغضب، وحقد، وعبرات، وأسى، ونشوة، وتوسلات.. حتى خيل إلىّ أنها دهر من عمرى، فقد كان لها أثر عميق لكلينا.. هو وأنا، فإنها حين تلاشى آخر خيط من خيوطها، صار كل منا شخصا مختلفا عما كان، بروح وأحاسيس لا عهد له بها.

«ومن العسير جدا، والكثير على نفسى، أن أتحدث عن دقائق أحداث تلك الليلة، وما بى رغبة كما لا أستطيع أن أميط اللثام عما جرى تفصيلا.. بيد أننى أرى أنه لزاما علىّ أن أنوه عن تلك اللحظة العميقة الأثر فى حياتى التى صحوت فيها فى الصباح التالى، بعد نوم عميق، فى ظلام لا عهد له بى من قبل.. استيقظت وكأننى كنت تحت تأثير مخدر، ومضت فترة طويلة حتى استطعت أن أفتح عينى، فيطالعهما سقف حجرة لا عهد لى به فى مكان مقبض غريب عنى.. لا أدرى لماذا حط بى القدر فيه، وماذا جنيت فى دنياى حتى احتوانى بين جدرانه.. وأردت أن أشعر نفسى بأننى فى حلم من أحلام النوم العميق الذى كثيرا ما تتخلله الرؤى المزعجة.. ولكن خيوط نور الصباح

التي كانت تنفذ خلال نوافذ الغرفة، وحركة الحياة في الطريق، كانت تتناهى إلى سمعي من العربات التي تسير وأجراس الترام وجلبة المارة.. كل ذلك جعلني أدرك أنني لست في حلم بل في يقظة كل اليقظة.. فرحت أستجمع شتات أفكاري لأستعيد في ذهني ما حدث.. وحانت مني لفتة إلى جانبي، ولا أستطيع أن أصف لك مبلغ ما اعتراني من ذعر.. فقد كان هناك رجل غريب عني قد تمدد إلى جواري في الفراش.. في وضع يا له من وضع شائن، فقد كان مجردا عن معظم ثيابه..!

«يعجز لساني عن وصف ما اعتراني من هلع في شدة وعنف حتى إنني لم أتمالك نفسي، فتهالكت في الفراش ثانية، ثم فقدت القدرة على الحركة وكأن أوصالي قد أصابها شلل.. بيد أنني لم أكن في حالة إغماء حقيقي فلم أفقد رشدي، ولكن - وياللوعة! - تجلى الواقع أمامي في وضوح وسرعة، ودون أن أدرك مغبة ما حدث - دون وعي مني أو رغبة أو إرادة - فتمنيت الموت لشعوري بجسامة الإثم ولاشمئزازي وخجلي، حين وجدت نفسي في هذا الوضع الشائن مع رجل غريب في فراش لا عهد لي به وفي فندق حقير ومكان يثير الشبهات.. ولم يغب عن فكري حتى الآن أن أنفاسي في تلك اللحظة لهثت، ثم احتبست، وأن قلبي قد اشتد خفقانه ثم كفت دقاته.. وكأنما فقدت الإحساس بالحياة، ووصلت إلى نهايتها، وكل ما هنالك أن وعيي أدرك كل ما حدث دون أن يفقه له معنى..

«ولا أستطيع أن أقدر كم من الوقت مضى عليّ وأنا في تلك الحال كأنني جثة مسجاة ولم أستطع تصور الواقع، فأغمضت عيني وابتهلت إلى الله وتوسلت من أعماقي ألا يكون هذا حقيقة واقعة.. ولكن مشاعري المرهفة أكدت اليقين، فلم يكن هناك منفذ لشك، فقد كانت حواسي متنبهة حتى إنني كنت أسمع أصواتا في الحجرة المجاورة وخطوات في الردهة، وكلها تؤكد لي تنبه وعيي ويقظة حواسي.

«إن الوقت الذى مضى على هذا الوضع الشائن لا يمكن أن يقاس بنظيره من دقائق الحياة الرتيبة العادية.. وفجأة استولى علىّ فزع طاغ فى البشاعة، فقد خفت أن يفيق ذلك الغريب من نومه، والذى أجهل اسمه حتى تلك اللحظة، ويكلمنى.. فأعملت التفكير فى سرعة، فهدانى إلى أن ليس أمامى سوى منفذ واحد دون غيره، هو أن أسرع بارتداء ثيابى ثم أخرج وأنجو بنفسى قبل أن يستيقظ، حتى لا تقع عيناه علىّ أو يتحدث إلىّ.. فإنه يتحتم علىّ أن أنصرف لكى أعود إلى حياتى الأولى الطبيعية.. أعود إلى الفندق الذى أقيم فيه فأرتب حالى ثم أغادر على الفور هذا المكان المشئوم، إلى غير رجعة، حتى لا ألتقى بهذا المخلوق شريكى فى الخطيئة الذى يتمثل فيه إثمى.

وطغت علىّ هذه الفكرة التى رأيتها الأمل الوحيد فى النجاة، حتى اكتسحت الجمود الشامل الذى اعترانى.. فتسللت من الفراش فى خفة وحذر شديدين، وارتديت ملابسى فى حرص بالغ دون أن أحدث حركة أو صوتا، وأنا فى جزع خشية أن يستيقظ بين لحظة وأخرى.. وبعد بضع دقائق كنت على أتم استعداد لمغادرة الغرفة وتحقيق فكرتى وأمنيتى.. ولم يكن أمامى سوى القبعة التى كانت فى طرف الفراش، فسرت على أطراف أصابعى لكى آتى بها.. ودفعنى شعور غامض إلى أن انظر إلى وجه ذلك الرجل، وكأنه صاعقة أصابت حياتى.. وكان قصدى أن ألقى عليه نظرة عابرة واحدة.. ولكن لدهشتى تبينت أن ذلك الغريب غريب فى شكله عن الشخص الذى رأيته بالأمس، فقد تغيرت معالمه وتلاشت من صفحة وجهه تلك الأسارير المكفهرة المتوترة التى كان يطغى عليها الانفعال.. وإذا أمامى وجه دقيق التقاطيع، وكأنه وجه فتى يافع عامر بأسارير الصبا وبالبراءة والطهارة والسذاجة.. ولانت الشفتان المتقلصتان بالأمس، فافتر ثغره بابتسامة طفلية حالمة، وتناثرت على جبينه خصلات شعره الذهبى، الأملس،

وكانت أنفاسه تتردد فى اطمئنان ورتابة وهدوء، وعادت الراحة إلى بدنه، وكأنه ليس الشاب الذى كان مقدما على الهلاك بالأمس.

«ولعلك لم تنس ما سبق أن ذكرته لك فى سياق حديثى أنه لم يصادفنى فى حياتى أن رأيت أمارات نهم وجشع عارمين وانفعال بالغ مثلما رأيتها تتجلى فى عنف وصرامة على وجه ذلك الرجل أثناء المقامرة.. وقد تلاشى كل ذلك، فطالعتنى فى وجهه وداعة وجوه الأطفال فى رقة وطهر وسذاجة، حتى نومه الهادئ عبر عن صفاء واستسلام.. وكأنه شخص أقبلت عليه السعادة فأخذ ينهل منها، فلم يعد يرزح تحت وطأة هم أو شقاء، بل كأنه لم يذق لهما طعما من قبل..!

«وما إن رأيت معالم النعيم تتجلى على ذلك الوجه النائم حتى زايلنى الخوف، ولم أستشعر القلق الذى كان يساورنى منذ لحظة.. كما لم أحس بالخجل، بل غمرنى شعور بالسعادة والنشوة، فبدأ يتضح أمامى ما كان مستغلقا علىّ من أمر ذلك الحدث الجلل، وتملكنى شعور بالفخر والزهو والاغتباط حين قدرت أنه لولا أن المقادير قد أرسلتنى ورسمت لى دورا فى حياة ذلك الشاب الوسيم النائم فى براءة الأطفال.. لكن الآن كومة محطمة من اللحم وجثة غارقة فى دمائها، واستحالت وسامة وجهه إلى بشاعة، وجحظت عيناه وفقدتا بريقهما وتألقهما.. لقد تدخلت فى الوقت المناسب، فحفظت عليه حياته وشبابه وأنقذته من موت محقق. وأخذت أفكر وأتأمل بشعور الأم، وعينها الحانية التى لا يعتورها زيف أو مراءاة، ذلك المخلوق الممتلئ بنضارة الشباب الذى حفظت عليه حياته، فخالجنى شعور بالمضاضة والألم أعجز عن وصفه.. وتحول هذا الشعور وأنا فى تلك الحجرة الدنسة فى ذلك الفندق الوضيع الذي تهدر الفضيلة بين جدرانه وتستباح.. انقلب هذا الشعور فجأة، ولفنى إحساس بالوقار الذى يستشعره الإنسان وهو بين يدى ربه فى الكنيسة.. ولعلك لا تقرنى إذ أقول ذلك، أو لعل ما أقوله يبعث

السخرية فى نفسك.. ولكنى أحسست حقا وكأن معجزة تمت على يدى، فغمرنى إحساس بالقداسة والطهارة!

«وكأن المقادير قد وقفت لى بالمرصاد، فلم يكفنى أبشع أمر حدث لى فى حياتى.. فقد تلت ذلك لحظة بالغة فى بشاعتها ووقعها على نفسى، وهى ما كنت أتوجس من أن تحين. ولا أستطيع أن أذكر كيف قدر لهذه اللحظة أن تأتى، وهل بدرت منى حركة عفوا أو كلمة دون وعى تسببت فى ذلك، فقد رأيته يفتح عينيه على غير توقع، فتراجعت مذعورة جزعة.. بيد أنه راح يدور بعينيه فى عجب ودهشة، كما حدث لى حين استيقظت، ولاح كأنه كان يعانى كابوساً مزعجاً، ثم أجال النظر فى كافة أرجاء الغرفة فى عناء وجهد كأنه يبحث عن شىء أو يحاول أن يتذكر أمرا.. إلى أن وقعت عيناه علىّ، فأخذ ينظر إلىّ فى استغراب ودهشة.. بيد أننى أعددت نفسى للموقف، فتمالكت نفسى واستعدت رباطة جأشى - قبل أن أترك له الفرصة لمخاطبتى أو استجماع شتات أفكاره - فالظرف يحتم علىّ ألا أدعه يتكلم أو يسأل أو يتبسط فى ملاطفة.. فمن الضرورى ألا يعاد ما حدث فى تلك الليلة، أو يذكر عنه تعليق أو إيضاح، أو أن يكون مادة لمناقشة أو حديث.. فبادرته بقولى:

- حان الوقت لأن أنصرف، ويتحتم علىّ أن أفعل ذلك.. وعليك أن تتخلف أنت لترتدى ثيابك، وعند الظهيرة سأكون فى انتظارك أمام «الكازينو» لكى أدبر ما بقى من أمرك.

«وخرجت فورا من الغرفة دون أن أترك له فرصة ينطق فيها بلفظ أو عبارة، ولكى أبتعد عن تلك الغرفة فلا تطرفها عينى لحظة أخرى.. واندفعت فى سيرى لا ألوى على شىء ولا أتلفت يمنة أو يسرة، وغادرت ذلك الفندق الذى لا أعرفه كما لا أعرف الشاب الغريب عنى الذى قضيت معه ليلة فى فراش واحد بين جدران هذا الفندق!

الفصل التاسع

اعتـرافــات

إلى هنا كان التأثر قد بلغ بالسيدة أقصى مداه، فتوقفت عن متابعة الكلام ريثما تسترد أنفاسها اللاهثة.. وبعد فترة زايلها كل أثر لألم أو انفعال، فاستأنفت حديثها، وقد شبهتها بسائر فى طريق وعر ينهك السير فيه قواه.. حتى إذا صادف بقعة منبسطة راح يستريح من وعثاء السير كى يستأنف السير فى نشاط وهكذا استأنفت الحديث وقد زايلها معظم انفعالها..

«أسرعت الخطى إلى الفندق الذى أقيم فيه سائرة من شارع إلى شارع، وقد انجابت الغيوم عن السماء ولفحنى نسيم الصباح العليل.. فزايلتنى جميع مشاعر الأسى. ولعلك تذكر جيداً أننى قلت لك من قبل إننى زهدت مباهج الحياة وزخرفها منذ وفاة زوجى، وانه أصبح فى مقدور ولدىّ أن يعتمدا على نفسيهما، وأنهما ليسا بحاجة إلىّ، فلم يكن ثمة ما يعنينى. وهكذا تحولت حياتى إلى شىء تافه لانه لم يعد لى هدف معين.. ولذلك وجدت نفسى، دون ترتيب أو تمهيد، مدفوعة إلى عمل ما.. فلما ألقت المقادير فى طريقى إنساناً، أنقذته من هلاك محقق، وبذلت فى ذلك قصارى جهدى، ولم يبق أمامى إلا خطوة واحدة أتمها فيكتمل عملى».

«ووصلت إلى الفندق الذى أقيم فيه، فهالنى أن أرى الحارس يحملق فى دهشة بالغة، إذ يرانى أحضر فى منتصف الساعة التاسعة صباحاً. بيد أن تصرفه هذا لم يثر الحرج فى نفسى، إذ كانت قد زايلتنى أحاسيس الخجل والأسى التى خالجتنى من قبل. وشعرت بغتة بحب الحياة والتعلق بها.. شعرت بالزهو، وبأننى كائن له كيان، وأننى عضو نافع فى المجتمع، فزاد هذا الشعور من حيويتى.. وإذ ضمتنى غرفتى، بادرت إلى خلع ثوب الحداد عنى عن غير قصد، فارتديت ثوباً زاهى الألوان، وغادرت الفندق وحثثت السير إلى المحطة لأستعلم عن مواعيد القطارات، يحدونى عزم وحزم.. ثم قضيت بعض الحاجات، ولم يعد يشغل ذهنى سوى الاطمئنان إلى أن ذلك

الشاب الذى ألقت به المقادير فى طريقى قد عدل عن نواياه وآثر الحياة وعاد سالماً إلى بلده!..

وأعوزتنى الجرأة والشجاعة والإقدام كى أستطيع ملاقاته ثانية، فقد تمت أحداث الليلة السابقة تحت جنح الظلام.. ذلك الستار الذى يضم الكثير من المخازى والآثام.. وقد كنا وكأننا شخصان دفعا فى اليم فاصطدما على غير معرفة.. بل إننى ما فكرت فى أن هذا الغريب سيعرفنى وسيكون له معى شأن. وعلى هذا الأساس، فاننى أعتبر أن ما حدث بالأمس كان مصادفة ليس إلا، فلم يكن هناك اتفاق أو قواعد أو حتى سابق معرفة.. إذن فهى نزوة خبيثة طارئة ونشوة عابرة استبدت بشخصين تائهين فى بيداء الحياة، بيد أنه فى اليوم التالى يتحتم علىّ أن أتسم أمامه بالوقار، مادام لا مفر من ملاقاته، حيث سيرى وجهى فى وضح النهار الذى لا يشفق ولا يحجب شيئاً..

ومن عجب أن أجد الأمور تسير فى سلاسة وسهولة ما كنت أتوقعها، فإننى حين بلغت «الكازينو» فى الوقت الذى حددته له، رأيت شاباً ينهض عن مقعده ويسرع نحوى.. وإذ كان قد فوجئ برؤيتى وكأنه لم يكن ينتظر أو يتوقع ذلك، فقد ندت عنه حركات وارتسمت على أساريره مشاعر طفلية ساذجة مفعمة بالسعادة، فكاد يطير فرحاً، تألق عيناه فى غبطة وتقدير واحترام وعرفان بالجميل.. ثم لم يلبث أن أطرق إلى الأرض حين طالع فى عينى ذلك الاضطراب الذى اعترانى.. أطرق فى خضوع ووداعة.. أجل! إنه شعور الاعتراف بالجميل الذى أسديته له.. أقول فى حركات طفلية ساذجة؛ لاننا نادراً ما نجد ذلك فى الرجال لأنهم لا يستطيعون التعبير عن تقديرهم للجميل، فهم لا يتكلمون ويعتريهم الخجل ويرتبكون فتختفى مشاعرهم.. أما هذا الشاب، وقد أضفى عليه المولى موهبة التعبير عن كافة المشاعر

والانفعالات، فقد عبرت حركاته ومشاعره أدق وأوضح تعبير.. فكان تقديره لصنيعي، وعرفانه بجميلي، قوياً دافقاً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

وفى لمح خاطف، وبرشاقة بالغة الروعة، انحنى فى خشوع برأسه الدقيق الجميل، ثم مال على يدى وأخذ يقبل أناملى ويلمسها بشفتيه فى لطف ورقة، وظل على ذلك دقيقة ثم تراجع قليلاً واستفسر عن صحتى وهو يرمقنى فى عطف وحنان. واتسمت كلماته بالأدب الجم، فزايلنى القلق وزال عنى الخوف وشعرت بالطمأنينة تسرى فى بدنى.. وكأنما سرى شعورى بالبهجة إلى الكون الذى يحيط بى فأضفى عليه بهاء وإشراقاً، فإذا صفحة البحر قد انبسطت فى هدوء بعد ثورة وكأن البحر يشاركنا السلام والأمان.. وطالعتنا تلك البؤرة الشيطانية «الكازينو» شامخاً نحو السماء، ورأينا الكشك الذى لجأنا إليه لنحتمى بمظلته من المطر المنهمر قد زخر بالزهور المتنوعة الألوان، وقد تناثرت دون تنسيق مع باقات من الورد والفروع الخضراء، تقوم بالبيع فيه فتاة كأنها إحدى الزهرات التى تبيعها..

وخطرت لى فكرة راقت لى، وهى أن أدعو الشاب إلى الغداء فى مطعم قريب صغير.. وهناك راح يروى لى قصته المفجعة الآسية، فأكدت ما خامرنى نحوه حين كان جالساً إلى مائدة اللعب ويداه ترتجفان فى انفعال طاغ..

لقد كان عظيم المنبت سليل إحدى الأسر الراسخة فى العراقة والمركز المرموق فى «بولندا»، وكان وشيك العمل فى السلك السياسى لأنه اجتاز دراسته العالية بتفوق عظيم جامعة «فيينا»، فقد كان الأول على أقرانه فى الامتحان الذى عقد منذ شهر.. يقيم عند عم له كان ضابطاً فى قيادة الجيش. ورأى عمه أن يكرمه وأن يحتفل بتفوقه ونجاحه فاصطحبه معه إلى حديقة للملاهى وسباق الخيل حيث واتى الحظ عمه فربح مرة ومرتين وثلاث

مرات، وأصبح فى حوزتهما مبلغ ضخم من النقود، وتناولا طعام العشاء فى مطعم فاخر..

وتلقى من والده فى اليوم التالى مبلغاً من المال يعادل مرتب شهر للعمل الدبلوماسى الذى ينتظره مكافأة له على نجاحه وتقديراً لتفوقه.. وكان من الطبيعى أن يعتبر أن مبلغاً كهذا يعد ثروة لها قيمتها وشأنها منذ يومين، قبل أن يذهب إلى ساحة المراهنة على سباق الخيل.. أما بعد أن رأى الأرباح تتدفق بسهولة عن طريق المقامرة، فقد تضاءل المبلغ فى نظره واعتبره تافها.. وحفزته تلك الخواطر، فلم يكد يتناول غداءه فى اليوم التالى حتى أسرع إلى ميدان السباق وراح يراهن فى اندفاع وتهور.. وحالفه الحظ فى هذه المرة، وإن كان ذلك من بوادر سوء حظه وترديه فى المقامرة بعد ذلك.. فخرج من ميدان السباق وقد ربح أضعاف ما كان معه!..

ومنذ تلك اللحظة سرى داء المقامرة فى دمه، واشتدت لهفته عليها، واستبد به سعارها على أى وجه من وجوهها.. فتارة فى ميادين السباق، وطورا فى المقاهى العامة، وأحياناً فى أندية القمار. واستشرى فيه هذا الداء الوبيل حتى استحوذ على وقته وأعصابه وموارده وكيانه، ففقد القدرة على التفكير السليم والعمل الحكيم وحرم من النوم الناعم الهادئ . وعجز عن كبح جماحه ورد نفسه عن تلك الغواية.. وحدث ذات مرة أن عاد إلى بيته من أحد أندية القمار بعد أن خسر كل ما يملك وأصبح مفلساً تماماً. وفيما هو يخلع ثيابه، عثر على ورقة مالية فى أحد الجيوب الداخلية، فاستبدت به شهوة المقامرة ولم يقو على كبحها.. فارتدى ثيابه من جديد، وانطلق فى الشوارع، وقادته قدماه إلى مقهى التقى فيه بأحد المقامرين فراح يلاعبه وظل على ذلك حتى انبلج الفجر..

وكان من الطبيعى - شأن جميع المقامرين - أن يستدين من المرابين، وأن تتضاعف ديونه وتتراكم.. فتطوعت أخته المتزوجة بمساعدته، فسددت

ديونه التى كان المرابون يتهافتون على إقراضه إياها لعلمهم أنه وارث كبير فى أسرة عريقة. والمقامرة غريبة الاطوار يبتسم فيها الحظ ردحاً من الزمن، ثم لا يلبث النحس أن يحل ويأبى التخلى. وكان هذا شأن الشاب، فقد حالفه الحظ أولاً حتى ظن أن الثروة ميسورة عن هذا الطريق.. ولكن الحظ لم يلبث أن ولى عنه، فتضاعفت خسائره وتراكمت ديونه وعجز عن سدادها. وتورط فى تحرير صكوك يعلم جيداً وسلفاً أن لا سبيل إلى الوفاء بها، ويعطى وعوداً لا يستطيع أن يفى بها. وكان يندفع فى المقامرة أملاً فى الحصول على كسب وفير ينقذ به نفسه ويخرج من الهوة التى تردى فيها.. وإذ أضحى لا يقتنى شيئاً ذا قيمة لأنه كان قد رهن ساعته ليقامر بالمبلغ الذى رهنها به ، فقد انزلق إلى حماقة شنيعة بالإقدام على سرقة حليتين ثمينتين مرصعتين بالماس من زوجة عمه، كانت تعتز بهما وتحفظهما فى مكان أمين فى دولابها ولا تتزين بهما إلا فى المناسبات الكبرى وحفلات علية القوم. ورهن إحدى الحليتين على مبلغ كبير، قامر به فربح أربعة أضعاف المبلغ فى ليلته. وكان أحرى به أن ينسحب قانعاً بما أصاب .. ولكنه جازف بالمبلغ وبالربح الذى ناله فخسر الجميع وأضحى خاوى الوفاض..!

وحتى ذلك الوقت لم يكن أمر السرقة قد عرف واكتشف، فبادر إلى رهن القطعة الثانية وتوجه لتوه إلى «مونت كارلو» لعله يجد الحظ فى «الروليت» فيحصل على الثروة التى يمنى نفسه بها.. ولكن الحظ لا يعاند، وانتهى به الأمر فى اليوم الذى وصل فيه إلى أن يبيع ثيابه ثم الحقيبة التى كانت تضمها، ثم المظلة.. ولم يبق لديه سوى مسدسه وبه رصاصات أربع، وصليب من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة كانت قد أهدته له «أشبينته» الأميرة عند تعميده. وكان يعتز بهذا الصليب ويحرص عليه حرصاً شديداً.. ولكنه أمام النزوة الطاغية، اضطر أن يبيعه بعد الظهر بخمسين فرنكاً.. لا أملاً فى

ربح أو خسارة بل لكى يتذوق لآخر مرة تلك النشوة الجامحة التى يستشعرها المقامر، لانه كان فى هذه المرة يقامر على حياته أو على موته..!

سرد الشاب لى قصته وقد تألق بجاذبية خلابة وفتنة أضفت الحيوية على كل ما حوله. وكنت أصغى إليه وقد شملنى التأثر والاضطراب، فقد أخذتنى قصته فرثيت له.. بيد أنه لم يدر بخلدى مطلقاً أن جلوسى مع شخص - لا يعدو أن يعتبر لصاً رغم أى اعتبار - من الأمور المخجلة. ولو أن شخصاً ذكر لى قبل ذلك، بيوم واحد، أننى وأنا السيدة ذات الماضى الناصع النقاء والتى يحترمها المجتمع، قد تجمعنى جلسة يوماً من الأيام فى غير تحفظ أو كلفة مع شاب غريب عنى فى مثل عمر أحد أبنائى، وأن هذا الشاب قد أقدم على سرقة فهو لص.. لو ذكر لى أحد أن هذا قد يصادفنى فى حياتى لاتهمته بالخبل والهذيان!..

وأصدقك القول أننى رغم ما سمعته من قصة الشاب، فإننى لم أشعر نحوه باشمئزار أو استنكار. وقد راح يسرد الحوادث فى سذاجة دون استحياء، كأنه يروى أموراً لا تمت للخلق بصلة، وأنها ليست من الجرائم المخجلة.. بيد أن سيدة مثلى بوغتت فى الليلة السابقة بأحداث فظيعة لم تكن تتوقعها تترى تباعاً، من الصعب عليها أن تؤمن بالاستحالة ؛ لأن تجارب تلك الساعات التاريخية التى تتصل بغموض الحياة وحقائقها تفوق كثيراً كل ما مر بى فى أعوامى الأربعين التى انقضت فى رتابة واتزان..

ناحية واحدة فى اعترافاته أشاعت الخوف فى نفسى.. ذلك البريق المتألق الذى كانت تطفح به عيناه فتتقلص معه أسارير وجهه، فكان حديثه عن اللعب ومدى تعلقه به يفصح فى جلاء عن مشاعر البهجة والأسى اللذين يستشعرهما فى أعماقه.. وكانت يداه تترجمان بحركتهما عن تلك المشاعر، فتارة تكونان وديعتين هادئتين وتارة أخرى تنقلبان إلى أداتين جامحتين تتحركان فى عصبية وحشية كما كانتا أثناء اللعب.. وقد ركزت اهتمامى

عليهما وهو يروى قصته، فهالنى أن أراهما ترتعشان وتتقلصان وتنبسطان ثم تقبض إحداهما على الأخرى فى عنف وتشنج. وأعجب من ذلك أنهما - حين تكلم عن سرقة الحليتين - ترجمتا بحركاتهما كيف امتدت اليد فقبضت على الحليتين، ثم دستهما فى خفة بين ثنايا ملابسه.. فظهر لى جلياً أن ليس باستطاعته أن يكتم أو يخفى انفعالاته، بل إن تلك الانفعالات كانت جزءاً لا يتجزأ من طبيعته وكيانه.. وهالنى وأفزعنى أكثر من ذلك كله أن تكون لهذا الشاب الوسيم الوديع روح شريرة ونزعة شيطانية.

ورأيت أنه ينبغى إن أسلك طريق الملاطفة والمودة مع ذلك الشاب الذى ألقت به المقادير فى طريقى وفرضت علىّ واجب إنقاذه، لكى أقنعه بأن يرحل عن تلك البقعة الموبوءة بالمقامرة فوراً لما يترتب على البقاء فيها من عواقب وخيمة، وأن من المحتم عليه أن يرحل تواً إلى بلده وعائلته قبل افتضاح أمر السرقة لأن فى ذلك القضاء على مستقبله قضاء مبرماً.. ووعدته بأننى سأمنحه المال اللازم لسفره ولاسترداد الحليتين، على أن يوافق هو ويتعهد بالرحيل فوراً دون إبطاء أو تأجيل.. وأن يعاهد الله أن يطرح المقامرة جانباً، فلا يمارس أى نوع من أنواعها بعد ذلك..

وسيظل عالقاً فى ذهنى عرفانه بجميلى الذى بدأ طبيعياً، ثم أخذ يظهر تدريجياً على وجه ذلك الشاب المحطم.. ولا أزال أذكر ذلك الاهتمام الذى بدا منه وأنا أنهى إليه استعدادى لمساعدته، فقد رأيته يمسك بيدى فجأة بين راحتيه، بشكل لن أنساه ما حييت، وبحركة فيها خشوع وتقدير لى، ورأيت الدموع تترقرق حيرى فى مقلتيه الصافيتين صفاء الغدير، وانتابته رعشة عصبية تحت تأثير الشعور بالسعادة..

وكم رغبت أكثر من مرة أن أصور لك ما كانت تفصح عنه أساريره من تعبيرات وأن أصف لك تصرفاته.. بيد أنه ليس فى استطاعتى الآن أن أعبر لك عن مدى السعادة التى غمرته فى شكل بريق متألق.. سعادة ليس لها

نظيـر كـتلك التى يحس بهـا الإنســان خـلال حلم جـمـيل، ولماذا لا أكـون صـريحـة؟.. إننى لم أسـتطـع أن أصـمـد أمـام روعـة ذلك المنظر.. حـقـاً إن الاعتراف بالجميل يشيع البهجة والسعادة فى النفس، فهو تعبير كالطيف فى خفته. والوداعة تغمر النفس بالإشراق ؛ لذلك كان هذا الشعور شيئاً جديداً مـستطـاباً على سـيدة مـتـزنة مثلى، فلفنى هـذا الشـعـور بفـيض من الراحـة والطمـأنيـنة. وأدركت أن نفس الشـاب قـد تفـتـحت لى بعـد أن كـان قـانطاً محطماً..

أجلنا النظر فى البحر المنبسط، ونحن نغـادر المطعم، فرأينـاه رائعاً فى تألق وقـد انعكست عليـه زرقـة السـمـاء وحلقت فوقـه الطيور.. حـقـاً مـا أروع جمـال الطبيعـة!.. إنـها تشـيع فى النفس شعـوراً بالبـهجة.. ولكن «الريـفييرا»، رغم بهائـها وروعتـها، فإن جمـالـها من نوع آخر لا تستسيغه العين كالحسناء المبتذلة تجذب الأنظار وتخلب الأفئدة بظاهر جمالها ولكنها فى الواقع فقدت قيمتـها الإنسـانيـة وجوهرها الثمين.. بيد أن جمـالها قد يبعث الحرارة فى النفس فى بعض الأحيـان، فـيـأخـذ بطلائه البـراق ويؤثر بـهـاؤه الزائف فى أحاسيسك ومشاعرك.

الفصل العاشر

اعتراف بالجميل

كان يومنا زاخراً بشتى الأحاسيس التى ألهبت نفوسنا وأيقظت ما تضمه جوانحنا وأعماقنا، وكان فى نظرنا بمثابة اليوم المشرق الذى يعقب عاصفة هوجاء.. وقد أزال المطر غبار الشوارع فبدت لامعة، واصطبغت السماء بلون وردى يبعث فى النفس شجى محبباً، وظهرت الطبيعة فى أبهى حللها وبدت الجبال شامخة كأنما قامت لتقينا عوادى الزمن. وبالجملة كانت الطبيعة مبعث إغراء لا سبيل إلى مقاومته.. فطغى ذلك على كل مشاعرى وقلت للشاب:

– بودى أن نستقل عربة تنطلق بنا فى نزهة على الشاطىء!..

– كم يسعدنى ذلك..

وأدركت أن سحر الطبيعة قد أثر فيه فبدل من شأنه ؛ لأن عينيه لم تطالعا منذ حضوره سوى قاعة اللعب بموائدها اللعينة وجوها المقبض المشبع برائحة الطباق والعرق، والذى تختلط فيه أصوات المقامرين، الرابحين منهم والخاسرين. لقد كان ذلك هو الحيز الذى ضمه والدائرة التى لم يتعداها، فلم يكن لديه متسع من الوقت أو استعداد للتفكير فى سحر الطبيعة وجمالها الأخاذ..

أما الآن فقد فتحت له الطبيعة قلبها، فاستقبلها بالغبطة والترحاب كالطفل الذى يرتمى فى أحضان أمه الحنون!..

وأخذت العربة تتهادى بنا، إذ لم يكن هناك زحام يعكر صفو سيرها فى ذلك الشارع الجميل. ومررنا بكثير من البيوت الصغيرة الجميلة وبجموع من الناس فى غدو ورواح.. فأيقظ مرأى تلك البيوت فى نفوسنا مشاعرنا وإعجابنا بجمال الحياة بين أحضان الطبيعة فى هناء وسلام بعيدين عن صخب الناس..

هل يمكن أن يكون هناك شعور بالسعادة أمتع مما استشعرته فى تلك الساعة؟! حيث كان إلى جانبى شاب وديع وسيم كان مشرفاً على الموت

بالأمس، فأضفت عليه الطبيعة من قوتها السحرية وعادت إليه نضارته.. فبدا يافعاً أصغر من سنه تفيض عيناه بالبشر والحبور وبالتقدير والاحترام فى الوقت ذاته للجالسة إلى جواره، حتى لقد زهوت حقاً بتبجيله إياى.. كما كان مثلاً رائعاً لليقظة والحرص حتى أنه كان يقفز فى سرعة ورشاقة ليدفع العربة إذا رأى تعثراً فى سيرها.. وكلما مررت بزهرة وذكرت اسمها أو أطريت جمالها، بادر إلى اقتطافها وتقديمها لى فى أدب جم ولطف بالغ. وبلغ من رقة قلبه وشفافيته أن رأى ضفدعة كادت تدوسها العربة، فهبط وأمسكها ونأى بها عن الهلاك.. وأجمل من ذلك أيضاً أنه راح يروى طوال الطريق كثيراً من الأقاصيص الطريفة فى دماثة ولباقة وأدب ليسليني..

وخيل إلىّ أنه جعل ضحكاته ستاراً يخفى وراءه إحساسات أخرى كانت تعتمل فى أعماقه، فقد رأيته لا يتمالك نفسه أحياناً فيغنى أو يقدم على تصرفات صبيانية تبعث على الضحك، بيد أنها كلها كانت تنم عن بهجة وانشراح وانطلاق..

وحدث أن رفع قبعته فجأة والعربة تسير بنا على مهل، فأخذتنى الدهشة وتساءلت ترى من ذا الذى يحييه وهو غريب فى هذا المكان، واستفسرته عمن يقصد بتحيته فاعتراه خجل طفلى، واصطبغت وجنتاه بحمرة وردية، وأجابنى فى وقار بأننا مررنا فى سيرنا بإحدى الكنائس، وأن هذا من تقاليد أهل بولندا، درجوا عليها شأن كل البلاد الكاثوليكية المذهب، فقد درجوا على تحية بيوت الله برفع قبعاتهم عن رءوسهم. فشعرت بالخشية أمام ذلك التقديس الذى أبداه، وقفزت إلى ذهنى ذكرى الصليب الذى سبق أن حدثنى عنه. وسألته عما إذا كان متمسكاً بأهداب الدين، فعاد الاحمرار يضرج وجهه وقال بلهجة يشوبها الخجل بأنه يتوق إلى تناول القربان المقدس.. وعندئذ أهبت بسائق العربة أن يتوقف، وبادرت فغادرت العربة، وتبعنى وكأنه لا يدرى ماذا سأفعل، ثم سألنى فى دهشة:

- إلى أين ياسيدتى؟

- ستعرف.. وسر معى..

ويممت صوب الكنيسة، وكانت صغيرة شأن جميع كنائس الريف، شيدت من الطوب وطليت جدرانها الداخلية بالجير.. فبدت قاتمة وكأنها أثرية. وكان بابها مفتوحاً يتسلل منه ضوء أصفر اللون وسط الظلام، ويتوج المذبح بهالة زرقاء باهتة، ورأيت شمعتين يتراقص ضوءهما خلال العتمة المشبعة برائحة البخور التى عمت المكان..

ودلفنا من باب الكنيسة، فأحنى رأسه قليلاً ورفع قبعته، ثم غمس يده فى الماء المقدس ورسم إشارة الصليب وركع نصف ركعة. وأمسكت بذراعه حين انتصب قائماً، وقلت له وكأننى ألقى إليه أمراً:

- هيا إلى المذبح أو إلى أحد هذه الرسوم المقدسة وردد العهد والقسم اللذين سأتلوهما عليك..

فنظر إلىّ مذهولاً وقد لفته الرهبة، وإذ أدرك ما أعنى تقدم نحو فجوة قام فيها تمثال لأحد القديسين، فكرر مراسم التقديس بأن رسم إشارة الصليب وركع فى خشوع المتعبد، فشملتنى رجفة لفرط التأثر وقلت له:

- ردد ما سأقوله واحلف اليمين..

- أقسم ياسيدتى..

فتلوت التالى:

- أعاهد ألله أننى لن أقدم على ممارسة القمار فى أية صورة من صوره أياً كان نوعه.. ولن أزج بحياتى وسمعتى وشرفى في خضم هذه النزوة وهذا البلاء..

وردد ذلك العهد، ويظهر أنه ردده من أعماقه لا بفمه فقط لأننى رأيته ينتفض كريشة فى مهب الريح وقد أخذته رهبة حقيقية.. ردد الكلمات بصوت واضح النبرات تردد صداه فى السكون المحيط بنا. وبعد ذلك خيم على

المكان صمت شامل، حتى لقد تناهى إلى أسماعنا حفيف أوراق الأشجار التى كان الهواء يداعبها خارج الكنيسة. ثم رأيته ينحنى فجأة فى خشوع بالغ كأنه خاطىء أثقلته الذنوب فناء بها، وراح يتكلم بسرعة بلغته البولندية التى أجهلها فى نوبة من الورع والتقوى وصدق العزيمة لم أكن أعهدها فيه.. وأغلب الظن أنه كان يردد صلاة حارة من أعماقه.. ربما صلاة شكر وندم وتوبة، إذ كان بين الحين والحين يحنى رأسه فى خشوع على ستار الهيكل وهو يردد صلاته فى حرارة دافقة، واسترعت انتباهى كلمة معينة كان يرددها فى حماس وعزم. لقد كانت صلاة حارة بالغة الورع والتقى، إذ كانت يداه تتشبثان بستار الهيكل فى استرحام وضراعة، وينتفض كمن أصابته حمى راعشة أو كمن يقاوم صراعاً فى أعماقه، وراح ينتصب معتدلاً حينا ثم يعود إلى الركوع فى خشوع عميق وكأنه قد سبح فى عالم آخر غير هذا العالم.. عالم نقى خال من الخطايا والآثام أو كأنه قد تحول إلى قديس..

وطال مكثه على تلك الحال إلى أن نهض فى النهاية على مهل ورسم إشارة الصليب، وراح يتلفت حوله وقد علا وجهه شحوب شديد وارتجفت ركبتاه كأنه شخص متهالك أو مقبل على إغماء.. وما إن رآنى حتى تألقت عيناه بوميض لامع، وشاعت فى وجهه ابتسامة عذبة صافية زادت أساريره بهاء، ثم انحنى أمامى انحناء كبيراً، وتناول يدى فى وقار ولثمهما بخفة فى تقدير ثم قال:

- إنك رسول السلام، بعثك الله إلىّ فشكرته على نعمائه..

وارتج علىّ الكلام، ولم أدر بماذا أجيب.. بيد أننى تمنيت لو أن القيثار قد ردد أنغامه.. ذلك لأننى أدركت وأيقنت بأننى نجحت فى مهمتى.. وحفظت على هذا الشاب حياته إلى الأبد..

وغادرنا الكنيسة فاستقبلنا إشراق الطبيعة فى ذلك اليوم الذى أزدهى بالصفاء والنور وتجلى فيه الجمال فى أبهى صورة.. ومرت بنا ساعتان

والعربة تتهادى بنا، وكأنها هودج يسير الهوينى حتى بلغنا قمة المرتفع، فكان يطالعنا بين الحين والحين منظر بهيج يأخذ بمجامع الألباب. بيد أننا ظللنا صامتين لا ينبس أحدنا بكلمة، وكأننا أشفقنا من أن يعكر الكلام ذلك الصفاء الذى شملنا فى الكنيسة. وكنت أتعمد أن أشيح بوجهى فى حرج إذا تلاقت عيوننا، وقد طغى نجاحى فى مهمتى التى تكاد تكون معجزة على مشاعرى!

وانتهى بنا المطاف، وعدنا إلى حيث أتينا، إلى «مونت كارلو» وكانت الساعة قد بلغت الخامسة بعد الظهر. وكان لدى موعد هام مع بعض أفراد أسرتى لا أستطيع التخلف عنه.. على أننى كنت فى أمس الحاجة إلى الراحة، والاعتكاف لأهدئ من حدة عواطفى المضطربة المشتعلة فى نفسى فى تلك الفترة.. فقد طغى علىّ شعور دافق بالسعادة، فأحسست بالحاجة لأن أستمتع بتلك النشوة التى شملت كل ذرة فى كيانى، والتى لم أتذوقها من قبل.. فرجوت الشاب - حتى لا أنتقص من رعايتى له - أن يذهب معى إلى الفندق لبضع دقائق، حيث نفحته فى حجرتى النقود اللازمة لسفره ولفك رهن الحليتين المسروقتين، على أن يتوجه بعد ذلك من فوره إلى المحطة ليحصل على تذكرة السفر، وفى هذه الأثناء أكون أنا قد وفيت بموعدى. وإذ يفرغ كل منا من ذلك، نعود فنتقابل فى المحطة فى الساعة السابعة حيث نقضى معاً الدقائق الباقية على موعد قيام القطار ورحيله إلى موطنه. بيد أنه راعنى أن أرى الاصفرار يعلو شفتيه وأنا أقدم له النقود، وهتف بصوت مبحوح وكأنه منبعث من هوة سحيقة:

- لا.. لا.. لا أريد نقوداً!..

نطق بذلك فى ارتباك وتلعثم، بينما أخذت أصابعه ترتجف وتتراجع إلى الخلف فى اضطراب وانفعال شديدين وهو يردد:

- لا أريد نقوداً.. لا أستطيع أن أراها..

وراح يكرر هذه العبارة بصورة آلية وقد استولى عليه شعور بالخوف المزوج بالاشمئزاز.. فبذلت جهداً فى تهدئة روعه، متعللة بأن ما أقدمه له لا يعدو أن يكون قرضاً يسدده فى أى وقت يشاء، ولا بأس من أن يكتب إيصالاً به حتى لا يكون فى الأمر حرج. فتمتم قائلاً:

- إيصال.. نعم.. لا بأس من تحرير إيصال..

تفوه بهذه الكلمات وهو يغض النظر ويشيح بوجهه قليلاً.. ثم أمسك الأوراق المالية وضغطها بيده ودسها فى جيبه دون أن يلقى عليها نظرة.. وأخرج ورقة صغيرة سطر عليها بضع كلمات فى سرعة. وبعد ذلك رفع رأسه فإذا جبينه يقطر بالعرق كما لو كان يعانى صراعاً داخلياً عنيفاً ويحاول الانطلاق جاهداً. ورأيته يرتعش حين تناولت الورقة من يده. وفجأة جثا.. فتراجعت إلى الوراء فى هلع. ووجدته يقبل طرف ثوبى.. فأخذت بذلك المنظر الرائع.. وهالنى انفعاله الشديد فبعث الرجفة فى أوصالى، ثم اعترتنى قشعريرة حادة ولفنى الاضطراب، فتمتمت قائلة:

- لا يسعنى إلا أن أشكر لك هذا التقدير والعرفان بالجميل.. معذرة.. يجب أن نفترق الآن، على أن نتقابل على رصيف المحطة فى الساعة السابعة، حيث نتبادل الوداع..

وتطلع إلىّ بنظرة زاخرة بشتى المعانى.. الحنان والتقدير وعرفان الجميل، وقد تألقت عيناه ببريق أخاذ، فجال بخاطرى أنه يريد أن يتكلم، وخيل إلىّ أنه يرغب فى أن يقترب منى، بيد أنه انحنى فجأة انحناءة كبيرة، ثم غادرنى دون أن يتفوه بكلمة..

الفصل الحادى عشر

الأنثى الكامنة

وإذ وصلت إلى هذا الحد من قصتها، لاذت بالصمت وقد توقفت عن الاسترسال فى حديثها.. ثم نهضت وسارت صوب النافذة، فسرحت النظر إلى الخارج. وظلت على تلك الحال وقتاً طويلاً دون أن تند عنها حركة ما، وبعد حين لاحظت أن رجفة اعترتها فى الوقت الذى كانت تولينى فيه ظهرها.. ورأيتها تستدير فجأة وتعود نحوى فى تؤدة ورزانة. وقد بدرت من يديها الساكنتين حركة تشنجية شديدة، ورشقتنى فى جرأة بنظرة حادة ثاقبة، وعاودت حديثها قائلة:

إننى لازلت على عهدى فى الصراحة وصدق الرواية، وقد ثبت لى أن ذلك أمر جوهرى؛ لأنه تبين لى الآن، وأنا فى صراع مع نفسى أبذل جهدى لأصف لك للمرة الأولى تلك الساعة التاريخية فى حياتى فى ترتيب منتظم، أبحث عن الكلمات الصحيحة أصف بها مشاعرى التى كانت منطوية ومضطربة حتى ذلك الوقت فى أعماق نفسى، أدرك الآن فى وضوح أشياء كثيرة لم أدركها أو لم أكن أود أن أدركها.. فلهذا وطنت العزم على اتباع الحقيقة، دون تمويه أو مداراة فى جرأة وعزم وحزم..

لقد شعرت وأنا فى شبه غيبوبة، حين غادرنى الشاب وتركنى وحيدة فى غرفتى، بلطمة شديدة سددت إلى قلبى فإصاباته.. كأنما نفذ فيه خنجر مسموم شقه فخلف ألماً قاتلا ، وعجزت أو إننى أبيت أن أقنع نفسى بتعليل مظاهر المودة والاحترام والتقدير التى ابداها نحوى.. لطمة أصابت منى مقتلاً! وأنا الآن أبذل جهد الجبابرة لكى أنتزع تلك الأحداث وأبعثها من غياهب الماضى فى ترتيب وعزم، كما لو كان ذلك الماضى لا يتعلق بى أنا. اليوم أرى أنه من المتعذر أن أخفى عنك تلك الحقائق أو أموهها، أو أن أتلمس المعاذير لتبرير فعل مخجل أو عاطفة مخزية. لذا أرانى أدرك اليوم مبعث ذلك الآلم فى جلاء واضح.. لقد كان مبعثه فى ذلك الوقت ضيعة الأمل وخيبة الرجاء، وأنا أراه ينصرف هكذا بغتة فى هدوء وصمت، من غير أن

تبدر منه ولو على أبسط الصور محاولة للتشبث بى أو البقاء معى.. فقد رأيته يستكين وينصاع لما أشرت به عليه فى خضوع وتوقير لأول مرة طلبت إليه فيها الرحيل. وكنت أتمنى لو أنه تودد إلىّ، أو أغرانى على البقاء معه، أو جذبنى إليه فى شغف وعنف.. لقد رأيته وقد اعتبرنى إحدى القديسات فأحاطنى بهالة من الإجلال، ولم ينظر إلىّ ويشعر بى على أساس أننى امرأة..

وقد كتمت خيبة أملى هذه وقتذاك حتى عن نفسى، وظللت على كتمانها بعد ذلك.. بيد أننى أحسستها بين جوانحى وشعرت بها؛ لأن شعور المرأة مرهف دون أن يفصح أو يفضح، فهى أقدر على كبت مشاعرها وإخفائها عن الرجل. وقد كان ذلك دون وعى منى لحقيقة أمرى وقتذاك، ولكننى الآن عاجزة عن إدراك نفسى. ولو أنه تشبث بى وطلب إلىّ أن لا أتخلى عنه وأن أتبعه، لوافقته على الفور ولذهبت معه إلى أقاصى المعمورة، دون أن أبالى بتلطيخ اسمى وتعريض لقب ولدىّ للضياع، ودون أن أعبأ بما تلوكه الألسنة أو أصغى إلى ضميرى.. كنت لا أتورع عن الهرب معه، بل أبادر إلى ذلك كما فعلت «هنرييت» حين هربت مع ذلك الشاب الفرنسى الذى قيل إنها لم تكن تعرفه حتى الليلة السابقة على فرارهما.. وما كنت أجسر أو أسمح لنفسى أن أسأله إلى أين نذهب، بل ماكنت أتردد لحظة لكى أفكر أو ألقى نظرة إلى حياتى الماضية. وإنما كنت أنزل طواعية لهذا الشاب عن ثروتى ولقبى وشرفى.. وكنت أفعل المستحيل من أجله، ولا أتورع عن إتيان أحط عمل يشير به أو يدفعنى إليه.. كنت ألغى ألفاظ العفة والشرف والاحترام من قاموس حياتى!..

لقد كنت رهن إشارة واحدة، فأقدم على كل ذلك لو أنه تفوه بكلمة أو بدرت منه بادرة أو بذل ولو أبسط محاولة لكى يحتفظ بى.. إذ إننى كنت قد أقمت سداً بينى وبين عقلى فى ذلك الوقت، وتعلقت به كل قطرة فى دمى

وذرة فى كيانى.. ولكن وا أسفاه، لم يجد ذلك الإنسان - حتى بنظرة واحدة - على الأنثى الكامنة فى أعماقى. لقد بلغت بى اللهفة إلى أن أطرح جانباً مقاييس الأخلاق، فأفرط فى نفسى واسمى وشرفى إلى أبعد مدى.. بيد أننى لم أدرك ذلك ولم أشعر به إلا حين وجدت نفسى وحيدة إثر تلك اللحظة التى غادرنى فيها، وكان وجهه الجميل يتألق وقد أفصح عما يعتمل فى نفسه من انفعالات.. واستبد بى هذا الشعور ووقع على نفسى وقع الصاعقة، فراح قلبى المهجور يئن ويتوجع!..

ونهضت فى تثاقل كمن ينهض لأول مرة بعد مرض أنهك قواه، وكان لدىّ موعد بدا لى سقيماً.. وأحسست وكأن جسماً ثقيلاً هبط على رأسى، فناء جبينى بثقله حتى كدت أتهاوى. ولم أستطع جمع شتات أفكارى، وسرت فى تخاذل ميممة صوب الفندق الذى يقيم فيه أقاربى. وحين وصلت تهاويت على أحد المقاعد، تعلونى كآبة ظاهرة تميزت وسط أناس كانوا يتجاذبون أطراف حديث مرح. وتراءت لى وجوههم جامدة باردة كالثلج إذا قورنت بوجه فارسى الدافق بالحرارة والحيوية، فشعرت بالجزع إذ كان طيفه الحبيب يتناوب الظهور أمامى مع تلك الوجوه الصماء التى خيل إلىّ أنها وجوه موتى وأن أصحابها لا تنبض بين جوانحهم حياة!..

وفيما كنت أضع قطعة من السكر فى قدح الشاى، وقد تحركت شفتاى ببضع كلمات فى شرود، كان يتراءى لى ذلك المحيا الذى أضحى مجرد التفكير فيه مبعث نشوة روحية وفرح طاغ، وهو يطفو من أعماقى وأغوار نفسى كأن قوة سحرية دفعته من دمى الفائر.. هذا المحيا.. وا حسرتاه.. سوف أراه لآخر مرة بعد ساعة أو بعض ساعة. ولعل أنة واهنة أو زفرة خافتة مكتومة ند عنها صدرى دون وعى منى حين فاجأتنى إحدى قريبات زوجى وسألتنى عما إذا كنت مريضة أو أشعر بتعب، وقد رأت الشحوب يعلو وجهى والقلق يلفنى إلى أقصى مدى، فانتهزت هذه الفرصة وزعمت أنى

أعانى صداعاً ألم بى، ثم استأذنت بالانصراف دون أن يشعر أحد. وما إن خرجت حتى حثثت السير وأسرعت الخطى عائدة إلى الفندق حيث لذت بحجرتى، وخلوت إلى نفسى وهمومى وأفكارى، فشعرت بالخواء المضنى والوحدة القاسية. وأحسست برغبة ملحة فى أن أكون بالقرب من ذلك الشاب، الذى سأفترق عنه اليوم إلى الأبد، وقد استبدت بى تلك الرغبة فى عنف وقسوة.. فأخذت أذرع الحجرة جيئة وذهاباً كشخص فقد عقله وصوابه، ورحت أفتح الأدراج دون ما سبب ودون أن يكون هناك ما أبحث عنه، وأخذت أغير ثيابى وأبدلها، كى أبرر وقوفى أمام المرآة. وساءلت نفسى، وأنا أرقبها بعين ثاقبة، عما إذا كنت وأنا على هذه الزينة وهذا البهاء عاجزة عن اجتذاب ذلك الشاب إلىّ؟!..

وأدركت حقيقة مشاعرى نحوه ومبلغ انعطافى إليه، حتى أننى كنت لا أحجم عن أى أمر أو أية حماقة من أجل الاحتفاظ به، وطغت علىّ فورة مضطرمة استحالت إلى رغبة ملحة وتشبث وإصرار، فأعلنت كاتب الفندق بعزمى على الرحيل والسفر فى مساء نفس اليوم.. فقد أصبح من الضرورى أن أقوم بعمل سريع وإجراءات حاسمة. واستدعيت الخادم لتعاوننى فى إعداد الحقائب، إذ لم تكن هناك فسحة من الوقت تسمح لى بإعدادها بمفردى، وأسرعنا فى جمع الملابس وأدوات الزينة والحاجيات الأخرى الصغيرة ورحنا نكدسها فى الحقائب، وأنا أتمثل فى ذهنى وخيالى تلك المفاجأة التى أرسم خطوطها وأحبك خيوطها وأتخيل الصورة التى ستتم بها. وخطرت لى فكرة التظاهر بالرغبة فى الصعود إلى القطار، لنتبادل تحية الوداع الأخيرة، وأتخيل الدهشة التى ستتولاه بعد ذلك حين يرى حقائبى وحين يرانى وقد أخذت مكانى فى القطار حتى لا افترق عنه بل لأقضى فى رفقته تلك الليلة والليالى التالية التى يسعدنى قضاؤها معه..

واستشعرت غيظاً مشرباً بالنشوة، حتى لقد كدت أنفجر فى قهقهة عالية وضحكات هستيرية وأنا أضع الثياب فى الحقائب حتى عجبت الخادم من أمرى وأخذتها الدهشة لتصرفى.. وشعرت ببلبلة فى أفكارى وعدم استقرار أو اتزان، حتى أننى أخذت أنظر فى استغراب ودهشة إلى الحمال حين جاء لينقل الحقائب فقد كان من المتعذر علىّ أن أفكر تفكيراً هادئاً سليماً بينما تطفح نفسى بالبهجة وروحى بالنشوة. وأزف الوقت فقد راح يمر بى سراعاً، وأشرفت الساعة علىّ السابعة، ولم يبق على موعد قيام القطار سوى نصف ساعة.. ولفنى شعور هادئ لطيف تخلل تلك الفورة لاننى لم أكن ذاهبة إلى وداع أخير بل إلى لقاء وجمع شمل مع من أسر قلبى وفؤادى!..

وراح الحمال ينقل الحقائب، كما ذهبت أنا إلى إدارة الفندق لا سدد الحساب.. وأعقبت ذلك لحظة لم تكن فى الحسبان، فقد شعرت بيد تربت على كتفى فارتجفت جزعاً.. كان تظاهرى بالألم والتعب قد شغل قريبة زوجى حين كنت فى زيارتها، فدفعها ذلك إلى الحضور لكى ترانى وتطمئن على صحتى، فدارت بى الدنيا وارتج علىّ الأمر فلم أدر كيف أتصرف، والوقت والموقف لا يتسعان للتفكير فى عذر أو حيلة، وكل لحظة تمر معناها إفلات الفرصة وضياعها. بيد أننى رأيت من باب اللياقة والمجاملة أن أمنحها فترة قصيرة من الوقت أستمع فيها إلى ما ستقول..

وأخذت تنصحنى فى تشبث وإصرار بأن ألزم فراشى ولا أبرحه، لأننى على حد قولها محمومة .. وربما كان الأمر كذلك، فقد كنت أشعر حقاً كأن أتونا يشتعل فى داخلى، وازدادت ضربات نبضى فى عنف وقسوة، وشعرت بأننى موشكة على إغماء. بيد أننى لم أوافق على مشورتها مع تقديرى لنصحها وتقديم شكرى لها. وكانت كل كلمة أتفوه بها وكأنها قطعة حجر تخرج من فمى، فقد جاءت نصيحتها فى غير الوقت الملائم لذلك. وظلت هذه القريبة السمجة فى مكانها، وقدمت إلىّ بعض العطور وتبرعت مبالغة منها

فى مجاملتى بأن تدلك وجهى بتلك العطور.. وكل ذلك وأنا أحصى الدقائق واعد الثوانى وقد شرد ذهنى واتجه فكرى بكليته إلى معبودى.. ورحت أفكر فى عذر أتعلل به لأجعلها تعدل عن تلك الرعاية التى ضقت بها ذرعاً، فأخذ اضطرابى يزداد وقلقى يظهر على قسمات وجهى مما جعلها ترتاب فى أمرى.. فلم تتورع عن مخاطبتى فى شدة لتحملنى على ملازمة الفراش..

وتركزت نظراتى، وهى تتكلم، على ساعتى ودوران عقرب الدقائق فيها وهو يقترب حثيثاً من موعد قيام القطار.. حتى لقد انصرمت ثمان وعشرون دقيقة بعد الساعة السابعة، ولم يبق على تحرك القطار سوى سبع دقائق.. وفى حركة مباغتة وفى عدم مبالاة اليائس، مددت يدى وقلت لها فى اقتضاب:

- لابد لى من أن أرحل الآن.. وداعاً..

وأسرعت نحو الباب لا ألوى على شىء، ولا أحفل بعلامات الدهشة والاستغراب والتساؤل التى ارتسمت على وجهها، ولا بالنظرة التى تزخر بالحيرة التى رشقتنى بها.. ولم ألتفت إليها ولا إلى الخدم الذين راحوا يحملقون فىّ .. وقد انعقدت ألسنتهم، ورحت أحث السير وأعدو صوب المحطة..

وكان الحمال يستحثنى وهو يسبقنى بين خطوة وأخرى، فأدركت أن الوقت قد أزف وأن القطار على وشك التحرك، فهرولت فى جنون واندفعت نحو باب المحطة.. وإذا بالرقيب يستوقفنى كى أبرز تذكرتى ولم أكن قد حصلت عليها من شباك التذاكر.. ورحت أقنعه فى سخط أن يدعنى لأتمكن من اللحاق بالقطار، فإذا به يرسل صفيره الحاد ويتحرك.. فوقفت مشدوهة ورحت أحملق، وكل ذرة فى كيانى ترتعد وترتجف. وانبعث فىّ الأمل فى نوافذ عربات القطار التى راحت تتوالى أمام عينى فىّ أن أحظى بطلعة معبودى وأن أرى منه إيماءة أو إشارة تحية. وسار القطار أولاً رويداً رويداً،

ثم أخذت سرعته تزداد حتى أصبح من المتعذر عليّ أن ألمح الوجه الحبيب. وتلاحقت العربات فى أثر بعضها، وبعد دقيقة ابتعد عن المحطة ولم يظهر منه لعينى الزائغتين سوى غمام دخانه الداكن.. بنفثه فى حلقات تمتد فوقه..

وظللت فى وقفتى جامدة لا أتحرك، ولا أدرى كم بقيت هكذا.. ولم أتنبه إلى الحمال وهو يخاطبنى، فدفعه ذلك إلى أن يلمس ذراعى، فارتجفت مذعورة، واستفسرنى هل يعود بالحقائب من حيث أتينا.. فانتظرت لحظة أستجمع فيها شتات أفكارى وأستعيد رباطة جأشى. ووجدت أنه ليس من الصواب أن أعود إلى الفندق بعد أن بارحته على تلك الحال الغريبة.. كما لم أجد فى نفسى الرغبة فى العودة إليه. وارتبكت واختلط عليّ الأمر، فأشرت عليه بأن يودع الحقائب مكتب الأمانات..

الفصل الثانى عشر

مفاجأة مذهلة !

مضت فترة من الزمن لا أدرى مقدارها، ظللت فيها فى فناء المحطة ومن حولى حشود من الناس تروح وتغدو متدافعة وقد اشتد صخبهم وارتفعت ضوضاؤهم دون انقطاع وكأنهم خلية نحل يصم طنينها الآذان.. بيد أنهم أخذوا يتسللون واحداً واحداً ويقل عددهم بين دقيقة ودقيقة، فبدأت أسترجع رشدى وأستجمع شتات ذهنى، لأهتدى إلى ما يخفف عنى بعض ما أعانيه من ضيق وألم وسخط وأسى ويأس، فقد اجتاحتنى كل هذه المشاعر، التى تألبت علىّ فى وقت واحد بشكل عنيف قاس.. حتى لقد أحسست بأن لفائف قلبى تتمزق فى ألم وبلا رحمة.. وراح ضميرى يؤنبنى فى وخز أليم بأن ما حدث من تخلفى كان نتيجة لسوء تصرفي.. وعلىّ تقع اللائمة.. فكان هذا الشعور بمثابة الخنجر المسموم وقد رشق فى قلبى..

ومن الأمور البديهية أن الصدمات العاطفية التى تحدث على غير توقع أو انتظار، والتى تشبه انهيار جبل شامخ أو هبوب عاصفة هوجاء، لا يحس بها إلا من عاشوا حياة رتيبة بعيدة عن الانفعال، لأنهم يفاجأون بتلك الطاقات العاطفية والأزمات النفسية تتدفق فى فورة من أغوارهم. ولم يسبق لى من قبل أن صادفت صدمات كهذه فى حياتى، فكان شديد الوقع على نفسى ما استولى علىّ من سخط طاغ حين وجدت نفسى عاجزة عن أى تصرف.. فبينما كنت على استعداد للإقدام على أية حماقة، وإنكار المثل العليا للأخلاق، والتخلى عن الرزانة وإطلاق العنان لعواطفى المشبوبة والتى ظلت مكبوتة فى داخلى أعواماً طويلة، إذا بالعقبات تقف فى طريقى وتضيع محاولاتى سدى..

وازددت عناداً وإمعاناً فى الطيش والرعونة حتى لأشعر بالخزيإ أن أنا رويت لك ذلك تفصيلاً.. بيد أننى مقيدة بعهدى الذى قطعته بأن ألتزم الصدق والصراحة وأن لا أخفى عنك شيئاً أو أمراً، فقد سعيت فى البحث عنه، ورحت أجتر لحظات السعادة التى قضيتها معه.. وساقتنى قدماى

فجست خلال كل شبر من الأرض ارتدناه بالأمس، فذهبت إلى الحديقة وألقيت نظرة على المقعد الذى كان يجلس عليه فيها، ثم توجهت إلى حجرة المقامرة التى كانت أول مكان رأيته فيها، بل ساقتنى قدماى دون وعى إلى ذلك الفندق المتواضع.. لأستعيد الذكريات. وحين أهل اليوم التالى، استشعرت إحساساً طاغياً فركبت عربة وطلبت إلى السائق أن ينطلق بى إلى الشاطئ عبر الطريق الذى سلكناه أنا وهو بالأمس.. وبلغ بى الاضطراب حد الهوس، فكانت تصرفاتى تتسم بالصبيانية..

وشعرت فى ذهولى بضربة قاصمة.. بيد أننى حين أفقت من شرودى شعرت برغبة ملحة فى الحياة كى أستمتع بتلك الذكريات وأعيش فى دنيا خيالها على الطريقة الافلاطونية. حقاً إن هناك أموراً تستغلق على العقل البشرى تحتاج لادراكها إلى قلب واع وفكر متوقد..

وكان ذهابى إلى قاعة اللعب لكى ألقى نظرة على المائدة التى كان يجلس إليها لأستعيد ذكرى يديه فى حركاتهما الانفعالية. وكنت أتصور كل حركة بدرت منهما فى وضوح، فلم أجد عناء فى الاهتداء إلى مائدته لأن جميع حركاته كانت منطبعة فى ذهنى وخيالى.. وجلت ببصرى خلال ذلك الحشد من المقامرين، ففاجأنى أمر لم يكن فى الحسبان ولم يدر بخلدى قط أن يكون.. فقد وجدته.. وفى نفس المكان.. جالساً إلى نفس المائدة. ولم أصدق عينى، وخيل إلىّ أننى أمام وهم من نسج الخيال أو تحت وطأة بلبلة أفكارى أو بسبب أى تأثير.. ولكنه كان هو.. هو بلحمه ودمه، كما رأيته بعين الخيال منذ لحظة، وكما كان فى أمسه، وقد تركزت عيناه على الكرة، وقد اكتسى وجهه بشحوب شديد، فلم أشك فى أننى أمام حقيقة ماثلة..

وأذهلتنى المفاجأة وذهبت بالبقية الباقية من رشدى فكدت أصرخ، ولكنى تمالكت نفسى وسيطرت على زمام أعصابى، ثم أغمضت عينى ورحت أهذى لفرط ما انتابنى:

– لابد أن مساً من جنون أصابك، أو أنك ترزحين تحت حلم من الأحلام، أو أن حمى أصابتك فخيلت لك هذه الرؤيا .. إن ذلك مستحيل .. مستحيل ؛ لأنه رحل منذ فترة بالقطار..

«بيد أننى حين فتحت عينى، طالعنى نفس المشهد.. فقد كان ماثلا أمام عينى وهو جالس إلى المائدة بكيانه وجسمه، ما فى ذلك شك . وكان من السهل أن أميز يديه بين جميع الأيدى .. إذن فما كنت حالمة لأنه هو وقد عاد، ولم يرحل كما قطع على نفسه عهدا بذلك .. لقد تخلف التعس وارتد إلى اللعب بالنقود التى نفحته بها ليعود إلى وطنه. لقد استعبدته نزوة المقامرة فجاء يقامر بنقودى، فى الوقت الذى كاد اليأس من عثورى عليه يقضى علىّ ..

«وتملكنى غضب عات تطور إلى ثورة هوجاء، فاندفعت إلى الأمام تحدونى رغبة جامحة ملحة إلى أن أكيل اللطمات على ذلك الوجه الشاحب لهذا الشاب الذى حنث بالعهد الذى قطعه واستهان بالثقة التى وضعتها فيه، ولم يأبه بشعورى وصدق نيتى فى دناءة ووضاعة وخسة .. بيد أننى عدت فكظمت غيظى وتمسكت بأهداب العقل، فسرت نحوه فى بطء متعمد وبذلت فى ذلك جهدا فوق الطاقة حتى صرت فى مواجهته، وقفت حيث لا تفصلنى عنه سوى المائدة .. فكان من السهل جدا أن أتبين معالم وجهه، وتأملته مليا، فإذا بذلك الوجه الذى كان يتألق منذ ساعات قلائل بما أضفته عليه مشاعر العرفان بالجميل، وأحاطت رأسه فى الكنيسة هالة قدسية، وقد زايله كل ذلك فأضحى فريسة طيعة لتلك النزوة الشيطانية .. وإذا بيديه اللتين تطهرتا بتشبثهما بستار المذبح وهو يلقى بأقدس يمين وأغلظه، قد عاودهما الانفعال والتقلص والتوتر، وكأنهما مخالب فى انقضاضهما على النقود التى انتشرت أمامه. وأدركت أن الحظ كان مواتيا له، وأن ربحه وفير إلى درجة كبيرة حتى أن العين لم تستطع أن تلم بما كانت يداه تجمعه من قطع ذهبية

وأوراق مالية و «فيشات» اللعب، وقد أخذت أصابعه تجمع تلك الأكداس فى مزيج من التوتر والفرح والنشوة. وإذا به يرتب الأوراق المالية ثم يطويها، ويعود إلى القطع الذهبية فيقبض عليها فى نهم وشغف، ولا يلبث أن يطوح ببعضها إلى أحد المربعات، ويعاوده الانفعال .. واسترعى انتباهه نداء الرقيب فراح يتبع بعينيه حركة الكرة فى دورانها، وخيل إلىّ وقتئذ أن روحه توشك أن تنطلق من جسده وهو مستغرق بكليته ومشاعره المرهفة فى رقعة «الروليت»، فكانت حاله تبعث على الرثاء أكثر من حاله بالأمس، إذ كان الأمل الشاهق الذى تركزت فيه جهودى قد انهار من أساسه !

«ورحت أتأمله مليا وأنعم النظر فى قسمات وجهه دون أن يفطن إلى وجودى، إذ كانت عيناه مركزتين فى أمر واحد هو اللعب وقد استغرق فيه بكليته فما كان يرفع عينيه إلىّ أو إلى غيرى لأنه كان يشخص ببصره إلى النقود دون سواها ويتابع فى قلق دوران الكرة، فكانت مائدة «الروليت» المستديرة الخضراء هى المسرح الوحيد لجميع حواسه اللاهثة، فهى دنياه التى لا يتعداها أفق تفكيره. وجال بذهنى أن ساعات طوالا قد تمر بى وأنا على تلك الحال دون أن يشعر أو يفطن لوجودى. وضاقت نفسى وأفلت زمامى، فسرت حول المائدة فى حزم ووقفت خلف ظهره، وأمسكت كتفه، فشاعت الحيرة فى عينيه وأخذ يحملق فى وجهى بنظرات زائغة كأنه ينظر إلى شخص غريب لم يسبق له أن رآه . لقد كان كإنسان تناول مقدارا كبيرا من مخدر، من العسير أن يفيق بسرعة وقد ران أثر المخدر على عينيه .. وانقضت فترة لاح لى بعدها أنه عرفنى إذ انفرجت شفتاه فى اختلاج عصبى، وراح يرمقنى بنظرة طويلة نمت عن شعوره بالبهجة والسعادة، وتمتم فى صوت خفيض غير واضح النبرات وفى بساطة وتودد وقد ران عليه الشرود والغموض :

– إن الحال تسير إلى أحسن .. لقد شعرت بك بمجرد دخولك وحين رأيته هناك .. وقد أحسست بذلك فى وقته ..

«ولم أدرك مغزى كلامه، وظننت أن نزوة اللعب قد طغت على فكره، وأنه لم يعد يذكر شيئا، فنسى وعده وقسمه، بل نسى العالم أجمع، حتى أنا .. نسينى أيضا. ولكن البريق الذى تألق فى عينيه حين وقع نظره علىّ كان زاخرا بالإغراء رغم تعاسته وإفلات زمامه وانصياعه للشيطان . ولذلك وجدت نفسى أفكر فيما يقول على الرغم منى، فاستفسرته عما يقصد بكلمة «رأيته» وعمن يعنيه بهذه الكلمة، فمال علىّ وكأنه يفضى إلىّ بسر يحرص على ألا يسمعه أحد سواى وقال :

– أعنى ذلك الضابط الروسى العجوز المبتور أحد ذراعيه، الذى يجلس هناك ومن خلفه تابعه .. لقد لاحظت أن الحظ يواتيه وأنه يربح فى معظم الجولات. فأدركت أن له نمطا خاصا فى اللعب .

فرحت أسير على منواله. والحظ فى جانبه من الأمس حتى الآن، وقد كانت حماقة منى أن ظللت ألعب بالأمس بعد انصرافه. ولعل أرباحه فى الليلة السابقة نيفت على العشرين ألفا من الفرنكات، وهو يربح اليوم فى كل جولة، وأنا الآن أنهج نهجه وأسير على منواله فأضع النقود فى المربع الذى يضع فيه نقوده .. والآن .....

«وتوقف عن الكلام فجأة حين صاح الرقيب بصوته الثاقب :

– الآن يبتدئ اللعب .

« فتحول الشاب بنظره على مهل إلى الضابط الروسى، فإذا به يراه يضع فى هدوء قطعة من النقود الذهبية فوق المربع الرابع، وبعد لحظة يضع قطعة أخرى. وفى لمح البصر رأيت الشاب يدس يده المرتجفة فى أحد جيوبه ويخرج عدداً من القطع الذهبية ويضعها على الفور فى المربع ذاته .. وصاح الرقيب بعد دقيقة معلنا «الصفر» وراح يحصد بمجدفته النقود من المائدة.

ورأيت الشاب قد زاغ بصره فى ذهول كمن لايصدق فقدان هذه النقود .. وهل تظن أنه التفت إلىّ ؟ .. لقد بدا وكأننى غبت عن ذاكرته وتلاشيت من محور أفكاره ولم يبق لى كيان فى محيط حياته. فقد استغرقت حواسه فى ذلك الضابط الذى تناول قطعتين أخريين، وراح يفكر فى اختيار المربع الذى يضعهما فيه .

«وليس فى استطاعتى أن أصف لك ما لفنى من غصة وقنوط، ولكن فى وسعك أن تتصور مدى ما استشعرته من خيبة أمل نحو شاب بذلت كل ما وسعنى أن أبذله لكى أحفظ عليه حياته، فإذا أنا فى نظره كائن تافه، لا يقيم لصنيعى وزنا ولا يحمل لى تقديرا .. فعاد الحنق يستعر فى نفسى، فجذبته بعنف حتى انتصب واقفا، وقلت له فى صوت خفيض ولكن بلهجة قاسية آمرة:

– اترك اللعب وانصرف على الفور، وتذكر العهد الذى أخذته على نفسك بين يدى الله فى الكنيسة .. أيها التعس الذى لايرعى ذمة أو عهدا .

«وهزت كلماتى كيانه، فحملق فىّ مشدوها وشحب وجهه حتى أصبح فى صفرة وجوه الموتى، واسترخت عيناه واستكان فى ذلة الكلب المهيض، وراحت شفتاه تختلجان وترتجفان وكأنما تراءى الماضى بأحداثه أمام ناظريه. وبدا كأنه قد برم بنفسه فى اشمئزاز، فتمتم فى تلعثم :

– آه .. أجل .. نعم .. يا إلهى .. سأنصرف . اغفرى لى .

«وراح يجمع النقود فى عجلة وتحمس، ولكنه أخذ يتراخى شيئا فشيئا .. وكأنما هناك قوة خفية تهيب به ألا يفعل . وعاد يرنو ببصره إلى الضابط الروسى الذى كان قد استقر رأيه على رقم معين، وفجأة رأيت الشاب يلقى فى لمح البصر بضع قطع ذهبية فى المربع الذى وقع عليه اختيار الضابط، ويقول فى لهجة اعتذار .

- لحظة واحدة ولن ألعب سوى هذه الجولة.. أقسم على ذلك وسأنصرف بعدها لتوى.

«وتلاشى صوته وهو يتابع دوران الكرة .. لقد أفلت زمام المسكين من نفسه ومنى، إلى أن استقرت الكرة فى فجوة أخرى، وصاح الرقيب معلنا رقما وامتدت مجرفته تجمع القطع الذهبية .. إذن فقد خسر الشاب، فلم يلتفت نحوى، ولم يعد لى وجود فى ذاكرته كما نسى العهد الذى قطعه على نفسه، والوعد الذى لم تمر عليه دقائق .. وعاود اللعب، فعادت يده تندس فى جيوبه فى توتر وانفعال لتخرج بالنقود التى أخذت تتناقص . وظل طيلة الوقت يشخص ببصره إلى الضابط الروسى، الذى ظن أنه يجلب له الحظ، فانصاع وراءه .

الفصل الثالث عشر

صدمة عنيفة

«وطال الأمر ونفد صبرى، فدفعته بيدى فى عنف وقسوة وصحت فيه :

- انهض الآن لتوك .. فقد ذكرت أن هذه آخر جولة تلعبها ..

«وملأنى الهلع حين استدار نحوى، ورأيت ذلك الوجه على غير عهدى به من الوداعة والاستكانة والخوف قد تحول إلى وجه ثائر، وجه مخلوق استبد به الشر والغضب، فراحت عيناه تقدحان شررا وشفتاه ترتجفان من الحنق، وصاح بى فى فورة جامحة وجمود بغيض:

- لماذا تزجين بنفسك فى حياتى .. دعينى لشأنى واغربى عنى لأنك مصدر نحس .. لقد لازمتنى الخسارة فى وجودك .. حدث هذا بالأمس ؛ وها هو ذا يحدث اليوم .. انصرفى بالله عليك .

«وأخذتنى المباغتة فرحت فى ذهول، وإزاء هذه المكابرة، ونكران الجميل شعرت بكرامتى تمتهن وبمرجل الغضب يغلى فى نفسى، فقلت له :

- هل تعزو نحسك إلىّ أنا ؟ .. هل نسيت قسمك أيها المنافق اللص الكذاب .

«وسكت، فلم أزد على ذلك حرفا .. ويا لهول ما أعقب ذلك، فقد قفز كالمجنون ودفعنى فى فظاظة دون أن يرعى شعور الموجودين الذين هبوا واقفين مستنكرين، ولكنه صاح بصوت عال فى وقاحة وخسة :

- لاتريني وجهك! إننى لست قاصرا ولست أنت ولية أمرى! ها هى ذى نقودك .. فاغربى عن وجهى ودعينى لشأنى !

«وألقى فى وجهى بضع ورقات مالية من ذات المائة فرنك. وقد علا صوته وكأن مسا أصابه، غير عابئ بالعشرات من الناس الذين تجمعوا حوله، وراحوا يتطلعون إليه فى تهامس وتغامز وهم يضحكون .. وبلغ من شدة الضوضاء التى أحدثها أن أقبل الكثيرون من الحجرة المجاورة لينظروا ما حدث بدافع الفضول، فاستولى علىّ خجل شديد .. وخيل إلىّ أننى أقف مجردة من ثيابى وسط هذا الحشد الغريب.

«ودق الرقيب المائدة بمجرفته وصاح فيّ بصوت عال :

– أرجو أن تلزمى الصمت أيتها السيدة !

«ومن عجب أنه وجه الكلام لى أنا كأننى أنا التى أحدثت الضوضاء، فشعرت بالهوان والخزى إذ وجدت نفسى محط أنظار الجميع ومادة همهمتهم وهمساتهم، كما لو كنت إحدى فتيات الليل أنقدوها أجرها فلماذا تنتظر وماذا يدفعها إلى البقاء .. وراحت الأعين تحملق فى وجهى، فانتحيت ركنا وقد استشعرت الذلة والخزى، وأشحت بوجهى لأتفادى نظرات الفضول، وإذا بعينين أذهلهما حرج موقفى فأخذت صاحبتهما تنظر إلىّ مشدوهة وقد فغرت فاها لفرط الدهشة، ثم رفعت يدها تحت تأثير الذعر الذى ألم بها .. لقد كانت قريبة زوجى !

«ووقع علىّ وجودها وقع الصاعقة، واشتعلت فى نفسى مشاعر الغيظ والألم .. فهرولت خارجة من حجرة اللعب قبل أن تفيق من ذهولها ودهشتها. واستطعت بقوة لا أدرى من أين أتتنى أن أصل إلى مقعد بحديقة الفندق، نفس المقعد الذى كان يجلس عليه ذلك المخبول بالأمس مهدما محطما، وتهالكت على المقعد مهيضة مهينة محطمة، مثلما كان هو ..

«كان ذلك منذ حوالى ربع قرن، ومع ذلك فإن تأثيره القاسى فى نفسى مايزال كما لو كان قد حدث بالأمس .. فقد اكتويت بإهانته لى على مرأى من هؤلاء الغرباء، يستغلق علىّ الأمر كلما فكرت فى تلك الألغاز التى يطلقون عليها أسماء متنوعة كالنفس والعقل والشعور والألم، وكيف تقف كلها مكتوفة رغم فورتها واحتدامها عن السيطرة على الجسد الذى يتعذب ويتلظى ويتحطم.. وكيف يتسنى لمخلوق حى أن يعيش بعد تلك الأحداث والأهوال لمجرد جريان الدم فى شرايينه ولايدركه العدم كما يحدث للشجرة إزاء عاصفة هوجاء تطيح بها !

«بيد أن الألم لم يلازمنى سوى لحظة خاطفة، هى التى تلقيت فيها اللطمة.. وعندما ارتميت على المقعد متهالكة خائرة النفس لاهثة الأنفاس أكاد أختنق، استشعرت مرارة الموت. ولكن الحقيقة التى لايمكن إنكارها أن الألم شعور واهن لا يلبث أن يتقهقر ويتلاشى أمام غريزة حب الحياة .. تلك الغريزة المتأصلة فى نفوسنا رغم ما نلقاه من متاعب وأهوال، حتى لترجح كفتها الرغبة فى الخلاص من تلك الحياة .

«ولم أستطع أن أفسر كيف عدت إلى رشدى رغم تلك الصدمة القاصمة العنيفة، وإن لفتنى الحيرة فيما ينبغى أن أفعل وكيف أتصرف، وقفز إلى ذهنى أن الحقائب لاتزال فى مكتب الأمانات بالمحطة، واستتبع ذلك بروز فكرة الرحيل التى أخذت تستبد بى فى إلحاح .. الرحيل من هذا المكان .. إلى أى مكان .. بعيدا عن هذه البقعة الموبوءة وبؤرة الفساد .. فرحت أسرع الخطى ما وسعتنى قوتى نحو المحطة لا ألوى على شىء وقصدت مكتب الاستعلامات لينبئنى عن موعد أول قطار لباريس، وبادرت إلى سحب حقائبى حين علمت أن موعده فى الساعة العاشرة .

«وذلك الموعد هو تمام أربع وعشرين ساعة منذ ذلك اللقاء المقيت، كانت زاخرة بالأحداث والأهوال، وبالأحاسيس والمشاعر التى خلفت فى نفسى جرحا لا يندمل مدى الحياة .

«وألح على ذهنى وراح يتوارد عليه فى البداية أمر واحد، هو الرحيل، وأن ليس من سبيل سوى الرحيل .. فأخذت نفسى تردد ذلك فى تواتر لكى أهرب من هذا المكان .. ومن نفسى .. وشجونى، وأعود إلى موطنى .. بين عشيرتى وأهلى، وإلى حياتى الأولى المطمئنة الرتيبة .

«واتخذت مكانى فى القطار، فقضيت به ليلتى .. ووصلت «باريس» ومنها أخذت أتنقل من مكان إلى مكان، وأخيرا رأيت أن أتجه إلى «بولونى» ثم إلى

«دوفر» .. مفتاح الطريق إلى «لندن» . وإذ بلغتها يممت شطر البيت الذى كان يقيم فيه ابنى .

وقد حدث كل ذلك فى سرعة خاطفة فى غير ما تفكير أو تدبير، فقد كان فكرى عاطلا حتى عن النوم والحديث والطعام مدى يومين كاملين إلا من فكرة الرحيل ..!

«وما إن حططت الرحال، وبلغت منزل ابنى ودخلته على غير موعد أو توقع ، حتى ارتسمت علامات الدهشة والجزع على وجوه أهل البيت جميعا .. فقد نمت نظراتى عما فى دخيلة نفسى .. وتراجعت مذعورة مجفلة حين أراد ابنى أن يقبلنى ؛ لأننى لم أحتمل أن أراه يقبل شفتين اعتبر أن طهارة الأمومة زايلتهما فأضحينها دنستين ! .. وأطبقت فمى عن الكلام أو الرد علىّ ما وجه إلىّ من اسئلة. وإنما أبديت الرغبة فى إعداد الحمام، فقد طغى علىّ إحساس عجيب بالرغبة فى تطهير جسدى من أوزاره لا من آثار وعثاء السفر .. ومما بدا لى أنه شابه من طيش ذلك الشاب ونزوته البشعة .. وتحاملت فى جهد وإعياء حتى وصلت إلى المخدع، فاستلقيت على الفراش ورحت فى نوم عميق دام أكثر من اثنتى عشرة ساعة كنت خلالها شبه ميتة أو مخدرة تخديرا تاما، أدركت منه كيف يكون الموتى حين يرقدون فى توابيتهم !

«وفزع الجميع لامرى وقلقوا، فقد ظنوا أننى أعانى من وطأة المرض، وأتى حدبهم علىّ بعكس ما كنت أنتظر وأرجو، فقد نبه حواسى إلى ناحية قاسية وأيقظ فىّ كوامن الألم، فاستشعرت الخزى وشعرت بأننى لست أهلا لعطفهم وتقديرهم .. وبذلت قصارى جهدى كى أملك زمام نفسى حتى لاتعترينى نوبة أكشف لهم فيها عن خستى وخيانتى تحت تأثير نزوة جامحة عارضة..

«وقضيت بينهم فترة من الزمن لا أدرى كيف مرت بى ساعاتها .. رأيت بعدها أن أرحل إلى إحدى القرى الفرنسية اخترتها مصادفة دون أن تكون لى صلة بأحد من أهلها .. لسبب واحد هو أنه بدا لى أن عارى سيظهر جليا للناس، وأنهم إذا كانوا يعرفوننى من قبل فإنه سيتضح لهم ما طرأ علىّ من تغير حيث رزحت أعماقى تحت وطأة الشعور بالإثم والدنس .. حتى لقد كنت حين أستيقظ فى الصباح يلفنى الهلع والفزع، فلا أجسر على فتح عينى .. فقد كانت أحداث تلك الليلة المشئومة ماثلة فى ذهنى وخيالى، أتمثل كيف حدث ذات يوم أن صحوت من نومى فوجدت رجلا غريبا ممددا على الفراش إلى جوارى وقد تجرد من معظم ثيابه .. فيراودنى نفس الإحساس الذى شعرت به وقتذاك وهو تمنى الموت!

«بيد أن دوران عجلة الزمن طلسم كبير للأحداث، يستنفد عمر الإنسان كافة مشاعره .. حتى أن تقدم الأعوام يزيد دنو الإنسان من الموت، فيظلل حياته بغمامة قاتمة فيفقده ذلك الاستمتاع أو الإحساس بمباهج الحياة .. على العكس تماما مما يستشعره الإنسان حينما تكون الحياة مقبلة زاخرة بفورة الشباب والحيوية .

«هكذا أخذت أستجمع شتات أفكارى وأسترجع رشدى من الصدمة العنيفة التى منيت بها. وحدث أن التقيت فى إحدى المناسبات بموظف بالمفوضية النمساوية، وكان شابا فى مقتبل العمر من أصل بولندى، فوجدت نفسى أستعلم منه عن أسرة الشاب الذى شاطرنى إثمى.. فسمعته يقول :

- أذكر أن شابا من أفراد تلك الأسرة قد انتحر منذ عدة سنوات وكان وقتذاك فى «مونت كارلو» .

«ولم يقع منى الخبر موقع الدهشة أو الألم أو الرثاء، بل ربما استشعرت الراحة لسماعه.. فقد دفعتنى الغريزة بأن نهاية ذلك المنكود قد حسمت كل شىء وقضت على أى احتمال للقائه فى المستقبل. وتبعا لذلك لم تعد هناك

قرينة على خطيئتى سوى الذكريات .. فغمرتنى منذ ذلك الحين طمأنينة ناعمة ؛ لأن الشيخوخة فى حد ذاتها لاتبعث فى النفس القلق بل إنها مرحلة العمر التى ينبغى أن يحياها الإنسان بلا خوف وقد طلق ماضيه بذكرياته.

«ولعلك تدرك الآن السر فى تلك الرغبة الملحة فى أن أروى لك ماضى حياتى .. لأننى عندما رأيت موقفك من مدام «هنرييت» وأنك فى صفها تدافع عنها، وتقرر فى حزم أن يوما واحدا بل أقل يستطيع أن يحول حياة أية امرأة إلى النقيض، شعرت وكأنك تقصدنى بما قلت، فاستشعرت نحوك الشكر والامتنان، إذ قدرت أنك تدافع عنى.. فكان هذا حافزا لى على أن أفضى إليك بمكنون سرى، فتخف عنى وطأة ذلك الماضى، وينزاح ذلك الإثم الذى يلاحقنى وتقضنى ذكراه فى غير رحمة أو هوادة .. حتى إذا ما قدر لى يوما من الأيام أن تطأ قدماى قاعة اللعب التى كانت يوما المحور الذى تحولت فيه حياتى، دخلتها دون أن أستشعر حقدا على نفسى أو على ذلك الشاب.

«نعم ، جال بخاطرى أن اعترافى سيكون بمثابة المسوح الذى يطهرنى ويرفع عنى ذلك العبء الجاثم فوق صدرى، فينزاح عنى إلى غير رجعة .

إننى أشعر الآن بالهدوء والطمأنينة والسعادة تغمرنى بعد أن سنحت لى الفرصة فقصصت عليك قصتى، فقد نفست عن نفسى وأوشكت أن أستشعر الهناء وراحة البال.. فشكرا لك من أعماق القلب ..».

ونهضت عن مقعدى إذ أدركت أنها قد أنهت قصتها، وحاولت فى حياء أن أسرى عنها .. ويظهر أنها فطنت إلى ما جال بخاطرى فقالت على الفور:

– أرجو أن تلوذ بالصمت .. لاتجاملنى ولا تعقب بقول، فشكرا لك من أعماقى وقد اتسع صدرك فأصغيت لقصتى .. رعاك الله ..!

* * *

وكانت قد انتصبت واقفة وقد مدت يدها لتودعنى، وتطلعت دون قصد

منى إلى صفحة وجهها ، فإذا أسارير هذه العجوز التى صبغها الحياء والحرج تثير الرثاء فى نفسى والشفقة والعطف فى قلبى .. وفجأة اكتسى ذلك الوجه الذى تتوجه هالة شعرها الأبيض بحمرة محتقنة .. ترى هل كان ذلك صدى لجذوة العاطفة التى خبت، أم كان مظهرا من مظاهر الارتباك، حتى لقد ذكرتنى بالفتاة التى تذيكها ذكرياتها فتضطرب فى خفر وتشعر الحرج فى اعترافها .

وشعرت بشتى الأحاسيس، وراح الانفعال يسرى فى كيانى دون وعى منى، وشملتنى رغبة ملحة طاغية فى أن أظهرها بما أحمله لها من توقير وتقدير، فارتج، علىّ، وغاص الكلام .. ولم أجد أمامى سوى أن أنحنى لها فى إجلال واحترام بالغين، وأن أطبع قبلة تقدير على اليد المغضنة الممدودة إلىّ والتى راحت ترتجف وكأنها ورقة من أوراق الشجر تعصف بها رياح الخريف .

جنون الحب



جنون الحب

شخصيات الرواية

ماتيلدا : حسناء وزوجة محام وأم إدجار

ادجار : غلام ابن ماتيلدا

البارون : شاب ثرى وجيه

الفصل الأول

البارون الوسيم

أخذ القطار يتهادى حينما اقترب من «سيمرنج»، ذلك المصيف الجبلى لمدينة «فيينا» والذى يقع على ربوة منبسطة خلعت عليه طابعا خاصا من السحر والجمال، وكان القطار يرسل صفيره معلنا قرب الوصول، وإن هى ألا دقيقة حتى كان القطار قد استقر بعرباته الداكنة على رصيف المحطة، وقد أضفت السماء لونا فضيا على الكون، وراح المسافرون يتدافعون ويتزاحمون فى صعود وهبوط، وقد علت أصواتهم فى صخب مثير .. حتى إذا حان الوقت لكى يستأنف القطار مسيره، انبعث صفيره ثانية ثم تحرك وقد جذب خلفه العربات تباعا، فراحت ترسل ذلك الصوت المتتالى .. وما هى إلا لحظة حتى غاب من مرأى العين، إذ كان قد دلف إلى النفق، ولم يعد هناك أثر لجلبة أو ضوضاء، وران الهدوء على المكان وصفا جوه بعد أن انجاب عنه الدخان .

وكان ممن هبطوا من القطار، شاب جذب إليه الأنظار بأناقة هندامه ورشاقة مشيته الطبيعية فى غير تكلف، واسترعى النظر أن الشاب بادر إلى عربة تقله إلى الفندق، وراح الجوادان يجران العربة على مهل ويصعدان بها الطريق الجبلى .. كان ذلك فى فصل الربيع، والنسيم ينعش النفوس، وقد تخللت السماء سحب بيضاء .. تلك التى لا ترى إلا فى ذلك الفصل من السنة، وقد راحت تتسابق وتتلاحق بعضها فى أثر بعض، وكأنها أسراب من الحمائم المتدافعة فى صفحة السماء الزرقاء، ولا تلبث أن تحتجب عن الأعين خلف الجبال الشاهقة .. وأنها لتتدافع ثم تفترق متجمعة حينا ومتفرقة حينا آخر، وأخيرا تحط الرحال فوق قمم التلال فتتوجها بهالات بيضاء، كأنها نتف من القطن المنقوش، وزمجرت الرياح فى عنف، فتراقصت أمامها الأشجار التى كانت قطرات المطر لاتزال عالقة بها فراحت حباته تتناثر وكأنها فصوص براقة من البللور، وأخذ عبير الجليد يشيع فى الجو لفحات من النسيم عليلة يستنشقها الإنسان فتنعشه وإن كانت لاذعة البرودة

فى الوقت نفسه، وبالجملة كان الكون بأرضه وهوائه وسمائه دائب الحركة فى نشاط مستمر، وإذ وصل الجوادان إلى نهاية الطريق الصاعد انطلقا يجريان فى سهولة وخفة يطرق الأسماع وقع سنابكهما .

وعنى الشاب حين وصل إلى الفندق بتصفح سجل أسماء النزلاء، وإذ فرغ من ذلك استشعر خيبة أمل كبيرة وتجهم وجهه وراح يتساءل فيما بينه وبين نفسه وقد برم بنفسه وتملكه قلق مرير :

– لماذا جئت إذن ؟ .. إن وجودى هنا وحيدا دون صحبة أو متعة لأشد وطأة على النفس من ممارسة العمل .. ولعلى لم أتخير الوقت الملائم لحضورى .. إن سوء الحظ يلازمنى دائما فيما أهيئه لنفسى من فرص الترفيه.. وجميع النزلاء غرباء عنى، ولو كان من بينهم بعض النساء لكان ذلك مبعثا لتسلية أو لهو أو استمتاع حتى فى أبسط الصور وأكثرها براءة، لكيلا تنقضى تلك الأيام السبعة فى وحشة موحشة ووحدة ثقيلة على النفس.

كان ذلك الشاب «بارونا» من نبلاء النمسا، حظى بمركز مرموق فى أحد المناصب الحكومية .. فقد كان موظفا كبيرا فى إحدى الوزارات، وقد حفزه على أخذ هذه الإجازة أن زملاءه جميعا قد انتهزوا فرصة ذلك الفصل البديع، فصل الربيع، فحصلوا على إجازاتهم .. فلم يشأ أن يشذ عنهم، وأن يتخلى عن حق له، ورغم أنه كان ينزع إلى الهدوء، فإنه كان اجتماعيا بالسليقة .. ولهذا كان محبوبا فى كافة المجتمعات، وله فيها مركز مرموق، وكان يضيق بالعزلة ويبرم بالوحدة فكان يتحاشى ذلك قدر استطاعته، فلم تكن به حاجة إلى أن يستزيد من معرفة نفسه، بل كانت تلح عليه الرغبة فى الاندماج بالناس والاختلاط بهم، لكى يتسع أفق مداركه، ولكى يشبع نزوات نفسه ليشيع الدفء فى قلبه .. وكان يعتقد أنه لو جنح إلى العزلة لصار تافها، وفقد – اجتماعيا – كيانه وحيويته !

ولم يكن بردهة الفندق أحد .. فراح يذرعها فى ضجر وضيق واستياء، وأخذ يتناول الصحف واحدة بعد واحدة يتطلع إليها دون أن يقرأ إحداها، أو يتسلى بالعزف على «البيانو» فى قاعة الجلوس فيعالج أحد الألحان فى غير مهارة .. إلى أن ضاق بنفسه فاستلقى على مقعد فى أحد الأركان فى ضجر وبرم، وراح يتأمل الظلمة التى أخذت تخيم على المكان والضباب الذى يتخلل الأشجار تنفثه فى شكل بخار وردى .. فمر به الوقت فى ملل، وقد أرهف حسه وتوترت أعصابه، فيمم شطر قاعة الطعام ودلف إليها .

وكان الكثير من الموائد لايزال شاغرا، فقد انتثر أفراد قلائل على بعض الموائد .. فأجال البصر فى نظرة خاطفة .. دون جدوى، فلم يكن يعرف أحدا من الجالسين، إلا شخصا واحدا ، انتحى ركنا قصيا وحياه فرد التحية فى غير مبالاة .. عرفه مصادفة، فعرف فيه أنه من أولئك الذين يسرفون فى إرضاء مزاجهم، ولم يطالعه وجه امرأة واحدة يمكن أن يأمل فى أن تكون له معها مغامرة ولو عابرة، فاستبد به الضيق .

وكان البارون يحظى بقسط وافر من وسامة الوجه، حتى لتجعله هذه الوسامة قبلة أنظار النساء ومطمعا للكثيرات منهن والاندماج فى مغامرات غرامية كثيرة، وقد أوتى موهبة اللباقة فكان ينجح فى كل مغامرة، وكان ممن لايرتج عليهم فى موقف من المواقف، فقد حصنته موهبته وسرعة بديهته. يمضى فى حياته يتنقل من صيد إلى صيد، لا تفلت منه فرصة ولا يمنى بالفشل فى مغامرة ؛ لأنه كان يركز نظرته الثاقبة الأولى فى أنوثة المرأة وأغوار الأحاسيس الجنسية فى قلبها، دون ما نظر إلى مركزها ومكانتها، وعما إذا كانت زوجة صديق أو خادما أو غسالة !

وحين يعبرون عن ذلك الطراز من الرجال فى النمسا بأنهم من «غواة صيد النساء» ويصفون ذلك الأمر بالوضاعة والزراية، فإنهم يفعلون ذلك على سبيل المداراة، ودون أن يدركوا ما يحمله تعبيرهم من حقيقة واقعة ؛لأن

جميع مميزات هذه الهواية ودوافعها وغرائزها من تلهف وفورة، وما تستلزمه من عقل يعمل فى قدرة خارقة .. يتفاعل كل ذلك فى تصرفاتهم وفى أسلوبهم الخلاب المعسول الزاخر بالإغراء وإطراء المفاتن، فهو بمثابة الشباك التى يسهل بها الإيقاع بالنساء واستسلامهن.. تتملك هؤلاء الرجال نزوة جامحة عارمة، وشهوة تختلف فى جوهرها عن العواطف النبيلة السامية، أبعد ما تكون عن عاطفة الحب وأقرب ما تكون من شهوة المقامرة، شهوة ساكنة كامنة تقدر الأمور ولكنها فى نفس الوقت تودى بصاحبها إلى مواطن التهلكة، وليس بمستغرب أن نرى بعض هؤلاء الرجال قد أوتى عنادا فى الطبع وصلابة مراس وصبرا لا ينفد وطول أناة .. فشاغلهم الشاغل هو ارتقاب المغامرة، فلا يفلتون دقيقة من يومهم دون أن يسعدوا بلذة حسية ولو بسيطة.. أو نظرة خاطفة أو ابتسامة هادئة أو لمسة بالقدم أو الساق أثناء الجلوس ، فلا تخلو أيامهم من أمثال ذلك، وكأن هذه الحوادث العابرة هى المعين الذهبى ومنبع روح حياتهم، ينهلون منه فى نشوة ومتعة فيذكى نار الوجد والصبابة فى نفوسهم .

وهكذا وجد البارون نفسه وسط أناس ليس بينهم امرأة واحدة، ولو إحدى الزميلات، فتناول صحيفة وراح فى برم يشخص فى سطورها دون أن يعى شيئا مما حوته.. فقد كان فكره مشتتا كالمخمور لا يفهم معنى للكلمات، وعلى غير توقع سمع حفيف ثوب من خلفه، وصوتا ينم عن غضب يقول فى لهجة متراخية خفيفة بالفرنسية :

– اسكت يا «إدجار» .. كفى ذلك .

وشعر بحفيف الثوب الحريرى، وهو يحتك بطرف مائدته، ورأى سيدة فارعة القوام، بارعة الجمال، تزخر بفتنة طاغية يتبعها طفل صغير نال منه الشحوب يرتدى سترة مخملية داكنة اللون، فرمقه بنظرة فضول، وجلست السيدة والطفل قبالتها إلى مائدة أغلب الظن أنها كانت قد احتجزتها، وخيل

إليه أن الطفل كان يبذل جهدا فى التشبث بالهدوء فى الوقت الذى كان القلق يعتمل فى داخله فتنطق به عيناه .. أما السيدة - وقد أضحت موضع اهتمام البارون- فقد كانت ثيابها غاية فى الأناقة، كما كانت من ذلك الصنف من النساء الذى يميل إليه بجوارحه، فقد كان قوامها ممشوقا وجسمها ممتلئا ملفوفا فى غير اكتناز .. فكانت بالإضافة إلى فتنتها ووسامة وجهها مثالا رائعا للجمال، وكان قد تم نضجها، فحلا له قطافها.. وبدت مرهفة الحس متوترة الأعصاب، بيد أنه تبين جليا أنها كانت تحاول التغلب على انفعالها وإخفاءه وراء قناع من الأسى والاكتئاب ..!

ولم يكن فى استطاعة البارون ، فى مبدأ الأمر، أن يلقى نظرة فاحصة على عينيها .. بيد أن حاجبيها قد راقا له وقد استدارا فى نسق بديع، وهما يكادان يلتقيان فى رفق وخفة فوق أنفها الدقيق، وهو طابع يتميز به العنصر اليهودى وقد أضفت هذه الوسامة وذلك الجمال على الوضع الجانبى لوجهها فتنة تخلب اللب وتجذب القلب. ومن الإنصاف أن نقرر أن شعرها كان رمزا لفتنة الأنوثة يذكى فى النفس شتى الأحاسيس، وكان اعتدادها بجمالها وبأنها قبلة الأنظار وموضع الإعجاب يملؤها زهوا بنفسها فيضفى ذلك على سحرها هيبة ضافية .

وطلبت السيدة الطعام بصوت يكاد لا يسمع، ثم تحولت إلى الطفل فشددت عليه أن يتمسك بآداب المائدة وأن يلتزم الهدوء .. إذ كان قد أخذ يعبث بالشوكة التى أمامه محدثا بها صوتا لا يليق، فعلت السيدة ذلك دون أن تأبه بنظرات البارون الفاحصة المختلسة فى حذر ودون أن تكترث له .. بل لقد بالغت فى تحفظها، فتظاهرت بأنها لا تفطن إلى وجوده، وإن كان اهتمامها خفية إلى نظراته هو الذى دفعها إلى ذلك التحفظ الذى انطوى - فى الواقع - على اهتمام من جانبها .

وبغتة تغير الحال، واكتسى وجه البارون بإشراقة وضاءة، وزايله التجهم.. واستيقظت أعصابه بعد استكانة، وأضاء جبينه ونأت عنه التجاعيد التى كان قد خطها الضجر، ونشطت عضلاته واستعادت حيويتها فاعتدل قوامه وتألقت عيناه .. فكان كامرأة ما إن رأت رجلا حتى جهدت فى إبراز مفاتنها وسلطانها، لقد كان «طاقة كامنة» فى حاجة إلى ما يحفزها فتنطلق فى اندفاع ونشاط .. إنه وقع على الصيد فلمعت عيناه بذلك البريق السحرى، وراحتا تتحديان نظرات المرأة وتتصديان لها .. والتقت نظراتهما بين الحين والحين، خاطفة تنم عن اضطراب وتردد وقلق، دون أن يستشف منها جواب صريح .. وخيل إليه أن ابتسامة كادت ترتسم على شفتيها، فاستبدت به الحيرة لهذا الغموض، وكاد الأمل يخبو فى نفسه اللهم إلا ذلك الشعاع الذى كانت ترسله عيناها من نظراتها إليه، والذى استشف منه مبلغ ما تعانيه من حيرة وارتباك ومقاومة، واتضح له أن التحفظ واصطناع الهدوء اللذين التزمت بهما كانا يفضحان شعورا بالقلق والضيق .. وانتابته حالة من الانفعال، فها هو ذا يرى أمامه الصيد، فجاهد ما استطاع لكى يتلكأ فى تناول طعام العشاء ليطيل من بقائه، وظل شاخصا إليها ببصره لا يحول نظره عنها نصف ساعة، وكأنه يرسم فى لوحة خياله كل صغيرة من دقائق وجهها ويلمس بمشاعر الحس كل قطعة من مفاتن جسمها الزاخر بالحيوية والجاذبية والأنوثة .

ولفت الظلمة الفضاء، فأخذت الأشجار تتمايل وتتراقص، وراحت أوراقها ترسل حفيفها متواصلا - كأنها رتل من الأطفال الصغار استولى عليهم ذعر شديد - تحت وطأة الريح والمطر، وراحت الظلمة تتسلل إلى قاعة الطعام رويدا، وران الصمت فاشتد الضيق بالرجال، وغدا حديث الأم لطفلها أكثر اصطناعا وأوضح تكلفا، وأدرك البارون بالغريزة أنه لن يلبث أن ينتهى، فأذكى نشاط تفكيره واستقر رأيه على القيام بعمل إيجابى،

فنهض عن مائدته، وكان أول من أقدم على ذلك، وسار فى خطوات بطيئة متثاقلة صوب الباب، وحين صار فى محاذاة السيدة ألقى ببصره إلى الردهة فى تعمد ظاهر، كأنه يوحى بشىء .. ثم استدار والتفت خلفه بغتة وكأنه نسى شيئا، فلمحها تنظر وتتأمله بنظرة اهتمام ..!

وتلكأ فى الردهة وانتظر قليلا .. وسرعان ما وجد السيدة قد أقبلت والطفل متعلق بيدها، ثم رآها تتناول بعض المجلات وتقلبها وتعرض على الطفل بعض الصور والرسوم، فاتجه إلى المنضدة التى كانت المجلات فوقها، وكأنه يهم بأن يتناول هو الآخر إحداها، بيد أنه فى الواقع كان يسعى وراء هدف آخر، إذ كان يريد أن ينفذ إلى أغوارها من أعماق عينيها، ولعل هاتفا أهاب به أن ينتهز هذه الفرصة فيبادلها تحية أو حديثا، بيد أنها استدارت عنه حين رأته مقبلا نحو المنضدة، وقالت للطفل وهى تربت على كتفه :

– حان موعد النوم يا «إدجار» .. فهيا إلى الفراش ..

ومضت لا تلوى على شىء، فشعر البارون بالمرارة وخيبة الأمل حين رآها تنصرف على هذه الصورة، فقد كان يتمنى ويتوقع أن تربطه بها أواصر المعرفة فى تلك الليلة، ولكن انصرافها المباغت أيقظه من أحلامه وأمانيه.. بيد أنه استشعر لذة ونشوة فى ذلك الإعراض والتمنع، فقد أخذه على أنه نوع من الدلال الذى تختص به الجميلات من النساء، وألهبت الحيرة والغموض أحاسيس البارون وأشعلت شوقه وزادت لهفته، فقد شعر بأنه وجد ضالته التى يستطيع أن يذهب معها فى مغامرة ..!

الفصل الثانى

مفتاح المغامرة

وحين جاء اليوم التالى، ودلف البارون إلى القاعة، رأى طفل فاتنته يتحدث إلى غلامى المصعد فى صوت واضح، ويطلعهما على صور فى كتاب يحمله، ولم تكن أمه معه، ولعلها كانت حينذاك تضع الرتوش الأخيرة فى زينتها .. فأخذ البارون يتأمل الطفل مليا وعن كثب، فرآه حييا تشوبه حمرة الخجل ويبدو ثائر النفس والأعصاب وبدا له أن نموه الجسمانى غير طبيعى، فقد كان ضئيل الجسم بالنسبة لعمره الذى يناهز الاثنى عشر عاما .. كما كان بطئ الحركة فى بلادة، عيناه غائرتان مكتحلتان، يبدو عليه الفزع كأنه انتزع من أهله ليعيش مع شخص غريب، بينما اكتسى وجهه بمسحة من جمال، وإن كان لم يستكمل معالمه، وقد ظهرت على صفحته آثار فترة الانتقال من الطفولة إلى الرجولة فى أولى مراحلها .. فكان كالعجينة التى لم تتشكل بعد، فليس هناك معالم تميزها، وكانت ملابسه فضفاضة لا تتلاءم مع ضآلة جسمه، وليس لدى الأطفال فى هذه السن ما يدفعه أو يحفزهم إلى التماس التأنق فى مظهرهم ..!

وكانت تصرفات الطفل وتنقله من مكان إلى مكان - دون هدف أو غرض - يثير الرثاء والإشفاق، وكان الجميع يبرمون ويضيقون به ذرعا .. فهو يثير ضجر البواب حين يلح عليه بالأسئلة فيضطر إلى إبعاده عنه، وفى بعض الأحيان يعترض الداخلين والخارجين عند باب الفندق فيبعث الضيق فى نفوسهم .. على أنه كان جليا أنه كان يتوق إلى وجود صديق يؤنسه .. فكانت ميوله الصبيانية للكلام والثرثرة تدفعه لإشباع رغبته إلى التماس ذلك مع الخدم والتقرب منهم، فكانوا يجيبون على استفهاماته وثرثرته كلما سنحت لهم الفرصة، بيد أنهم كانوا ينأون عنه ويقطعون حديثهم معه إذا مر بهم أحد الرجال أو إذا اقتضاهم العمل ذلك .. وراح البارون يرقب فى شغف واهتمام تعلو وجهه ابتسامة ناعمة، أمر ذلك الطفل التعس الذى كان

لا يتورع عن الإقدام على أى شىء بدافع الفضول، فكان الجميع يتهربون منه فى شىء من الكراهية .

وتطلع الطفل إلى البارون فى نظرة فضولية، والتقت نظراتهما لحظة .. وأدهش البارون أن يرى عينيه الصغيرتين السوداوين ترتدان فى هلع وفزع، لا لشىء سوى أنهما شعرتا بأنهما ضبطتا تتطلعان، فأغمض الطفل عينيه على الفور، وراق للبارون ذلك التصرف من جانب الطفل، فراح يهتم بهذا الطفل الذى كان الوجل دون شك مبعث حياته وخجله، وقفزت إلى ذهنه فكرة. فأخذ يتساءل :

– أليس من الممكن أن يجعل من هذا الطفل همزة الوصل بينه وبين فاتنته النافرة ؟ .. إنها فكرة يجمل به أن يحاولها .. وراح ، وهو يتظاهر بأنه يسير عفوا فى غير تعمد، يتعقب الطفل الذى انطلق نحو الباب وأخذ يداعب جوادا ويربت على رأسه ويتحسسها فى عطف جميل وحنان كبير، فنهره الحوذى وأبعده فى فظاظة .. فأخذ الطفل يتنقل من مكان إلى مكان، وقد استبد به الضيق فاكفهرت عيناه وزايله المرح واكتسى وجهه بمسحة من الأسى والكآبة ، وعندئذ تقدم منه البارون، وسأله فى بشاشة اصطنعها :

– هل تطيب لك الإقامة هنا ...؟

فاشتد حياء الطفل ، وعلت وجهه حمرة الخجل، وأخذ يحملق فى البارون بقلق، وقد ألم به خوف شديد .. فضم يديه إلى جانبيه، وحرك رأسه يمنة ويسرة فى ارتباك ظاهر .. فقد كانت هذه أول مرة – كما يلوح – يتحدث إليه فيها شخص لا يعرفه .. وبعد فترة قال الطفل :

– نعم يا سيدى .. شكرا .

وكان هذا غاية ما استطاع النطق به، حتى لقد نطق بالكلمة الأخيرة فى عناء بالغ ..

فقال البارون وهو يضحك لكى يسرى عن الطفل ويطرد عنه الخوف :

- عجيب ما تقول .. فإن هذا المكان يبعث السأم لفتى مثلك .. كيف تقضى ساعات يومك ؟

وكان الفتى لايزال على حاله من الاضطراب الذى أعجزه عن أن يرد عن سؤاله بجواب حاضر .. ولعله لم يصدق أن سيدا كالبارون - ذا شخصية بارزة - وليست له به صلة قرابة أو معرفة ، يتبسط فى التحدث إليه وهو الذى لم يفكر أحد فى الاهتمام به ، بل على العكس كان الجميع يبتعدون عنه وينفرون منه ، وزادت هذه الفكرة من خجله ، ولكنه استشعر الزهو فى الوقت ذاته .. واستجمع شتات أفكاره فى عناء وقال :

- إننى أقضى بعض الوقت فى القراءة ، وأحيانا أتريض سيراً على الأقدام ، وأحيانا أخرى أخرج مع أمى للنزهة فى عربة .. لقد جئت إلى هذا المكان للنقاهة ، إذ كنت مريضا .. وقال الطبيب إن أشعة الشمس تساعدنى على أن أستعيد صحتى ..

وقد نطق الفتى بالكلمات المتعلقة بالنقاهة والمرض وإشارة الطبيب وهو يشعر باعتداد وثقة فى نفسه ، فإن الأطفال يهولون دائما من شأن المرض ، إذ يدركون أن ذلك يدفع أهلهم إلى مضاعفة الاهتمام بهم .. وعلق البارون على كلام الفتى قائلا :

- أنا لا أنكر ما للشمس من فائدة لك ، بيد أنها قد تضفى على جسمك المعرض لها بعض السمرة .. لذلك ينبغى ألا تطيل البقاء تحت وهج أشعتها، وأنه لأحرى بك أن تمارس رياضة الجرى وأن تكون أكثر إقداما ومجازفة لأن ذلك يجدد حيويتك ويضاعف نشاطك ، فإننى أراك أكثر هدوءا مما ينبغى ، وإنك كالقزم إلى جانب ذلك الكتاب الضخم الذى تحمله ، وكم أقدمت على سخافات وأنا فى مثل سنك ، حتى لقد كنت أعود إلى المنزل كل مساء وقد تمزقت ملابسى ، فليس من الحكمة أن يتمسك الأطفال بالهدوء والرزانة .. !

وانفجرت شفتا الفتى بابتسامة عذبة ، وما لبث أن زايله الشعور بالخوف والحياء .. وتمنى أن يرد على حديث البارون ولكنه فكر فى أن ذلك ما يتنافى مع قواعد الأدب ، وأن ذلك قد يعتبر جرأة منه واندفاعا أمام هذا الرجل الوسيم المهذب الرقيق المشاعر الذى لا يعرفه ومع ذلك يحدثه بلهجة زاخرة بالعطف والحنان .. كما لم يسبق له أن تورط فى موقف كهذا .. فلفته الحيرة ، وتضافر شعوره بالسعادة والغبطة مع الخجل الذى يعتريه فأثارا الاضطراب فى نفسه ، وتمنى لو أن حديث الرجل لا ينتهى لأن الإجابة أعوزته ، وأنقذه من هذا المأزق أن كلب الفندق الكبير أقبل وراح يتشمم الرجل والفتى وقد أنس لمداعباتهما ، فقال البارون :

- أتميل إلى الكلاب وتحبها ؟

فأجاب الفتى على الفور :

- أحبها جدا .. إننا نقضى الصيف عند جدتى فى دارها ببلدة «بادن» بالقرب من «فيينا» ، ولديها كلب أليف لطيف يأبى إلا أن يلازمنى طول الوقت ..

فقال البارون ، مبالغة فى التودد إلى الفتى ، وليبعث فى نفسه الغبطة والطمأنينة :

- وكذلك نحن .. ففى ضيعتنا عشرات وعشرات من الكلاب الثمينة النادرة من مختلف الأنواع ، وسأهديك واحداً منها ذا لون ذهبى وأذنين متدليتين جميلتين ، صغير السن .. فهل يروق لك ذلك ؟

وكاد الفتى يطير من الفرحة ، وتورد وجهه ، وطفحت أساريره بالبشر على الفور وكأنه يتحرق شوقا للحصول على الكلب فى التو واللحظة :

- كم يسرنى ذلك .. !

وبعد تفكير قليل ، استشعر بعض الخوف فأردف يقول :

- ولكن ماما تعارض فى ذلك ، وتقول إن الكلاب مصدر للمتاعب والمضايقات ..

وشاعت ابتسامة على وجه البارون حين تدرج الحديث إلى الأم فقال :

- وهل والدتك حادة الطبع هكذا ؟ ..

ففكر الفتى قليلا قبل أن يجيب .. ولعله كان يفكر فيما إذا كان من الصواب أن يتحدث عن أمه أمام شخص غريب ، وأخيرا قال فى شىء من التحفظ :

- أمى ليست حادة الطبع أو قاسية ، فإنها تتساهل معى كثيراً ولا ترفض لى مطلبا .. لأننى مريض وفى دور النقاهة ، وربما سمحت لى باقتناء كلب .

- هل أطلب منها أن تلبى لك هذه الرغبة ؟ ..

فشاعت الفرحة على أسارير الفتى ، وهتف قائلا :

- آه .. أرجو أن تبادر إلى ذلك ، فإنها ستوافق على الفور ، ما فى ذلك ريب .. صفه لى .. هل هو أبيض الأذنين؟ .. وهل فى مقدوره أن يلتقط الكرة ويعود بها إلىّ إذا قذفتها أمامه ؟

- إنه كذلك .. ففى استطاعته أن يفعل كل شىء ..

وأضاء وجه البارون بابتسامة الرضى ، إذ رأى عينى الفتى قد تألقتا ، فأمكنه بذلك أن يطرد الخجل الذى كان مستوليا عليه وانطلق الانفعال الذى كان مكتوما تحت وطأة الخوف .. وإذا بذلك الطفل الذى كان يرزح تحت وطأة الخجل والخوف والاضطراب يتحول إلى فتى يطفح بالبشر والطمأنينة والحيوية ، فراح البارون يقول لنفسه : «ليت الأمر كان كذلك مع أمه .. ليتها تخفى وراء هذا الحذر والتحفظ ، عاطفة ملتهبة كهذه !».

وراح الفتى يمطره بوابل من الأسئلة :

- ما اسم ذلك الكلب ؟..

- لكى ..

- لكى .. إنه اسم جميل ..

وأخذت الفتى نشوة من السرور والفرح فراح يضحك ، وازدهاه هذا الأمر الذى لم يخطر له على بال .. فأمامه شخص يتبسط معه فى الحديث فى حدب وعطف ، بل يوليه اهتماما لم يكن يتوقعه ، وشعر البارون بالزهو لهذا التوفيق ، فقرر أن ينتهز الفرصة ولا يدعها تفلت من يده .. فدعا الفتى إلى نزهة فى صحبته ، فطار الفتى فرحا بهذه الدعوة ؛ إذ كان يعانى وحدة قاسية ويتوق إلى أن يكون له رفيق يؤنسه ، فراح يتحدث فى صراحة وبراءة الأطفال إلى هذا «الصديق» بكل ما يريد أن يعرفه عن طريق الأسئلة التى بدت وكأنها من وحى الساعة .. وبعد فترة قصيرة كان البارون قد ألم بكل صغيرة وكبيرة عن أسرة الفتى ، فعرف أنه وحيد أبيه المحامى فى «فيينا» وأنه ينحدر من سلالة يهودية ومن طبقة موسرة .. كما عرف أن الأم تضيق بالإقامة فى «سيمرنج» وأنها تتوق إلى صحبة محببة .. وانتهز البارون هذه الفرصة ، فسأل الفتى عما إذا كانت علاقة أمه بأبيه على وفاق وصفاء .. وقد أجاب بأنهما ليسا على وئام تام .. !

واستشعر البارون الخجل من نفسه لتحايله لمعرفة هذه الأسرار العائلية من الفتى بمثل هذه البساطة والسهولة .. وليس بعجيب أن الفتى كان يشعر بزهو بالغ لأن حديثه وقع موقع الاهتمام من شخص كبير ، فلم يخف شيئاً عن ذلك الصديق ، وغمره الإعجاب بنفسه لأن الناس يرونه فى صحبة وثيقة مع شاب كبير ، فقد شمله البارون بمزيد من العطف بأن وضع ذراعه على كتف الفتى أثناء نزهتهما ، وهكذا شيئا فشيئا ، نسى الفتى فارق السن بينه وبين البارون ، وأنه ليس سوى فتى صغير .. فانطلق فى الحديث فى براءة الاطفال دون تحفظ ، وكأنه يتحدث إلى ولد صغير مثله .. !

واستشف البارون من حديث الفتى أنه يتمتع بقسط كبير من الذكاء وسرعة البديهة ، بل إن عقله أكبر من سنه ، وتفكيره يرقى إلى مرتبة كبيرة من الرجاحة .. شأنه فى ذلك شأن الفتية الذين تعتريهم أمراض أو علل ، أو الذين يختلطون بمن هم أكبر منهم ، فقد كان مندفعا فى عواطفه أيا كانت هذه العواطف – سواء فى ذلك ما ينطوى منها على حب أو كراهية – فلم يبد عليه اعتدال أو اتزان فى واحدة منها ، فكان إذا تحدث عن شخص ما اندفع فى إظهار الحب له أو كراهيته فى تحمس وعنف ، وتتجلى انفعالاته على حركاته وأسارير وجهه ، فتنبسط حين يتحدث عن عاطفة الود وتتجهم عند التحدث عن البغض والكراهية .. ولعل ذلك من مخلفات المرض الذى كان قد ألم به . وما كانت تصرفاته المتطرفة سوى شعور بفزع مكبوت إزاء عواطفه المضطرمة التى كان يجد عناء كبيرا فى كبحها ..!

وبعد فترة تقل عن الساعة ، كان البارون قد ملك زمام هذا القلب الصغير الملتهب المضطرب .. فما أسهل خداع طفل ساذج وبخاصة إذا كان قد لقى نفورا ممن حوله ، وتحدث البارون عن ماضيه هو أيام كان طفلا ، فلم يسع الفتى إلا أن يعتبره صديقا ورفيقا ، وغمرته السعادة لعثوره فى هذا المكان النائى على صديق عطوف ودود ، أنساه من خلفهم من رفاق صغار فى «فيينا» بأصواتهم الطفلية وثرثرتهم الفارغة ، حتى لقد انطمست من ذاكرته صورهم وذكراهم ، فاندفع بكليته وبمشاعره وعواطفه نحو ذلك الصديق الكبير .. وأفعم بالزهو والإعجاب بنفسه عندما دعاه هذا الصديق لحظة افتراقهما إلى ملاقاته فى صباح اليوم التالى ، ثم وهو يرسل إليه التحية من بعيد كما يفعل الإخوة والأصدقاء الحميمون عند الوداع .. وقد كانت هذه اللحظة من أمتع وأسعد اللحظات عند «إدجار» ..!

وابتسم البارون ابتسامة ذات مغزى ، وهو يرمق الفتى الذى راح يعدو .. فقد عثر على مفتاح المغامرة وهمزة الوصل التى ينشدها ، وكان

على يقين من أن الفتى سيقص كل كلمة تبادلاها على أمه ، وبخاصة ما يتعلق بتلك الأم وإطرائه على لباقتها وظرفها ، وقوى الأمل فى نفسه بأن الفتى سيوثق الصلة بين أمه وصديقه ، وبذلك يكون قد وفر على نفسه عناء السعى وراءها .. وراء فاتنته الحسناء ، ومن حقه أن يطمئن الآن ، وأن ينعم بأعذب الأحلام وأن يتأمل جمال الطبيعة ، وهو يعلم سلفا أن الفتى سيكون «القنطرة» التى ستوصله إلى قلب الحسناء .. !

الفصل الثالث

تآلف وانسجام

ثبت للبارون ، بعد ساعة واحدة ، أن الخطة التى أتقن رسمها سريعة الأثر ، فقد حالفها التوفيق جملة وتفصيلا .. وعندما حان وقت العشاء ، تأخر فى دخول قاعة الطعام عامدا ، وما أن لمحه الفتى حتى قفز عن مقعده وحياه فى حماس وحرارة وقد طفحت أساريره بالبشر وتألقت عيناه .. وجذب ذراع أمه ، وتحدث إليها وهو يشير بيده إلى البارون حتى لاحظ الموجودون ذلك .. فتخضب وجه السيدة خجلا واعتراها ارتباك ظاهر ، فأنبت الطفل على ذلك الطيش ، ومع ذلك لم تستطع مقاومة الفضول ، فتطلعت إلى الناحية التى أشار إليها الفتى ، ترضية له ، فكانت هذه فرصة البارون الذهبية .. فحنى رأسه للسيدة فى احترام بالغ ، وهكذا فى سهولة وسرعة وبساطة اتصل خيط التعارف بينهما ، إذ اضطرت هى إلى رد تحيته فى أدب ووقار ، وإن كانت قد حرصت بعد ذلك أن تميل برأسها ووجهها نحو صحاف الطعام ، وتجنبت فى حرص وحذر الالتفات ناحية البارون ، أما الفتى فكان على العكس من ذلك ، فقد تعلقت عيناه بصديقه لا تحيدان عنه ، بل لقد هم أن يخاطبه رغم بعدهما عن بعضهما ، فحنقت أمه لهذا التصرف المعيب وأنبت الطفل فى عنف ، وعقب العشاء مباشرة طلبت إلى الفتى أن يأوى إلى فراشه ، فلاح الأسى على وجهه وتبادل معها حديثا هامسا ، سمحت له بعده أن يذهب إلى تحية صديقه .. وإذ وصل إلى البارون أخذ يلاطفه لبضع لحظات ، فعاد الطفل وعيناه تتألقان.

وبغتة تحول البارون ببصره نحو مائدة الحسناء فى حركة رائعة ، وفى لباقة هنأها - وقد اعتراها الارتباك - بذلك الابن الذى يتمتع بقسط كبير من الذكاء وسرعة البديهة ، ذاكرا بالغبطة والإطراء الوقت الممتع الذى قضاه فى صحبته فى الصباح . وقد تورد وجه الفتى غبطة وزهوا وهو يستمع ، وأراد البارون أن يصل حبل الحديث ، فراح يطرق موضوع صحة الطفل مستفسرا عنها بعديد من الاسئلة ، مما اضطر الأم أن تجيب عنها ..

وهكذا اندمجا فى حديث طويل ، كان الفتى ينصت إليه فى غبطة وإن لم يحد عن قواعد الأدب والاحترام ..

وعندما قدم البارون نفسه إلى الحسناء ، لاح له أن فخامة لقبه ورنينه كان لهما صدى عميق الأثر فى نفسها .. فقد لاحظ أنها أخذت تعامله فى لباقة وتقدير رغم تحفظها ، وبعد فترة قصيرة استأذنت فى الانصراف مراعاة لصحة الطفل ، بيد أن «ادجار» عارض فى إلحاح ذاكرا لها أنه لا يشعر بأى تعب .. حتى أن باستطاعته أن يظل مستيقظا طول الليل حاظيا بتلك الصحبة ، ولكن أمه كانت قد بسطت يدها للبارون مودعة ، فقبلها فى احترام بالغ .. !

وتنازعت نفس الفتى فى تلك الليلة أحاسيس مضطربة من السعادة واليأس ، وعصفت بأفكاره ، فلم ينعم هادئا هنئا فقد جد فى حياته أمر لا عهد له به .. إذ بدأ يشعر أنه عامل مهم فى حياة أشخاص أكبر منه ، فجسم ذلك له من شأن نفسه ، واستشعر شيئا من الاعتداد بالنفس ، وكان محروما من الصداقة ، وقد نشأ فى عزلة وتحالفت عليه العلل والأمراض .. كما كان مفتقرا إلى العطف والحنان اللذين ينتظرهما من أبويه ، ولكن هذين الأبوين كانا فى شغل عنه ونادرا ما كان يحفلان به .. وقد درج الناس على الاستهانة بعاطفة الحب وأثرها وقوتها ، فينظرون إلى الحب من ناحية الموضوع ولا يهتمون بالحالة النفسية التى تسبقه ، والتى تكون عادة فى تلك الحقبة الموحشة التى تتخلف عن الوحدة والعزلة وخيبة الأمل والتى تمتد نتائجها إلى ما يصيب القلب من أحداث جسام .. فقد زخر الفتى بفيض من الأحاسيس الكامنة المعطلة والمتحفزة فى الوقت نفسه للانطلاق، فلما ظهر أول شخص على مسرح حياته وشعر بأنه جدير بها ، انطلقت تلك الأحاسيس دافقة ..!

وتنازع الفتى فى مخدعه المظلم شعوران متباينان : نشوة من السعادة وموجة من الحيرة .. ود أن يضحك ملء فمه ما وسعه الضحك ، واستشعر فى الوقت نفسه رغبة ملحة فى البكاء .. إنه أحب البارون كما لم يحب أحدا من قبل .. حتى أباه وأمه ، وتركزت جميع عواطفه وأحاسيسه ومشاعره فى شخص هذا الرجل الذى لم يكن يعرفه أو يعرف اسمه حتى وقت قريب ، بيد أنه رغم ذلك كان على جانب من الفطنة والذكاء جعله لا يتهيب الغامض والمجهول ، ويهيب به أن يعتز بهذه الصداقة ، ولم يكن يثيره سوى شعوره بتفاهته وبالفارق الكبير بينه وبين صديقه ، حتى لقد راح يسائل نفسه فى حيرة وقلق :

– هل أنا جدير بصداقته وأنا فتى لم أتجاوز اثنى عشر عاما من عمرى، لم أبدأ بعد مناهل العلم ، أذهب إلى فراش النوم مبكرا شأن جميع الأطفال .. ؟ يا لمرارتى .. ! ماذا يمكن أن أكون فى نظره ؟ .. وماذا أستطيع لكى يفيد منى .. ؟!

وحز فى نفسه ذلك القصور فى التعبير عن مدى اعتزازه وتعلقه بصديقه، فقد كان يعبر عن ذلك فيما مضى باقتسام ما يملكه من طوابع البريد وأقلام الألوان إذا أسعده الحظ بصديق جديد ، وكانت تلك الهدايا غاية ما يملكه الطفل ويعتز به .. ولكنها تبدو الآن فى نظره تافهة القيمة تثير السخرية ، وكيف تطاوعه نفسه أن يقدم مثل هذه الاشياء إلى صديقه الكبير ؟ .. واستبدت به الحيرة بصدد الطريقة التى يعبر له بها عن مشاعر حبه له وأخذ الألم يتسلل إلى نفسه لشعوره بأنه لايزال فتى صغيراً لم تكتمل رجولته ، واشتد حنقه ، وتمنى لو أن معجزة واتته فرأى نفسه فى صباح اليوم التالى، ذلك الصباح الذى دعاه فيه صديقه إلى لقائه ، وقد شب عن طوقه وأضحى قويا مكتمل الرجولة .. كثيراً ما راودته هذه الأحلام فى منامه .. !

وأخذت هذه الهواجس تتفاعل مع أحلام الفتى التى تتميز بها فترة النضج هذه ، فأخلد إلى النوم وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ، ولما كان موعد صباح الغد قد أضحى شاغله الشاغل ، وقد فكر فيه كثيرا ، وينتظره بصبر نافد .. فكان من نتيجة ذلك أن استيقظ قبل السابعة من صباح اليوم التالى حتى لا يتأخر عن موعده ، وارتدى ملابسه فى خفة وعلى عجل ، ثم ذهب ليعانق والدته ويقبلها ، فدهشت للهفته ونشاطه وسرعته .. وقبل أن تستفسر منه عن سر هذا النشاط كان قد هرول نحو السلم ، وظل يروح ويغدو فى صبر نافد مدة ساعتين ، وقد نسى تماما أو لعله أراد أن ينسى طعامه جاعلا نصب عينيه أن يلقى صديقه فى الموعد وأن يجنبه عناء الانتظار .. !

وفي منتصف الساعة العاشرة ، أهلت طلعة البارون وأقبل يتهادى على مهل لا يكترث بما حوله ، وكان يعلق الآمال فى خياله على ذلك الموعد ويتمناه من وقت طويل ، وابتسم اذ رأى الفتى يعدو نحوه فى لهفة بالغة ، ثم رضى عن طيب خاطر أن يفى بوعده ، فأمسك بذراع الفتى وراح يتمشى معه ، وإن أبدى فى ترفق عدم الرغبة فى الذهاب إلى النزهة على الفور .. وبدا كأنه ينتظر أمرا ما ، فقد نمت عن ذلك نظراته التى راحت تتجه نحو الباب ترقبه فى قلق ، وبغتة اندفع بجسمه إلى الأمام ، وانحنى محييا الحسناء التى كانت قد أقبلت ، فردت التحية وسارت نحو الصديقين .. وابتسمت ابتسامة غبطة ورضا حين علمت بأمر النزهة التى حرص الفتى على اخفاء أمرها عنها ، وكأنها سر من الأسرار لا يجوز أن يبوح به .. وبعد شىء من الدلال والتردد ، قبلت دعوة البارون لمشاركتهما فيها .. !

وكان حريا بالفتى أن ينشرح صدره لمصاحبة أمه لهما فى نزهتمها .. ومن عجب أن ما حدث كان على النقيض من ذلك ، فقد تجهم وجه الفتى وعبس وجز على شفتيه ، وأضجره أن تحضر أمه فى تلك اللحظة .. لقد

كانت النزهة له ومعه فقط ، وإنه وإن كان قد قام بمهمة همزة الوصل ووصل المعرفة بين أمه وبين صديقه البارون ، فلم يكن ذلك ألا على سبيل المجاملة لها دون أن يشركها معه في صداقته ، بل كان يريد أن يستأثر وحده بتلك الصداقة ، وأثار ذلك فى نفسه إحساسا بالغيرة ، وبخاصة حين لاحظ عبارات اللطف والمجاملة التى اختص بها البارون والدته .. وساروا - ثلاثتهم - فى طريقهم إلى النزهة ، وإذ رأى الفتى ما يبديه البارون من إقبال واهتمام وتلطف نحو أمه ، شعر باعتداد فى نفسه وبأنه شخص له نفوذه وقيمته ، وبخاصة وقد كان الفتى موضوع حديث الاثنين معظم الوقت، وكانت الأم تتحدث فى شيء من اللف والدوران عن شحوب الفتى وإرهاف حسه وتوتر أعصابه ، بينما راح البارون يبتسم وهو ينفى عن الفتى ما تذكره عنه أمه ، وأخذ يطريه ويبالغ فى الثناء على «صديقه» ، كما كان يدعوه ، واغتبط الفتى لذلك أشد الاغتباط إذ أصبحت له مزايا ومكانة وحقوق لم تكن له من قبل فى طفولته .. وسمح له أن يتكلم حين يشاء ، بعد أن كان الصمت مفروضا عليه ، وصار فى استطاعته أن يعبر عن رغباته التى كانت تقابل قبل ذلك بالزجر والتأنيب .. فليس بعجيب أن يذكى ذلك فى نفسه الشعور بأنه أضحى كبيرا ، وأنه تعدى طور الطفولة التى صارت فى نظره شيئا ولى ومضى ، وأنه تخلص منها إلى غير رجعة ..!

ودعت الحسناء البارون إلى الغداء ، فلبى الدعوة شاكرا .. وازداد تبسطها وتلطفها حين جلس إلى مائدتها ، وزالت الكلفة بينهما ، ولم تعد صلتهما مجرد الوجود متجاورين على الموائد ، بل اندمجا وتوثقت أواصر المعرفة بينهما ، فأصبحا يجلسان وجها لوجه ، وتطور التعارف وتحول إلى صداقة ، فاكتمل عقد الثالوث ، وراحت أحاديث الحسناء والبارون والفتى تختلط وتمتزج فى تآلف وانسجام .. !

الفصل الرابع

فكرة شيطانية

أوحت لهفة البارون له أن الوقت قد حان للقطاف ، فما كان يرضيه أن يقف على عتبة زوال الكلفة بينه وبينها وصداقته لابنها .. ولو أن فى تبادل الحديث بينهم متعة شائقة له ، ولكن ذلك لم يكن غاية بغيته ، وكان يوقن أن أمور الحياة إذا لابستها الحيل ومناورات الغزل فإنها لا تؤتى الثمرة المرجوة فى أسرع وقت ، بل تؤخر الاحاسيس بين الرجل والمرأة .. وبخاصة إذا كان الحديث فى غير حرارة واقتحام الميدان باردا غير ملتهب ، لذلك آثر أن يضيق رقعة الاحاديث التى يتناولونها حتى لا تغيب عنها حقيقة ما يرمى إليه .

ومال إلى الاعتقاد بأن لهفته على بلوغ نهاية الشوط ستؤتى ثمرها عاجلا، وكانت هى فى تلك الفترة الحرجة من مراحل حياتها يساورها القلق والتفكير والندم ، لأنها ظلت على ولائها وفية لزوج لم تشعر نحوه بعاطفة حب ، وفى هذه الفترة بالذات يجنح جمالها إلى الغروب ، فتتناوشها الهواجس بأنه ليس ثمة أمامها سوى فرصة واحدة وأخيرة ، هى فترة الصراع بين الزوجة الأمينة الوفية التى تعتز بشرفها وكرامتها وبين المرأة العابثة المستهترة ، بين الأمومة بمثلها العليا وبين الأنوثة بنزواتها الطاغية .. تجىء هذه الفترة فى الوقت الذى تكون فيه المرأة قد قطعت شوطاً كبيراً فى حياة الاستقرار ، فإذا شعورها بأنوثتها وما يلازم هذه الأنوثة من رغبة فى المتعة وقد استأثرا بكل تفكيرها .. وهنا تشوب البلبلة أفكارها ، وتتناوشها الهواجس ، وتتأرجح كفة الإرادة بين الشهوة وبين الشرف والرضا ، وهذه أحسم اللحظات فى حياة المرأة لأنها تضطر إلى سلوك أحد الطريقين .. فإما أن تعيش زوجة وأماً ، وإما أن تعيش «أنثى» .. !

وكان البارون ممن خبروا فنون النساء ، وممن نفذوا إلى أغوار أعماقهن، فعرف ما يعتمل فى دخائلهن .. فبدا له هذا التردد الذى لاح على الحسناء بين الأمرين : إما التمسك بحياتها الراهنة الفاضلة ، أو التضحية ،

ولاحظ أنها كانت تتعمد دائما تجنب الحديث عن زوجها ، الذى يرجح أن أعماله ومشاغله خارج نطاق المنزل كانت تستغرق كل وقته .. كما استشف كذلك أنها لا تستشعر فى أعماقها حبا أو تعلقا بابنها ، وكانت عينا الطفل السوداوان تنمان عن ضيق كامن ، كان مبعث أسى يكدر صفو أمه .. وحزم البارون أمره وقرر أن يبدأ المغامرة على الفور بطريقة معسولة فيها كثير من الإغراء ، على أن يتظاهر بالاناة وعدم التسرع .. فتظاهر بعدم الاكتراث بهذه الصداقة بينه وبينها ، لأنه أراد أن يمسك بزمام الموقف ، وأن يكون هو المحور الذى تسعى هى إليه لا أن يكون هو الساعى .. يرمى من وراء ذلك إلى سحق كبريائها وإذلالها ، بإبراز الفارق الكبير بين مركزه الاجتماعى ولقبه المرموق وبين مركزها العادى ، فاتخذ من لقبه الرفيع وارستقراطيته العالية سلاحا يمكنه من الوصول إلى هذا الجسم البديع المشوق المتفتح كزهرة الزنبق ، ثم قهر ذلك الجسم وغزوه بإظهار كبريائه مشفوعة بالفتور فى الاهتمام بها .. !

ولم تلبث هذه الفكرة الشيطانية أن طغت عليه ، فحزم أمره وفرض على نفسه التمسك بأهداب التحوط والحذر ، ولم يبرح غرفته بعد الغداء ، واستشعر عذوبة فى أن هناك من يفتقده وينتظره .. بيد أن هذا الاحتجاب المصطنع لم يكن موضع اهتمام لدى الحسناء ، ولم يثر فى نفسها الرغبة فى رؤيته أو لقائه ، لأنه لم يكن قد شغل ذهنها حتى تفطن أو تأبه لوجوده أو عدم وجوده .. ولكن هذا الاحتجاب كان قاسيا على الفتى المسكين الذى أحس بالعزلة والفراغ ، فظل الساعات ينتظر الصديق فى صبر عجيب وفى وفاء الاطفال ، ودار بخلده أنه إذا انصرف أو شغل بشىء آخر فإن ذلك يعد خرقا لأصول الصداقة .. فأخذ يقتل الوقت بالسير فى تثاقل دون غرض وعلى غير هدى فى ردهات الفندق ، وكان ضجره يزداد بمضى الوقت .. كما راح القلق يصور له شتى الاحتمالات ، فجال بخاطره أن حادثا ربما

أصاب الصديق ، أو أن هفوة بدرت منه عفوا فأغضبته .. واستبد به الأسى حتى كاد ينفجر فى البكاء لنفاد صبره .. !

وأقبل المساء ، وحان موعد العشاء ، وقدم البارون لتناوله فاستقبل استقبالا بالغ الروعة ، فقد راح الفتى يعدو نحوه دون أن يأبه بأمه التى نهرته فى قسوة ، ودون أن يكترث لنظرات الجالسين ودهشتهم ، وارتمى فى أحضان صديقه وطوقه بذراعيه الصغيرتين فى شوق وحرارة وهو يصيح منفعلاً :

- أين أنت يا صديقى ؟ .. وأين كنت ؟ .. لقد طرقنا كل مكان بحثا عنك؟!

وتضرج وجه أمه خجلا لأن الفتى أوحى بكلامه أنها كانت هى الأخرى تبحث عنه ، فضايقها ذلك وقالت فى غلظة :

- أجلس يا «ادجار» والتزم التعقل ..

وكانت فرنسيتها ركيكة ، حتى لقد كان يعتريها الارتباك حين كانت تضطر إلى التحدث عن تفصيلات دقيقة .. واستكان الفتى ، ولكنه راح يمطر البارون بأسئلته ، فعادت الأم تقول له فى شىء من العتاب :

- أعلم أن للسيد أن يفعل ما يشاء وما يحلو له .. وربما لم ترق له صحبتنا أو أنها ضايقته ..!

فشعر البارون بالغبطة فقد أفلحت حيلته ، إذ كشفت الحسناء فى غير تحفظ أو حذر عما يعتمل فى صدرها ، وأقحمت نفسها فى الأمر بهذا العتاب الذى كان فى الواقع صورة من صور المجاملة له .. فتنبهت غريزة الرغبة فى الاستيلاء الكامنة فى أعماقه ، وانتشى لذلك التوفيق السريع للخطة التى رسمها ، وأيقن أن الصيد أصبح قاب قوسين أو أدنى من متناول يده ، فلمعت عيناه وشعر بالدم يجرى ساخنا فى عروقه ، وراحت الكلمات تترى دافقة من شفتيه دون أن يدرى كيف واتته هذه القدرة على

الكلام .. شأنه فى ذلك شأن من يعانى من الصبابة والوجد ، يرى أول بارقة تدل على أنه راق فى عينى امرأة ، فتلتهب أحاسيسه وتتأرجح مشاعره ، فيضفى عليه ذلك قدرة خارقة ولباقة نادرة .. وكان فنانا فى رواية القصص الزاخرة التشويق والإغراء والتى تثير كوامن الاحاسيس ، فراح يروى فى ذلك المساء عددا منها عن رحلات قام بها للصيد فى بلاد الهند بدعوة من صديق إنجليزى عظيم المكانة ، وأخذ - خلال سرد قصصه - يحتسى فى نهم كئوس الشمبانيا التى راح يطلبها تباعا احتفاء بتلك الصداقة التى توثقت أواصرها ، مما جعله يتجاوز فى حديثه كل ما كان يتوقع من متعة ، وقد كان موفقا ولبقا فى اختيار موضوع حديثه لأنه واسع المجال والخيال وفيه الكثير من أسباب الإثارة للمرأة .. بيد أن الفتى كان أشد من أمه انتباها وانبهارا بهذه القصص ، حتى اشاعت الغبطة فى نفسه فتجلت فى بريق عينيه ، ونسى أمر الطعام والشراب ، وراح يحملق فى وجه البارون وكأنه يلتقط الكلمات ويتلقفها من شفتيه .. ولم يدر بخلده أن يرى يوما رجلا عاش هذه الأحداث التى لا يعلم عنها شيئا إلا بين صفحات الكتب ، وكان يعتبرها ضربا من الخيال ، كصيد الأسود والنمور ومغامرات الهنود الحمر وسحرهم وطلاسمهم ومركبات الحرب والدمار عندهم ، تلك المركبات الرهيبة التى تفنى آلافا من البشر فى لحظة ، لم يكن يصدق أن لمثل هؤلاء الناس وجودا فى عالم الحقيقة ، بل ما كان يعتقد فى وجود هذه البلاد فى العالم ، فقد كان يظنها من القصص الخرافية أو الخيالية .. ولهذا جذبت انتباهه وأثارت فيه اهتماماً شديداً ، فظل طول الوقت يحدق فى وجه صديقه لا يحول عينيه عنه ، بل تابعه بإدراكه وكافة مشاعره ، وعجب كيف يقتل صديقه هذا أسداً شرسا أو نمرا مفترسا ، وانعقد لسانه فلم يجرؤ على توجيه سؤال ، وحين حاول ذلك انبعث صوته مبحوحاً كالمبهور ، وراح يرسم فى خياله كل مشهد فى تلك القصص السحرية ، فكان يتمثل البارون وقد

اعتلى ظهر فيل ضخم داخل هودج زاهى الالوان يحوطه هنود من ذوى الوجوه الحمر ، علت رءوسهم عمائم ضخمة ، ويتمثل النمر وقد كشر عن أنيابه فبدت تلمع فى بريق رهيب وهو يقفز من الغابة ويندفع نحو الفيل منشبا مخالبه فى خرطومه .. وبعد ذلك راح البارون يقص أحداثا أشد اثارة وأدعى إلى التشويق والاهتمام ، فشرح الحيل التى يقتنصون الفيلة بها ، بأن يستدرجوا صغارها العابثة فى مرح إلى حفر يعدونها خصيصا لذلك مستعينين فى الإيقاع بها بحيوانات كبيرة مدربة .. وهكذا راحت قصص البارون تترى الواحدة تلو الأخرى ، وكل واحدة منها أشد إثارة وأكثر تشويقا من سابقتها .. حتى زاغت عينا الفتى وتألقتا فى انفعال ، وهو يتخيل ويتمثل الرمح يلمع ثم يغوص فى الفريسة فيصرعها .. !

الفصل الخامس

طبيعة الأنثى

انتهى البارون من سرد قصصه ، وكانت الساعة حينئذ قد بلغت التاسعة مساء ، فقالت الأم لابنها :

– حان موعد النوم .. فهيا ..

فاكفهر وجه الفتى لهذا الأمر الذى أصدرته إليه أمه ، والذى نقله من عالم الخيال الذى كان سابحا فيه . ومن عادة الصغار أن يروا فى إصدار مثل هذه الأوامر لهم ، وبخاصة أمام الناس ، تصغيراً من شأنهم وبأنهم ليسوا ذوى أهلية للتمتع بالحرية ، وقد استثار الفتى أن أمه تمنيه بخيبة أمل شديدة بحرمانه من متابعة القصص ومعرفة خاتمتها ، تلك القصص التى شغفته واستحوذت على لبه ، فتوسل إليها قائلا :

– دعينى يا أماه أستمع لهذه القصة أيضا ، هذه القصة فقط ، التى تدور حوادثها حول الفيلة الضخمة ..

وهم بأن يلحف فى الرجاء والتوسل ، ولكنه آثر أن يحتفظ بشخصيته وعزته ككائن ، فلم يلح على أمه أكثر من ذلك .. بيد أنها أبدت نحوه فى ذلك المساء بالذات قسوة فى المعاملة لم يعهدها منها من قبل ، اذ رآها تزجره بحدة وهى تقول له :

– لا تلجئنى إلى تكرار تنبيهك .. قلت لا ، فقد تأخر الوقت ، كن مطيعا وهيا إلى فراشك .. وأعدك بأن أقص عليك ما سأسمعه من القصص ..

ولاح التردد على الفتى ، فقد تعود أن تصحبه أمه إلى الفراش ، وهذه أول مرة تتصرف معه هكذا ، ولم يشأ أن يحط من قدر نفسه أمام صديقه إن هو عاود التوسل ، فأراد أن يبرر رحيله بتعليل يحفظ عليه كرامته ، فقال لأمه :

– أحقا ستقصين على كل صغيرة وكبيرة يا أماه ؟ .. جميع القصص ؟

– طبعا يا بنى .. بعد أن أسمعها ..

– فى ليلتنا هذه ؟ ..

– ليكن ذلك .. والآن هيا إلى فراشك .. !

وفى هذه المرة ، عندما هم الفتى بالرحيل ، مد يده ليحيى البارون ويحيى أمه ، وعجب من نفسه أن وجهه لم يتضرج ، بيد أنه أدى التحية وهو يكتم تنهداته وزفراته لكيلا يفلت زمام مشاعره فينخرط فى البكاء ، وداعب البارون الفتى ملاطفا ، فانفرجت شفتاه الصغيرتان بابتسامة مغتصبة رغم الحنق الذى يعتمل فى نفسه ، وما لبث أن أسرع الخطى نحو الباب ... ولو لم يبادر إلى ذلك لشاهد الاثنان عبرات الفتى تجرى على وجنتيه !

وظلت الحسناء فى قاعة الطعام فترة من الوقت مع البارون عقب انصراف الفتى ، وتوقف الرجل عن سرد أقاصيص النمور والفيلة والهنود والصيد ، وتبلبل حديثهما وشابه بعض السأم والاضطراب .. وبعد قليل انتقلا إلى الردهة ، وانتحيا أحد الأركان ، فجلسا فيه بعيداً عن أعين الرقباء، ولم يلبث البارون أن استعاد عزمه فنشطت حيويته ، أما هى فقد بدت منتشية من تأثير عديد كئوس الشمبانيا التى رشفتها ، فكان من نتيجة ذلك أن الحديث بينهما جنح إلى ناحية حساسة .. !

ولم يكن البارون مفرطا فى الوسامة ، ولكنه كان يتفجر حيوية وشبابا ، مكتمل الرجولة ، وقد أضفى عليه شعره المصفف ووجهه المتلائم التقاطيع مظهرا يدعو إلى الإعجاب به .. فراق للحسناء ما كان يبديه من حركات منطلقة مرحة ، فشعرت بالغبطة لوجودها بقربه ، ولم تعد تخشى نظرات عينيه .. ثم راح حديث البارون يتدرج شيئا فشيئا فى جرأة جعلتها تضطرب ، وأحست أن كلماته وكأنها أيد تتحسس جسمها .. واستيقظت أحاسيسها فى فورة جامحة دفعت الدم إلى وجنتيها ، بيد أنها ملكت زمام عواطفها وراحت تضحك وكأن شيئا ما لا يعتمل فى داخلها .. تضحك فى مرح ، دون أن تدرى أنها كانت تترجم بذلك المرح عن انعطافها إليه بصورة طفلية ، وحاولت فى بعض الأحيان أن تظهر عدم الرغبة فى سماع بعض

أحاديثه المكشوفة التى تتجاوز حد الحشمة بإشارة من يدها أو إيماءة من عينها ، ولكن طبيعة الأنثى كانت تغلبها على أمرها ، فتنم عن الرغبة فى المزيد .. ! وزالت الكلفة بينهما إلى أقصى مدى ، فراحت تسايره فى التودد وترد بوعود مبهمة غامضة ، بينما كانت عيناها تحملقان فيه .. وما هى إلا لحظات حتى طرحت الانثى سلاحها ورفعت الراية البيضاء إذ بدأت تستسلم بالحديث وبالحركات ، وسمحت لنفسها بالدنو منه والالتصاق به فتلامس جسماهما وسرت الحرارة فيهما وكأنها تيار كهربائى ، وراحت أنفاسه تلفح أذنيها ومنكبيها بحديثه السحرى .. وكشأن العاشقين المدلهين لم يحسا بمرور الوقت ، فقد استغرقتهما النشوة ولم يوقظهما منها إلا انطفاء بعض مصابيح الردهة ، فعرفا أن الليل قد انتصف .. !

ونهضت الحسناء عن مقعدها ، وقد أذهلها ما تورطت فيه ، واندفاعها إليه بمثل هذه السرعة والسهولة .. صحيح أن هذا اللون من المغامرات لم يكن غريبا عنها أو جديدا عليها ، ولكنها أدركت بعقلها الباطن الذى أخذ يهيب بها ويوحى إليها ، أنها فى هذه المغامرة قد اشتطت .. وأدركت فى جزع وذعر أنها أفلتت زمام نفسها ، وأن إحساسا جديدا عليها أخذ يسرى فى وجدانها وكيانها ، وينذرها بأنها مقبلة على أمر جلل وصراع بين العقل والقلب .. وأحست بما يشبه الدوار وكأن دوامة من الوجل والثمل ولهيب الأنفاس تتقاذفها ، فاستولى عليها هلع غامض ، لا تدرى كنهه ومبعثه ، لقد عاشت لحظات كهذه من قبل ، ولكنها لم تكن بهذه الحرارة وهذا التفاعل ..!

وهمت بالانصراف ومغادرة البارون ، فقالت له :

– أتمنى لك نوما هادئا .. طابت ليلتك .. وإلى صباح الغد .. !

ولم تكن ترغب فى الهرب منه هو .. بل من هذه اللحظة الحاسمة ، ومن مغبة ذلك الاضطراب الشديد الذى لفها وسرى فى كيانها .. ولكن البارون

أمسك بيدها التى مدتها إليه فى حنان واستبقاها فى لباقة ورقة ، ثم راح يقبلها .. لا مرة واحدة كما يجرى العرف والتقاليد ، بل تعددت القبلات توزعها شفتاه المختلجتان على أناملها ورسغها ، وتولتها رعشة وانتفاضة حين أحست بشاربه عل ظهر يدها ، واستشعرت دفئا لا عهد لها به ، فخفق قلبها وتتابعت ضرباته وأحست كأن رأسها يشتعل .. وغمرها شعور بألم مبهم ، لا تدرى مبعثه يعتصرها ، فجذبت يدها فجأة من بين يديه .. !

وتوسل إليها البارون أن تمنحه قليلا من عطفها قائلا :

- ألا تمكثين معى لحظات أخرى .. ؟

ولكنها حسمت الموقف وبادرت بالابتعاد على الفور ، فافصحت بذلك فى وضوح عن أحاسيسها المضطرمة .. لأنها كانت قد وصلت إلى الدرجة التى تسبق الاستسلام المطلق ، وأضحت كريشة فى مهب الريح ، وما عليه لكى ينالها إلا أن يمر عليها بلمسة من بنانه تسرى فيها مسرى الكهرباء .. وأدركت حقيقة ما يعتمل فى داخلها ، فقد ألهبها الخوف من أن يضمها الرجل ويعتصرها بين ذراعيه .. وقد كانت تتمنى ذلك حقا ، فقد أحست بالحسرة وخذلان النفس لأنه لم يحتويها بين ذراعيه ، ثم راح يمطرها بالقبلات ويتشبث بالعناق .. لقد كان من الجائز ، بل من المحتمل جدا، أن يحدث عندئذ ما تتوق إليه نفسها ، وأن لم تدرك ذلك منذ أمد طويل ، نعم كان من الممكن أن تعيش هذه المغامرة التى كانت تهفو إليها بجميع حواسها وجوارحها ... المغامرة التى تلهث فيها الأنفاس وتمتزج ببعضها بعضا فى حرارة ونشوة ، والتى جاهدت وناضلت كى تصدها وتكبح نفسها عن الوقوع فيها حتى الآن .. المغامرة العظمى التى تحطم إلى الأبد ، لا مجرد النزوات الطارئة ونوازع الانفعال الوقتية .. ! بيد أن البارون آثر أن يتمسك بعلياء نفسه تبعا للخطة التى رسمها وأحكم تدبيرها ، فلم يشأ أن

ينقضها رغم لهفته ، ولم يشأ أن يتهافت وينصاع ، فقد وثق بأن الصيد أصبح في متناول يده ، وإن هي إلا ساعات حتى يقضي لبانته وينال مشتهاه .. فلماذا يتسرع ؟ ولماذا ينتهز فرصة ضعفها واستسلامها ويمثل دور القناصة ، مستعينا بنشوة الخمر ؟ .. لقد آثر أن يتمهل في الصيد لأنه يستعذب النضال الذي يؤتي ثمره ويعقبه الاستسلام عن رغبة وطواعية .. لقد أيقن تماما أن سحره قد سرى في كيانها وحطم مقاومتها .. !

وعندما بلغت في صعودها نهاية السلم ، توقفت قليلا ، وأطبقت بيدها على قلبها اللاهث كأنها تريد أن تمنعه من الانطلاق من صدرها ، لأن أعصابها كانت قد انهارت .. ثم تنهدت في ارتياح بعض الشيء لأنها نجت بنفسها من كارثة محققة ، ولكن زفرتها نمت في الوقت نفسه عن إحساس بالندم .. بيد أن الكارثة التي تتهددها ، والندم الذي تستشعره ، كانا يساورانها في صورة باهتة وغموض مبهم ، وأحست بما يشبه الدوار .. فراحت تتحسس طريقها إلى الغرفة مغمضة العينين نصف إغماض ، بينما راحت تترنح تحت تأثير ما ألم بها .. ولم تستعد رشدها وتستجمع شتات أفكارها وتتمالك أنفاسها إلا حين بلغت باب الغرفة ودلفت إليها ، فشعرت بالأمان والطمأنينة .. !

وعندما فتحت الباب في رفق تراجعت مذعورة ، فقد لمحت شيئا ما يتحرك في ظلام الغرفة .. وتوترت أعصابها ، وهمت بأن تصيح مستغيثة ، ولكنها سمعت صوتا أثقله النعاس ، خافتا واهنا كصاحبه يقول :

- وأخيرا عدت يا أماه .. !

وعجبت لماذا جاء إلى فراشها ، فبادرته بالسؤال :

- ماذا أتى بك إلى هنا ؟ .. وماذا تصنع بربك ؟

ثم أسرعت نحو الفراش الذى كان الفتى يغوص بين طياته . وأيقظه قدومها فنهض ، وجال بذهن الأم أنه مريض ، وأنه جاء إلى مخدعها التماسا لدواء.. ولكن الفتى قال فى عتب ناعم والنعاس يغالبه :

- انتظرتك طويلا يا أماه .. حتى غلبنى النوم .. !

- ولماذا ظللت مستيقظا وانتظرتنى ؟

- لتقصى على قصة الفيلة ... !

- أية فيلة يا بنى .. ؟

وأدركت لتوها ماذا يعنى ، فقد تذكرت أنها وعدته بأن تقص عليه حينما تعود ما ستسمعه من قصص «الصيد والمغامرات» ، فظل الفتى الساذج على هذا الأمل ، وتسلل إلى مخدعها ينتظرها فى ارتقاب وثقة .. فلما طال به الوقت وطال غيابها ، غلبه النعاس فاستسلم للنوم .. وأحنقها هذا التصرف من جانبه ولكنها فى الواقع أحست فى قرارتها بالسخط على نفسها وبالخجل الذى يعترى من يقترف ذنبا .. وجاهدت لكى تزيح عنها هذا الشعور ، فصاحت فى الفتى :

- هيا إلى فراشك فورا أيها الولد العاق .. !

وتطلع إليه «ادجار» فى خوف ودهشة .. ترى ماذا فعل فأغضبها منه وجعلها تحنق عليه هكذا .. إنه لم يأت ذنبا يستحق عليه اللوم والتأنيب ، بيد أن دهشة الفتى وتلكأه فى السير تنفيذا لأمرها ، ضاعف من حنقها فنهرته فى غلظة :

- هيا إلى غرفتك فوراً .. !

ولم يكن حنقها فى الواقع منصبا على الفتى ، بل على نفسها .. لأنها تعرف تماما أنها المذنبة .. !

وانصاع الفتى لأمرها صاغرا دون أن ينبس بكلمة ، وكان متعبا جد التعب ، يغالبه النعاس .. واستبد به إحساس واحد هو أن أمه نكثت

بوعدها، وأنها جائرة فى تصرفها معه ومعاملتها له ، ولكنه لم يغضب ولم يثر لأن الاعياء كان قد نال منه وإن استشعر بعض الاستياء الذى جعله يلوم نفسه لاستسلامه للنوم حين كان ينبغى أن يظل مستيقظا .. وبذلك استشعر أنه مازال طفلا ، فأخذ يردد ذلك فى نفسه فى غيظ ، حتى غلبه النوم من جديد .. وتولته كراهية شديدة لطفولته .. !

الفصل السادس

تغيير مفاجىء

لم ينعم البارون بنوم هانئ فى تلك الليلة ، لأن المدلهين الذين لم يصلوا بعد غاية مشتهاهم من المحبوب يقضون الليالى فى سهاد .. لذلك كانت ساعات ليلته اضطرابا وأرقا وتفكيرا وقلقا، فإذا أخذته سنة من النوم أو غفوة تخللتها الرؤى والأحلام .. وندم لأنه لم ينتهز تلك الفرصة التى واتته بالأمس فيذهب فى الشوط حتى نهايته . وعندما أقبل الصباح وهبط من غرفته، كانت آثار السهاد والانفعال بادية على وجهه وفى عينيه ، فبدا نافد الصبر ضيق النفس .. وظهر الفتى فجأة من أحد الأركان، وما أن وقع بصره على البارون ، حتى جرى نحوه ثم طوقه بذراعيه الصغيرتين فى بهجة وفرح ، وراح يمطره بالسؤال تلو السؤال .. لقد غمرت الفتى سعادة لا حد لها لأنه وجد نفسه ينفرد بصديقه ، لا تشاركه فى هذه الرفقة أمه ، وأخذ يتحدث إلى البارون فى دماثة ولطف ذاكرا بأنه كان أحرى به أن يروى أقاصيصه له هو لا لأمه ، معللا ذلك بأن أمه قد أخلفت وعدها له، ولم تنقل إليه الأقاصيص التى سمعتها بعد مغادرته لهما كما وعدته ، وراح يلقى إلى البارون بوابل من الثرثرة الصبيانية ، حتى برم الرجل بالفتى وبثرثرته ، ولم يستطع إخفاء تعكر مزاجه عنه .. !

وانقلبت بشاشة البارون إلى عبوس وتجهم ، وهو يرد على فضول الفتى وأسئلته ، وضايقه بالأكثر إلحاف الفتى فى ملاحقته التى تنطوى على مغزى يوحى بما يشبه الرقابة ، واستفساراته التافهة التى ضاعفت من سأمه .. وكان قد ضاق بنفسه عن أن يقضى نهاره فى تجوال مع فتى صغير ، كما سئم مبادلته تافه أحاديثه ، تلك الأحاديث الصبيانية السخيفة ، فهفا قلبه إلى الحسناء وتمنى أن ينفرد بها .. فتضاعف ضيقه ، ولم يستطع مغالبة نفسه فأبدى تبرمه بتلك الصحبة للفتى ، ولكن الفتى وقد تأصلت جذور الصداقة فى نفسه فى براءة الأطفال ، بالإضافة إلى أن البارون قد بهره

بقصصه الشائقة فملك عليه عواطفه ومشاعره وأيقظ فيه الفضول .. أضحى من العسير على البارون أن يحمله على الافتراق عنه وعدم ملازمته .. !

وراض البارون نفسه على احتمال رفقة الفتى ، ريثما يحين الموعد الذى كان بينه وبين الحسناء فى تمام الساعة العاشرة ، فقد تواعدا واتفقا على الخروج فى نزهة .. ولذلك أرخى العنان للفتى وتركه على ثرثرته كيفما راق له ذلك ، وتظاهر بمطالعة إحدى الصحف ، وإن راح يوجه إلى الفتى بين الحين والحين كلمة عابرة أو ملاحظة طريفة على سبيل الملاطفة حتى لا يؤذى شعوره .. وما أن وافت ساعة الموعد حتى كان قد أعد حيلة يتخلص بها من الفتى ، فتظاهر بأنه تذكر فجأة أمرا مهماً ، وطلب إلى الفتى متلطفا أن يتوجه إلى الفندق القريب ، وأن يستعلم نيابة عنه عما إذا كان ابن عم له يدعى الكونت «جريندهم» قد وصل ، إذ كان قد بعث إليه يخبره بمقدمه ..!

وفى براءة الأطفال انطلق الفتى الصغير الساذج عدوا نحو الفندق الذى أشار به البارون ، وقد امتلأ زهوا وسعادة بأن يكلفه صديقه أداء خدمة وأن يكون فى مقدوره أن يقوم بها، مزهوا فخورا بأنه قد أضحى موضع ثقة صديقه ، يعتمد عليه فى أمر من أموره ويجعله رسولا شخصيا لابن عمه .. فأخذ يعدو دون توقف حتى لهثت أنفاسه ، ودون أن يأبه بنظرات الناس الذين راحوا يرمقونه فى دهشة وعجب .. وحرص على كسب ثقة البارون وحسن ظنه به ، فأراد أن يثبت له مدى إخلاصه ونشاطه وإقباله على تلبية ما عهد إليه به .. ووصل إلى الفندق واستعلم عن الكونت، فقيل له أنه لم يصل بعد ، بل ليس لدى إدارة الفندق نبأ عن موعد قدومه، فعاد يحمل هذه الإجابة ، وقد ضاعف من سرعته فى الجرى عن ذى قبل .. ووصل وقد كادت أنفاسه تتوقف ، بيد أنه لم يلمح للبارون أثرا، إذ كان قد غادر الردهة.. ويمم الفتى شطر غرفة البارون ، فلعله عاد إليها لأمر ما ، وطرق

بابها فى لهفة ، ولكن دون جدوى .. فهرول إلى قاعة الجلوس ، ثم إلى المقهى ، وانتهى به المطاف إلى مخدع أمه ليسألها المشورة فيما ينبغى أن يفعل ، وحز فى نفسه أنه لم يجدها هى الأخرى .. وبلغ به اليأس والضيق ، فاستفسر من البواب فى يأس ، فأنبأه بأن أمه خرجت فى رفقة البارون منذ دقائق .. فأثار هذا النبأ فى نفس الفتى مزيجا من الدهشة والأسى .. !

وراح الفتى ينتظر أوبتهما فى صبر نافد .. وفى براءة الأطفال لم يساوره أى شك من ناحيتهما ، واعتقد أنهما لن يلبثا أن يعودا بعد دقائق قلائل ، وجال بخاطره أن البارون أراد أن يتعجل أنباء وصول ابن عمه الذى أرهق الصغير نفسه عدوا فى الذهاب والإياب لكى يأتى بها على عجل وينبئ بها البارون .. ولكن الدقائق راحت تترى ، والساعات تتتابع وتتوالى ، دون أن يعودا ، فأخذ القلق يناوش المسكين .. والحقيقة أنه استشعر القلق منذ دخل ذلك الشخص الغريب فى أفق حياته ، وأقحم نفسه متغلغلا مع أمه ومعه .. إن أية أحاسيس أو انفعالات - مهما كانت خفيفة أو طفيفة - تطبع أثرا عميقا على الأفئدة اليافعة والقلوب الغضة .. ولهذا أثرت هذه الصدمة فى نفس الفتى وفى وجدانه ، وسرعان ما عاودته تلك الاختلاجة العصبية التى اعترت جفنيه وراحت تهزهما ، واشتد شحوب وجهه ..!

وظل الصغير ينتظرهما طويلا ، يحدوه الأمل فى قرب عودتهما ، ثم أخذ القلق والاضطراب يتسللان إلى نفسه ، حتى كاد ينفجر بالبكاء .. وحتى ذلك الحين لم تكن الشكوك قد ساورته ، أو أساء بهما الظن ، وقد خشى - بسذاجته وبثقته المطلقة بصديقه - أن يكون قد أساء فهم المهمة التى كلفه بها البارون ، فراح يتعذب لمجرد هذا الحدس ..!

وأخيرا عاد الرفيقان ، ورأهما ، وعجب أشد العجب إذ وجدهما يتبادلان الحديث وقد تجلت عليهما وعلى حديثهما البهجة والغبطة والمرح ، دون أن تبدو عليهما أية دهشة بخصوصه .. وكأن غيابه عنهما لا يؤلمهما ، وضاعف من عجبه أن البارون لم يسأله عن المهمة التى كان قد وكل إليه القيام بها ، بل قال له :

- لم نتمكن من انتظارك فسبقناك يا «داج» ، وقد ظننا أننا سنلتقى بك فى الطريق .

وفى سذاجة الأطفال خشى «ادجار» أن يكون قد جشمهما عناء البحث عنه، فراح يؤكد لهما أنه سلك الطريق الرئيسى دون غيره ، وحين رغب فى معرفة الطريق الذى سلكاه ، وهم بأن يسأل عن ذلك، نهرته أمه فى غلظة قائلة :

- كفى ثرثرة أيها الشقى .. ليس للأطفال أن يزعجوا الناس هكذا ..

وقد أثارت بردها هذا غضب الفتى ، فاحتقن وجهه .. وآلمه وحز فى نفسه جدا أن تعاود أمه إيذاء شعوره وخدشه أمام صديقه البارون ، وتساءل فيما بينه وبين نفسه ، ترى لماذا تتعمد ذلك .. ولماذا تجنح إلى الحط من شأنه وتحقيره وزجره هكذا فى غلظة وقسوة وإظهاره بمظهر الصغير التافه الأبلة .. ؟! ومع أنه قد أفسح لهما المجال، فلا ريب فى أنها تغار منه ، وتحاول أن تفصل بينه وبين صديقه .. بل لعلها هى التى أشارت بسلوك طريق آخر غير الطريق الذى سلكه حتى لا يلتقيا به .. على أن المسكين تشبث بالعناد ، وعقد العزم على ألا يدعها تخدش شعوره بعد الآن ، متوعدا بأن يثبت لها ذلك ، وبأنه سيقاومها .. وأوحى إليه تفكيره ألا يتكلم مع أمه على مائدة الطعام ، وأن يقصر حديثه على البارون فقط .. !

ولم يتنبه الاثنان إلى تحدى الفتى وصمته ، وكأنهما لا يشعران بوجوده، وقد كان حديثهما بالأمس لا يتناول سواه .. فقد نأيا عنه وراحا يتحدثان

ويتغامزان ويضحكان ويتداعبان وكأنه ليس معهما ، أو كأنه طيف لا يريانه، فغلي الدم في عروقه واحتقن وجهه ، وأحس بغصة تكاد تخنقه وشملته رجفة وهو يذكر ضعفه وعجزه .. أهكذا قدر له أن يبقى أمامهما كالتمثال ، ساكنا لا يتكلم ولا يتحرك ، يتطلع إلى أمه وهي تغتصب منه صديقه الوحيد الذى أفعم قلبه بحبه .. فأضحى عاجزا عن الدفاع عن نفسه ، لائذا بهذا الصمت الرهيب .. !

وحفزه ذلك على أن ينهض ، وأن يهوى على المائدة بقبضتيه .. لعلهما يتنبهان إليه وإلى وجوده ، ولكنه تمالك نفسه ورباطة جأشه وكظم غيظه ، واكتفى بأن توقف عن تناول الطعام ، ومضت على ذلك فترة طويلة دون أن يحظى بلفتة من أحدهما ، فلم يعره أحدهما أى اهتمام ، وظلت الأم على غبائها هذا، أو لعله تغابيها ، إلى أن قدم إليهم آخر طبق من أطباق الطعام، فالتفتت إلى الفتى ، وإذ رأت الطعام لا يزال أمامه لم يتناول منه إلا القليل ، سألته عما إذا كان يشكو مرضا أو ألما .. فقال الفتى يحدث نفسه :

- يا له من أمر غريب .. إن دائرة تفكيرها لا تتعدى مجرد الاطمئنان على صحتي ، وعما إذا كنت مريضا أم لا .. وما عدا ذلك فأمر تافه فى نظرها .

ثم أجاب أمه فى لهجة لا تخلو من جفوة :

- ما بى ميل إلى الطعام ..

ولم تكلف الأم نفسها عناء معرفة السبب .. إذن حيلته لم تؤت ثمرتها المرجوة ، ولم يعد فى مقدوره أن يجتذب انتباههما إليه .. وخيل إلى الفتى أن البارون قد محاه من ذاكرته وأنه لا يعترف بوجوده ، لأنه لم يوجه إليه كلمة ما .. فخنقت الفتى العبرات وكاد يجهش بالبكاء ، وأخيرا لجأ إلى حيلة من حيل الأطفال عندما يريدون التخفيف من عذابهم والتنفيس عن أنفسهم ، فتناول خلسة المنشفة التى أمامه وراح يجفف بها الدموع التى طفرت بها

عيناه وانسابت على وجنتيه وشفتيه دون أن يفطن أحدهما إلى ما آلت إليه حاله .. !

وانتهوا من تناول طعام الغداء ، فشعر الفتى بشيء من الراحة وتنفس الصعداء، وخلال الأكل اقترحت الحسناء أن يقوموا بنزهة فى عربة تذهب بهم إلى «ماريا شوتز» ، فتضايق الفتى حين سمعها تقترح ذلك ، وجز على شفتيه غيظا .. لأن معنى ذلك أن أمه لم تعد ترغب فى أن يخلو الفتى إلى صديقه لحظة واحدة ، وانفجر مرجل الغضب بين ضلوع الفتى حين قالت له أمه وهى تنهض عن المائدة :

– أغلب الظن أنك نسيت كل ما تلقنته فى المدرسة يا «ادجار» .. أليس من الأفضل أن تبقى لتستوعب دروسك .. ؟!

وعندئذ أطبق الفتى قبضتيه فى حنق بالغ ، فقد عادت إلى الحط من شأنه فى حضرة البارون ، وتصويره فى قالب الطفل والجهر بذلك أمام الناس ، وأن مكانه فى المدرسة لا بين من هم أكبر منه ، إلا إذا كان ذلك من باب الملاطفة وعلى سبيل التسامح .. بيد أنه فى هذه المرة شعر بأنه أوذى أكثر من اللازم وفوق طاقة احتماله ، فانعقد لسانه ولم يجب بنعم أو لا ، بل أولاهما ظهره .. فاستدركت أمه قائلة وقد رسمت على شفتيها ابتسامة :

– هل يضيرك هذا أيضا .. ؟

ثم تحولت إلى البارون تخاطبه :

– هل ترى فى انصرافه للدرس ما يضايقه .. ؟

وأحس الفتى حين سمع ذلك كأن ضربات قلبه قد توقفت ..

وعلق البارون على استفسار الحسناء قائلا :

– إن قضاء ساعة أو بضع ساعات فى التحصيل والاستذكار لا يبعث على التذمر أو الضجر .. !

اذن فقد اتفقت آراؤهما تجاهه ، وتحالفا ضده .. واحتدمت فورة الغضب فى عينى الفتى ، فاندفع يقول بأقصى ما وسعته قوته الواهنة :

– تعليمات أبى أن أركن إلى الراحة التامة فى هذا المكان ، فهو يريد أن أستريح وأستجم فى فترة نقاهتى ..

وتمسك الفتى بتعليمات أبيه ذاكرا بأنها واجبة التنفيذ والاحترام ، وكانت لهجته عندما اندفع يطلق جوابه كالقذيفة تنم عن تهديد وتوعد .. ولاحظ الفتى أنه حين ذكر أباه فى سياق كلامه ، بعث ذلك شعورا من الذعر والاستياء فى نفس أمه والبارون ، فقد غضت الأم من بصرها وأشاحت بوجهها وراحت تنقر على المائدة بأصابع مرتعشة متوترة ، وران على ثلاثتهم صمت رهيب كئيب .. وأراد البارون أن يعالج الموقف ويخفف من حدة الأمر ، فتصنع الابتسام وقال :

– لك ما تريد يا «داج» .. وأنا من ناحيتى لا تنتظرنى دروس وامتحانات، فقد انتهى أمرى ورسبت فى كل المواد منذ أمد طويل .. !

ولم ترق هذه الفكاهة «لادجار» ، فقد بدت له سخيفة ، فلم يبتسم .. وإنما رشق البارون بنظرة ثاقبة حادة كأنه يتفحصه لينفذ إلى أغوارر نفسه .. ترى ماذا حدث حتى انقلبت الصلة بينه وبين البارون إلى النقيض ؟ .. هل جد أمر ما يستغلق عليه فهمه أو إدراكه ؟ .. وزاغت عينا الفتى وشردتا، وتتابعت نبضات قلبه اليافع فى خفقات متواصلة .. فقد بدأت الشكوك تساوره وتنتهبه ، وغاب فى حلم كئيب من أحلام اليقظة .. !

الفصل السابع

بـداية الشك

ترى مـاذا جـد أو طرأ حـتى بدل الحـال غـيـر الحـال ؟ .. هكذا راحت الهواجس تناوش الفتى، والأفكار المقبضة يكاد رأسه الصغير ينفجر من حدة وطأتها ، وهو مستكين في مواجهتهما في العربة .. لماذا لم يظلا على ودهما وصفائهما لي ؟ .. لماذا تغض أمي بصرها كلما تطلعت إليها ؟ .. ما سر هذا المرح الذي يلفهما والبهجة التي ينتشيان بها ؟ .. لقد أحجما عن مخاطبتي كما كانا يفعلان بالأمس وقبل الأمس ، بل يتراءى لي أن وجهيهما قد تغيرا وأنهما ليسا الوجهين المعهودين .. فما أشد الحمرة التي تصطبغ بها شفتا أمي ، لعلها استعانت بطلاء ما لتجعلهما تزهوان هكذا ، في حين أنها لم تهتم قبل الآن بهذا .. والبارون أيضا ، أصبح لا يبش في وجهي بل يعتريه العبوس كلما رآني وكأنني اقترفت ما آذيت به شعوره . ما أجرمت قط في حقهما ، ولم تبدر مني لهما كلمة إساءة .. إذن فلست أنا علة هذا التبدل ، بل هما مصدره ، ويخيل إلي أنهما يعيشان في جو من الخفاء ، لا يجرؤان على الجهد بتصرفاتهما حتى ليخفي الواحد منهما عن الآخر بعض ما به ، وتخللت أحاديثهما الألغاز والطلاسم ، بل قل كلامهما وحل بهما الوجوم محل الضحكات ، والتجهم محل المرح .. فلابد أنهما ينوءان بسر يحرصان على إخفائه عني ، بيد أنه لابد لي من أن اكتشفه ، ومن يدري .. لعلي أعرفه ، فقد يكون السر الذي يحرصان على أن يجعلاني بمنأى عنه هو السر الذي تعالجه الكتب وتصوره التمثيليات عندما يقف الرجل والمرأة متقابلين ، ويرسلان عذب الأغاني وقد بسط كل منهما ذراعيه للآخر ، فيتعانقان ويتباعدان .. ! تماما كما حدث بين معلمتي وأبي من سلوك يتنافى مع الآداب ، مما أدى إلى إعفائها من عملها .. هذه حلقات متصلة شديدة الشبه بعضها ببعض، وإني لأحس بذلك وإن كنت لا أدرك كنه هذا الإحساس، وكم أتلهف إلى كشف النقاب ومعرفة هذا السر الخفي .. وكم أتلهف إلى تحطيم الحاجز وقهر ما يستغلق علي .. بل أتلهف أكثر وأكثر

إلى اليوم الذى أتخطى فيه مرحلة الطفولة ، فتنفتح أمامى مغاليق الأمور ولا يكون للتغرير أو الخداع منفذ إلى عقلى ونفسى .. إذن فلأبدأ العمل الآن وإلا فسأظل أتخبط فى الجهد بأمور الحياة مدى العمر ! .. ولابد لى من الوصول إلى هذا السر الخطير ..!

وتغضن وجه الفتى بالتجاعيد ، فبدا على هزاله ويفاعته كأنه شيخ طاعن.. وقد استغرق فى تفكير عميق كأنه يعالج مشكلة حرب عالمية ، دون أن يمتع نفسه أو يأبه بما حوله من جمال الطبيعة المنبسطة بألوانها الساحرة وجبالها الشامخة وغاباتها المترامية وأوديتها التى أضفى عليها الربيع بهاء أخاذا .. لم يجتذب الفتى شىء من ذلك وتعلق بصره وتفكيره فى الوجهين اللذين أمامه ، وراح يجهد نفسه ليستشف السر الكامن فى أعماق عيونهما..

ولا ريب فى أن الشكوك إذا تسللت إلى الإنسان ، فى صورة ملتهبة ، فإنها تصقل القريحة وتشحذ العقل وتنير الطريق للفكر وتفتح حتى الذهن الذى لم يكتمل نضجا فتكشف له عن الغامض والمستغلق مما يثير الهواجس.. وإذا يد القدر تتدخل ، وبدفعة منها تتجلى الحقيقة ويتكشف المستور للفتى اليافع .. !

وشعر «ادجار» فجأة أنه قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من ذلك اللغز المستغلق .. من ذلك السر الخطير ، وقد أحسه ماثلا أمامه وإن كان بعيدا عن متناول وعيه مستعصيا على إدراكه .. ولكنه فى الوقت نفسه موقن أنه جد قريب منه .. وأثار هذا الإحساس حميته ، فأضفى عليه مسحة من الهيبة والوقار .. لقد أدرك دون أن يفطن أنه استكمل مرحلة الطفولة .. !

واستشعر البارون وأم الفتى بوطأة ضغط خفية ، وقوة مقاومة صامتة ، لم يستطيعا إدراك كنهها .. وما جال بخاطرهما أن الفتى مبعثها ، وخيل

إليهما أن العربة تضيق بثلاثتهم ، وأخذت عينا الفتى اللتان ترسلان نظرات ملتهبة فى حرارة تنبعث من أغوارهما ، تثيران فى أمه والبارون إحساسا بالضيق والاضطراب، فلم يجرؤا على تبادل الحديث إلا نادرا .. ونادرا ما تبادلا النظرات، وقد زايلهما المرح الذى كان يشيع فى أحاديثهما من قبل، كانا ينغمسان فى حمأة التبذل فى تحفظ، حين يتبادلان عبارات الغزل واللمسات الخفية ونظرات النهم، ولكنهما كلما هما بشىء من ذلك اصطدما بنظرات الفتى الهادئة فى صمت وعناد ..

واشتدت وطأة هذا الصمت على نفس الأم ، فأخذت تختلس النظر إلى الفتى فى حذر .. وإذ رأته قد زم شفتيه ، قفزت إلى ذهنها صورة أبيه حين يكون محنقا أو يستبد به انفعال، وشعرت بالضيق لتذكرها زوجها فى الوقت الذى تنتشى فيه بمغامرة غرامية مع البارون .. وقد خيل إليها أن الفتى بعينيه المتربصتين ونظراته الثاقبة وبالاكتئاب البادى على جبينه الشاحب ، إنما هو شبح عهد إليه أن يراقبها ويراقب ضميرها .. فأثار ذلك فى نفسها شعورا بأنها لا تطيق وجود الفتى معها فى تلك اللحظة .. !

وتلاقت عينا الأم والفتى فجأة ، فغض كل منهما بصره إذ اكتشف كل منهما أنه يرقب الآخر خفية ، وقد كانت الثقة بينهما متبادلة حتى هذه اللحظة .. أما الآن فقد اعتور الشك هذه الثقة ، فتأثرت علاقتهما ، وأخذ كل منهما ينظر إلى الآخر نظرة غريبة ، ويجعل حاجزا بين مصيريهما ، وتولد فى قلب كل منهما شعور بالكراهية المستترة نحو الآخر .. شعور جديد وغريب عليهما حتى أنهما لم يجرؤا على الإفصاح عنه أو إظهاره .. !

وعادت العربة بهم إلى الفندق .. وعندما وقفت عند الباب تنفس الجميع الصعداء، فقد كانت نزهة غير موفقة ، خلت من البهجة والمتعة والمرح ، وقد أحس ثلاثتهم بذلك دون أن يجرؤوا على الجهر به .. ونزل الفتى من العربة قبل الاثنين ، وتظاهرت أمه بأن صداعا ألم بها ، فبادرت لائذة بمخدعها ..

فقد كانت جد مرهقة تهفو إلى الخلوة بنفسها ، ونقد البارون الحوذى أجره ، ثم نظر إلى ساعته وسار نحو الردهة دون أن يأبه بالفتى الذى وقف فى مكانه ، بل سار البارون أمامه ، فى خطوات رشيقة متئدة يتخطر بذلك القوام الفارع الذى كان حتى الأمس موضع إعجاب الفتى .. سار فى طريقه لا يلوى على شىء كأنه لا يعرف الفتى ، أو أنه غريب عنه .. !

وشعر الفتى بغصة مريرة وكأن حجرا ثقيلا انقض فوقه فحطم كيانه ، حين رأى ذلك التصرف من جانب صديقه الذى أحبه بكل جوارحه ومن أعماق قلبه ، وشعر بخيبة أمل شديدة عندما ابتعد عنه البارون دون أن يوجه إليه كلمة أو عبارة ، مع أنه لم يسئ إليه، ولم يقو المسكين على تحمل ذلك فى رباطة جأش عانى كثيرا للاحتفاظ بها، فأحس بأنه ارتد طفلا تافها كما كان، ثم راح يعدو خلف البارون على الرغم منه فى خطى حثيثة مضطربة، ولحق به ووقف أمامه عندما هم بالصعود ، وقال له بصوت مبحوح كأنه صادر من أعماق سحيقة والدموع تكاد تطفر من عينيه :

– أى ذنب جنيته حتى تهملنى هكذا وتتجاهل وجودى ؟ .. لماذا تبدلت معاملتك لى إلى هذه الجفوة ؟ .. وكذلك أمي ؟ .. ماذا يدفعكما إلى إقصائى عنكما ؟ .. هل تضيقان بى ؟ .. أو هل بدر منى ما يستوجب ذلك .. ؟!

وسرى هذا العتاب المشرب بالتأنيب مسرى السم فى نفس البارون ، وشملته رجفة على الرغم منه، فقد كان فى نبرات الفتى ما جعله يستشعر الخجل ، واضطر أن يتلطف معه .. كما أخذته الشفقة على ذلك الصغير البرىء ، فتصنع الابتسام تلطفا وقال له :

– إنك واهم يا صغيرى «داج» ، وكل ما فى الأمر أننى كنت منحرف المزاج اليوم .. إنك فتى ظريف وقلبى يحبك كثيرا .. !

قال البارون ذلك وهو يداعب شعر الفتى، بيد أنه أشاح عنه بنظره قليلا ، ليتفادى نظرات التوسل التى أرسلتها عينا الفتى المغرورقتان .. وبدت له

اللعبة التى يمثلها عسيرة ثقيلة على نفسه ، فقد استشعر الخجل لأنه يتلاعب بعواطف هذا الفتى ويعبث بحبه له بهذه الطريقة المعيبة ، وأثر فيه أبلغ الأثر، وحز فى نفسه سماع هذا الصوت الطفلى وقد حنقته العبرات ، فقال له فى حنان وعطف :

– ألا تشعر بالتعب يا «داج» ؟ .. هيا إلى فراشك وسيعود الصفاء إلى علاقتنا فى المساء ..

– على ألا تصرفنى أمى إلى الفراش مبكرا ..

– لك هذا يا «داج» .. ! ليطمئن بالك ، فهيا إلى غرفتك الآن ، وسأذهب أنا لأغير ثيابى واستعد للعشاء ..

وغمرت الفتى موجة من الفرح ، بيد أن قلبه ما لبث أن عاوده خفقانه فى شدة وعنف .. فقد أحس المسكين أن عشر سنوات أضيفت إلى عمره ، وأنه يستشعر إحساسا لا عهد له به هو الشك .. !

وظل الفتى ينتظر اللحظة الحاسمة ، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة حين كانوا قد اتخذوا مقاعدهم حول المائدة ، ولاحظ أن أمه لم تتصرف معه كما تصرفت بالأمس ، فلم تشر عليه بالتوجه إلى فراشه .. فساوره قلق مبهم لذلك ، وتساءل فيما بينه وبين نفسه لماذا تخلت عن عاداتها التى تتبعها فى حرص ورتابة ودقة ، فسمحت له بالسهر حتى هذا الوقت .. هل أنهى إليها البارون برغبته التى أبداها له وهو يحدثه ؟ .. وندم أشد الندم لأنه ألقى إلى صديقه بمكنون نفسه فى صراحة وثقة .. وما أن وافت الساعة العاشرة حتى نهضت أمه بغتة واستأذنت فى الانصراف، وعجب الفتى أن يرى البارون لا يدهش لهذا الانصراف المبكر ، بل لم يحاول أن يستمهلها ويرجوها البقاء فترة أخرى . فاشتد وجيب قلبه وفاضت نفسه بالأسى .. !

وتجاهل الفتى هذه الملاحظة وتظاهر بالسذاجة ، وسار مع أمه دون اعتراض أو توسل .. بيد أن عينيه زاغتا فجأة ، فقد حانت منه التفاتة مباغتة فرأى أمه تلقى إلى البارون نظرة ذات مغزى من خلفه ، نظرة التواطؤ على أمر خفى .. إذن لقد نكث البارون وعده، وهذا ما جعله لا يبدى أى اعتراض على انصراف أمه المبكر .. فقد رسما الخطة : أن يأوى الفتى إلى فراشه فى جو من هدوء البال والاطمئنان حتى لا يكون مبعث ضيق لهما فى الغد .. وتمتم «ادجار» فى خفوت :

- يا له من نذل حقير .. !

وتناهى صوته إلى سمع أمه رغم خفوته فسألته :

- ماذا تقول ؟

فجز الفتى على شفتيه غيظا ، وأجاب فى اقتضاب :

- لا شىء .. !

لقد جد عليه جديد ، وأضحى له ما يشغله .. وما يشغله سر من الأسرار، وهذا السر هو المقت والحقد والكراهية إلى أقصى مدى، يكنها ليس للبارون وحده .. بل ولأمه أيضا .. !

الفصل الثامن

الرقيب اليقظ

ران على الفتى هدوء وسكون فلم يعد نهبا للقلق، فقد تولد فيه إحساس واضح بالكراهية والعداء .. ومن ثم راح يستطيب الوجود معهما رغم أنه يعلم يقينا أن ذلك يضايقهما ، بل كان يستشعر المتعة فى مضايقتهما ، وبالعداء السافر الذى يواجههما به فى حدة وعنف، وكان البارون هو الهدف الأول لسهام الفتى ، فعندما تلطف معه وألقى إليه بتحية باسمة فى صباح اليوم التالى، تعمد الفتى ألا يتطلع إليه ، وظل جالسا فى مقعده واكتفى برد التحية فى فتور . وسأله البارون عن أمه ، وعما إذا كانت قد غادرت مخدعها وهبطت إلى الطابق الأرضى، فأجاب فى كلمات مقتضبة دون أن يرفع عينيه عن صحيفة كان يقرأها قائلا :

- لا علم لى بذلك .. !

ودهش البارون لهذا التصرف من جانب الفتى ، وتساءل فيما بينه وبين نفسه عن مغزى ذلك .. ثم هتف فجأة قائلا :

- لعلك لم تنل قسطا من الراحة كافيا فى نومك يا «ادجار» .. أليس الأمر كذلك .. ؟

وظن أن هذا التلطف كفيل بأن يعيد الجو إلى سابق عهده، ولكن الفتى التزم خطة الاقتضاب فى القول ، فأجاب قائلا :

- لا .. !

ثم عاود الاستغراق فى قراءة الصحيفة .. فما كان من البارون إلا أن هز كتفيه استخفافا بالفتى، وقال وهو يبتعد عنه :

- يا لك من فتى عقيم .. !

ومضى فى سبيله لا يلوى على شىء ..

وكانت هذه بمثابة الشرارة أو الطلقة الأولى لمعركة فاصلة .. فقد انتهج الفتى التحفظ والفتور فى علاقته بأمه، فأبى فى تأدب أن يذهب إلى ساحة «التنس» عندما ألحت عليه فى ذلك، وكان فى زم شفتيه، وفى تلك الابتسامة

الباهتة الصفراء، ما ينم عن أنه قد بلغ من الإدراك بحيث لا يرتضى أن يخدعه أحد مهما كان ذلك الأحد .. وبعد لحظة قال لأمه وهو يحدق فى عينيها ويتصنع الحياء :

- حبذا لو أخذتمانى للنزهة معكما ..

وأثار هذا الجواب أمه وبعث فى نفسها الاستياء، وبدا عليها اضطراب وارتباك لم يخفيا عن عين الفتى اليقظة .. فقد تظاهرت بأنها تبحث عن شىء تفتقده ، وقالت :

- إذن فانتظرنى هنا حتى أتناول إفطارى ..

ولم يعترض الفتى، وانتظر .. ولكن عجلة شكوكه كانت تدور فى سرعة ويقظة متحفزة ، فقد شعر من أعماقه بما يدفعه إلى تحليل وتعليل كل لفظ ينطق به الاثنان للبحث عما يحمله من مغزى ونوايا، وكانت نظرته ثاقبة بحيث تمنحه التوفيق فيما يفعل، وقد هداه تفكيره ألا ينتظر فى الردهة كما أشارت عليه أمه .. بل آثر أن يقف فى الطريق، فى موضع يمكنه من أن يرقب كافة الأبواب، وليس باب الخروج وحده .. فقد أوحت إليه الغريزة بأنهما يدبران خدعة، فحزم أمره على ألا يتركهما يفلتان ، ثم توارى خلف بعض الأخشاب متمثلا بما قرأه فى بعض القصص .. واستشعر الرضا عن خطته ، فابتسم حين لمح أمه تتسلل من الباب الجانبى بعد نصف ساعة تقريبا وقد أمسكت بيدها باقة من الأزهار والورود ، ثم تبعها شريكها الخائن ..!

وبدا المرح فى أساريرها .. ولا ريب أنهما استشعرا السعادة إذ ظنا أنهما أفلتا منه، وتناهى إلى سمعه حديثهما وضحكاتهما وهما فى طريقهما إلى الغابة .. وواتت اللحظة الحاسمة التى يترقبها الفتى ، فغادر مخبأه وسار نحوهما وئيدا كما لو كان لقاؤه لهما جاء مصادفة ، وأخذ يتشفى ويستمتع فى الوقت نفسه بما أحدثته هذه المباغتة فيهما ، إذ كانا قد ذهلا

بالفعل فأخذا يتبادلان نظرات الفزع .. وتقدم الفتى بخطى بطيئة دون أن يحول عنهما عينيه الساخرتين ، وعندئذ قالت أمه :

– أنت هنا ، وقد بحثنا عنك فى أرجاء الفندق يا «داج» !

فأخذ الفتى يتحدث إلى نفسه قائلا :

– يا للكذب المكشوف .. !

بيد أن شفتيه لم تختلجا ، فقد أطبقتا على سر حقده ..

وظهر التردد على الجميع، وهم يختلسون النظر إلى بعضهم البعض فى توجس وترقب، ولم تلبث المرأة ، وقد بلغ منها الاستياء ، أن تصنعت الهدوء وقالت وهى تعبث بزهرة مما فى يدها :

– هلم بنا نتنزه .. !

بيد أن دهشة خفيفة سرت فى طرف أنفها تنم عن فورة غضب جهدت فى كبته، وظل الفتى ينظر إلى الفضاء المحيط به كأنها لا توجه إليه الكلام، وظل هكذا إلى أن شرعا فى السير ، فسار معهما .. وحاول «البارون» أن يثنيه عن ذلك بحيلة ابتدعها ، ولكن الفتى رشقه بنظرة ازدراء وقد مط شفتيه إمعانا فى ذلك فقد بدأت كراهيته الطاغية تظهر سافرة .. !

ومما لا ريب فيه أن وجود الفتى كان مبعث ضيق لهما، ثقلت وطأته عليهما أثناء السير حتى لقد أطبق كل منهما قبضتيه كأنهما سجينان وهو حارسهما، وظل الفتى هادئا صامتا، ومع ذلك فقد تضاعف ضيقهما به ولم يعوداً يحتملان وطأة نظراته الثاقبة وعينيه اللتين راحت الدموع تترقرق فيهما ، وذلك الانقباض الذى ألم به والذى كان يحول دون أية محاولة من جانبيهما للتودد إليه .. وفجأة قالت الأم وقد ضاقت به وبتلك الرقابة ذرعا :

– لماذا تسير هكذا وراءنا ؟ .. تقدمنا ولا تلاحقنا ، فإن ذلك يحطم أعصابى ..

ولم يعترض الفتى، وامتثل لأمرها .. ولكنه كان يستدبر متطلعا إلى الخلف بين الفينة والفينة ينتظرهما كلما بعد عنهما، مرسلا إليهما نظرة زاخرة بالمكر والدهاء ليشعرهما بمبلغ كراهيته وحقده التى لم تخف عليهما .. !

كان صمت الفتى ونظرة العداء والحقد التى يرشقهما بها بمثابة الخنجر النافذ إلى قلبيهما ، فكانت تحبس الكلام فى حلقيهما .. ولم يجسر البارون على المضى فى مطارحتها الغرام أو مداعبتها ومغازلتها بل أحس وهو يكاد ينفجر من الغيظ بأن الصيد لن يلبث أن يفلت من يده ، وأن جذوة الشهوة التى أذكاها فيها وبذل فى سبيل ذلك شتى الأحابيل، لن تلبث أن تخمد تحت وطأة توجسها من ذلك الفتى البغيض .. وكم عالجا استئناف الحديث، ولكنه كان يستعصى عليهما، فلاذا بالصمت قانعين بإرهاف السمع لحفيف الأشجار ولوقع خطواتهما المتعثرة !

وشملت الكراهية ثلاثتهم، فكان الفتى وقد عرف غدر الشريكين، يستعذب غضبهما العاجز الذى كان منصبا عليه، وأخذ بين الحين والحين ينظر إلى البارون فى سخرية ، فيسمعه يتمتم ببعض الكلمات التى لا يجد فى نفسه الجرأة على الجهر بها .. كما كان يرقب فى اغتباط أمه وقد استشاط غضبها، واستشف محاولتهما لتلمسى خدعة أو حيلة يستطيعان بها إقصاءه وتجنب مراقبته، دون أن يوفقا .. فقد اشتد حقده وعداؤه ، فأحكم خطته بدقة لا تسمح لهما بمنفذ .. !

وفجأة قالت الأم ، وقد عيل صبرها :

– لنعد الآن ..

لقد أحست التعسة بانهيار أعصابها ، وبأنها لم تعد قادرة على تمالك نفسها، وأنه لابد لها من أن تتصرف على أى وجه حتى لا يطغى عليها هذا

العذاب فتنفجر فى البكاء .. وحين سمع «ادجار» منها ذلك ، قال فى بلادة وهدوء :

– هذا عجيب ومؤسف فى الوقت نفسه، فإن الطقس بديع يحفز إلى الاستزادة من النزهة .. !

وأدركت الأم كما أدرك البارون أنه يسخر منهما ويتعمد إيذاءهما ، بيد أنهما لم ينبسا ببنت شفة .. فقد تعلم هذا الفتى كيف يضبط زمام نفسه، ولهذا لم يبد على أساريره ما يشى بتلك السخرية اللاذعة التى قذفها بها .. واتخذ الجميع طريقهم إلى الفندق وكأن على رءوسهم الطير فلم ينطق أحدهم بكلمة طول الطريق، وإذ خلت الأم إلى الفتى فى مخدعها، تخلت عن رباطة جأشها ورزانتها، وراحت تنفس عن نفسها وتفثأ غيظها ، فطوحت بقفازها ومظلتها فى حركة استياء .. ولاحظ الفتى أنها أفلتت زمام نفسها، وأن تصرفها على هذا الشكل يسرى عنها .. فى الوقت الذى كان يتوق فيه إلى أن تزداد ثورة واحتداما ، ومن ثم لم يبرح الغرفة ، بل ظل بها ليذكى جذوة هياجها وانفجارها، وأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهابا، وتجلس حينا وتنقر على المائدة بأناملها حينا آخر .. وإذ وصلت فورتها إلى القمة صرخت قائلة :

– ما أشد إهمالك لشعرك، وما أبشع قذارتك ! .. ألا تخجل من الظهور أمام الناس بهذه الصورة ؟ ..

وراح الفتى يصفف شعره دون أن يتكلم ، فأثارها هذا الصمت الثقيل الذى اقترن بابتسامة ساخرة .. فأحست برغبة ملحة فى أن تنهال عليه صفعا ولطما ، وما لبثت أن صرخت فى وجهه :

– أغرب عن وجهى واذهب إلى غرفتك !

إنها لم تعد تطيق وجوده قريبا منها .. وابتسم الفتى ، ثم خرج .. !

لقد أضحيا يرتعشان فرقا أمام الفتى .. يخشيان وجوده معهما والتعرض لنظرات الحقد والرقابة التى يرشقهما بها ، وكلما ازداد وميض عينيه ، اشتدت وطأة الإثارة فى نفسيهما .. لقد راح الفتى الصغير يصلى خصميه العاجزين عذابا أليما بقسوة طفلية فيها الكثير من الضراوة والوحشية . وظل البارون مسيطرا على أعصابه قادرا على كظم غيظه وغضبه لأنه كان يأمل فى حيلة يتغلب بها على الفتى ، جاعلا نصب عينيه هدفه الوحيد مع حسنائه .. أما هى فقد انهارت أعصابها وأخذت تفلت زمام نفسها شيئا فشيئا ، وكانت تتلمس لغيظها تنفيسا ، فلا تنى عن زجره والجهر بعيوبه .. فكانت تنهره بغلظة أثناء تناول الطعام فتقول له مؤنبة :

– لا تعبث هكذا بالملعقة ! .. ليس ذلك من آداب المائدة ! .. إنك غير مؤدب ! .. لا تستحق شرف الجلوس مع من هم أكبر منك !

وكان «ادجار» يقابل ذلك ببلادة وفتور ، ولا يرد .. بل يكتفى برسم ابتسامة على شفتيه ، وقد مال برأسه قليلا ، لأنه يعلم أن صيحاتها تلك تنم عن يأسها .. ! وملأه الزهو أن يرى الاثنين يفضحان أمرهما بهذه الطريقة .. أما هو فقد اكتست نظراته بالهدوء ، ولو أنه انتهج ذلك من قبل لكان من الجائز أن يجنح إلى الفظاظة لاثارتهما ، ولكن المرء يتعلم الكثير عندما يستشعر الكراهية والحقد ، ولذلك تعلم أن يقنع بالصمت .. بالصمت المطبق .. !

وظل الفتى متمسكا بصمته المرهق الشديد الوطأة ، فراحت أمه تصرخ من حدة وقعه فى نفسها ، وعجزت عن احتمال تلك الحال .. وعندما انتهوا من تناول الطعام ، نهضت كما نهض البارون ، فأراد الفتى أن يتبعهما فى حركة عادية طبيعية، لا تنم عن قصد أو تعمد .. فهال ذلك الأم وانفجرت ، ونسيت كل تحفظ واتزان ، ونفثت كل ما فى نفسها ، كان وجود الفتى على

هذا الوضع الوقح بمثابة النار التى تصليها وتعذبها ، فانتفضت فى فورة غيظها انتفاض من لدغته عقرب ، وصاحت :

– كيف تلاحقنى هكذا كأنك طفل لم يشب بعد عن الطوق ؟ .. إننى لا أحب أن تتبعنى كالظل ! ليس مكانك بين من هم أكبر منك سنا .. تعلم هذا، والتمس من أسباب التسلية ما يلتمسه أمثالك من الأطفال .. تصفح كتابا أو صحيفة أو مجلة ، أو افعل ما يحلو لك .. ولكن دعنى قليلا ، فإنك تثيرنى وتحطم أعصابى إذ تلاحقنى بوجهك الكئيب البغيض .. !

هكذا أفرغت آخر ما فى جعبتها .. واعترفت اعترافا صريحا لا يدع مجالا للشك ، فراح الفتى يبتسم ، بينما اعترى أمه والبارون فزع واضطراب ، فاستدارت هى تنشد الابتعاد إذ أحنقها أن تكشف عن استيائها فى سفور ، واكتفى «ادجار» بأن قال :

– لعلك تذكرين أن أبى قد أوصى بألا أتنزه وحدى ، وشدد فى ذلك وأكد.. حتى لقد عاهدته بأن ألتزم جانب الحيطة وأن أكون دائما فى صحبتك ..

وتعمد الفتى وهو يقول ذلك أن يلفظ كلمة «أبى» بنبرة ذات مغزى ، إذ كان قد لاحظ أن لها وقعا أليما عليها وعلى البارون .. واستشف من ذلك أن ما خفى عنه له شأن بأبيه ويتصل به بسبب من الأسباب ، وأنهما يخشيان هذا الشأن رغم بعد أبيه عن مسرحهما .. يكشف عن ذلك ما يعتريهما من ضيق واضطراب لمجرد ذكره ، ولاذ الاثنان بالصمت ، فلم ينطق أحدهما بكلمة أو يعلق بشىء .. وكأنهما فقدا القدرة على الكلام وانعقد لساناهما ، وسار الاثنان جنبا إلى جنب ، ومن خلفهما سار الفتى .. بيد أنه فى مشيته هكذا لم يستشعر مهانة أو ذلة ، بل على العكس من ذلك شعر بتأثيره عليهما ، ذلك التأثير الجبار الصارم .. فقد كان بمثابة الرقيب اليقظ المتحفز لفريسته ، كما شعر أنه أقوى من الاثنين ، اللذين كتما سرهما الرهيب الذى يجهله ، رغم أنه صغير وأنهما يكبرانه .. !

الفصل التاسع

خدعة حقيرة

مرت الأيام تباعا .. ولم يبق على رحيل البارون سوى القليل ، فعزم على أن ينهل من المتعة واللذة المحرمة بأوفر قسط مستطاع ، وكان هو والحسناء يدركان ألا سبيل لهما إلى التغلب على الفتى العنيد الحقود ومقاومته ، فأوحى إليهما تفكيرهما السقيم بحيلة دنيئة مخجلة .. هى أن يهربا منه لبضع ساعات يرشفان فيها من تلك الكأس المحرمة ، وهما بمنجاة من رقابة الفتى وملاحقته .. فطلبت الأم من ابنها أن يذهب إلى مكتب البريد ويسجل خطابين ، وفى تلك اللحظة حانت من الفتى التفاتة ، فلمح البارون عند الباب يتحدث إلى حوذى ، وساور الشك «ادجار» وهو يتناول الخطابين من أمه ، إذ كان يعلم أن خدم الفندق يؤدون أمثال هذا العمل .. فسأل نفسه : ترى هل عادا إلى خداعه ، ثم قال لأمه :

– وأين تنتظريننى ريثما أعود ؟

– هنا .. فى هذا المكان ..

– هل حقا ذلك أم هو مجرد كلام ؟ ..

– حقا .. سأنتظرك هنا .. !

– إذن فلن تخرجى .. وستنتظريننى حتى أعود .. ؟!

وكان الفتى يشعر بسلطانه وتأثيره ، ولذلك خاطبها بلهجة التهديد والأمر.. وقد كان قبل ذلك يتوسل إليها ، ولكن الأمور تطورت وتبدلت ، واتجه صوب الباب يحمل الخطابين .. ولما اقترب من البارون ، خاطبه وكان قد أحجم عن محادثته مدة يومين ، فقال له :

– لن أتغيب طويلا .. سأسجل هذين الخطابين بسرعة ، وستنتظرنى أمى ، فرجائى ألا تغادرا الفندق قبل أن أعود .

فأجابه البارون وهو يفسح له الطريق :

– أجل .. لا تخف .. لا تخف ..

وهرول الفتى عدوا إلى مكتب البريد .. وإذ بلغه ، اضطر إلى الانتظار فترة طويلة ، إذ كان بالمكتب رجل راح يثقل على الموظف ويشغله بعديد من الأسئلة ، وحينما أنجز الفتى مهمته ، قفل راجعا يعدو بأقصى سرعته ..

وكان وصوله إلى الفندق في اللحظة التي كانت أمه قد صعدت فيها إلى العربة وجلست ، وإلى جانبها البارون ، فتحركت بهما في التو .. فغلى مرجل الغضب في نفسه، واشتد اضطرامه ، فتمنى لو أمكنه أن يقذفهما بقذيفة .. لقد أفلحت حيلتهما ، وأفلتا منه .. ولكن بخدعة ذميمة دنيئة .. إنه عرف منذ الأمس أن أمه لا تتورع عن اقتراف الكذب المشين .. ولكن .. أن تعده وعدا صريحا ، ثم تخلف ذلك الوعد وتنقضه بعد ساعة أو بعض ساعة بطريقة مخزية مزرية ، فذلك إن دل على شيء فعلى منتهى الخسة والوضاعة.. إنها بذلك قد قضت على البقية الباقية من ثقته بها ، وخيل إلى الفتى أن الحياة لغز معقد لا يكاد يدرك كنهه ، وأن المعايير والقيم قد هانت وضاعت بعد أن ظن أنها واجبة الاحترام ، فإذا بها توافه تذروها الرياح ..!

واستغلق على الفتى تفسير ذلك السر الغامض ، وتعليل جنوحهما إلى خداعه والفرار منه كما لو كانا لصين لاذا بالهرب حين فاجأهما رجل الشرطة .. حقا أنه قرأ فيما قرأ أن بعض الناس من ذوى النفوس الوضيعة يلجأون إلى الحيل والخداع أو القتل، وهدفهم من ذلك المال أو السلطان .. ولكن ترى ماذا دفع هذين الشخصين إلى اللجوء إلى خداعه ثم إلى الفرار منه ؟ ما الذى يرميان إليه من وراء ذلك ؟ .. ولماذا يميلان إلى الاحتجاب عنه؟ .. ثم ما هذا الذى يحرصان على إخفائه عنه بتلك الحيل وذلك الخداع؟.. وراح يفكر ويمعن فى التفكير ، ويضنى عقله ويرهقه دون هوادة ، وساوره إحساس مبهم بأنه إذا نفذ إلى هذا السر انتقل إلى مرحلة النضج، وزايلته طفولته فأصبح رجلا .. ولكن ما سبيله إلى كشف هذا اللغز ، وقد

عصف به الغضب والحقد لإفلات أمه وشريكها ، فجانبه صفاء الذهن والتفكير ..

ولم يجد سوى أن ينطلق عدوا صوب الغابة .. حتى إذا بلغ طريقا مهجورا لا يتعرض فيه للانظار، ترجمت عبراته عن شجونه ، فراحت تنساب على وجنتيه غزيرة ساخنة .. وأخذ يردد فى غيظ : «خبيثان ، كاذبان ، مخادعان» ! .. وقد نفس بهذه الشتائم عن نفسه حتى لا يختنق ، وقد راحت مشاعر الغضب والكراهية والضيق والهموم ونفاد الصبر التى زخرت بها أيامه والتى احتملها بجهد فوق طاقة الأطفال ، فأكسبته إحساسا بأنه نضج وأضحى كبيرا .. راحت هذه المشاعر تتفجر فى نفسه فتنساب عبرات حرى، بيد أنها كانت آخر عهده بالبكاء فى طفولته ، فقد كانت بمثابة الحد الفاصل بين مرحلتى الطفولة والنضج .. لذلك كانت أقسى ما استهدف له ، فراح يبكى مستسلما مستعذبا فى تلك اللحظة ، راثيا لما كان فى نفسه من ثقة وحب واحترام .. !

وعندما عاد إلى الفندق ، كان قد تحول إلى شخص آخر لا عهد له به .. شخص اتسم بالهدوء والرزانة ، ويمم شطر غرفته فاغتسل ليزيل آثار الدموع من عينيه ، حتى لا يتشفيا فيه حين يريانه ، وراح ينتظرهما رابط الجأش والجنان متحفزا للانتقام .. !

واكتظ البهو بالنزلاء الذين جلسوا يقتلون الوقت فى قراءة الصحف أو لعب الشطرنج ، بينما انهمكت السيدات فى الأحاديث والثرثرة ، وجلس الفتى هادئا ساكنا ، وقد كسا الشحوب وجهه وزاغت نظراته ، ودلف الاثنان من الباب ، وبدا عليهما الضيق والاضطراب حين رأياه فجأة .. وهما بأن يقولا بعض أعذار كاذبة كانت قد اصطنعاها أثناء عودتهما ، فهب الفتى واقفا فى ثبات ، وقال فى تحد حاد :

– سيدى .. لدى ما أقوله لك .. !

وبدا الحرج على البارون فتململ فى وقفته ، وقد أحس بأن جرمه قد انكشف ، وأنه به متلبس .. واستعصت عليه الإجابة الرزينة ، فقال فى تلعثم:

– نعم .. لا بأس .. بعد قليل .. بعد لحظة .. !

ولكن الفتى ، وقد نفد صبره، انفجر فيه بحدة ، بصوت تعمد أن يكون عاليا كى يسمعه جميع النزلاء الجالسين فى البهو :

– بل استمع إلى الآن .. إن مسلكك شائن معيب .. لقد كذبت على وأنت تعلم أن أمى تنتظرنى ..

وارتاعت الأم وهلع قلبها حين رأت الأنظار تصوب إليها، فأسرعت نحو الفتى وقطعت عليه الاسترسال فى حديثه قائلة :

– «ادجار» ..!

وفطن الفتى إلى أنها ترمى إلى طمس صوته بحدة صوتها، فاستشاط وازداد حدة عن ذى قبل ، وعاد يصرخ فى وجه البارون بأعلى صوته:

– إننى أقول لك للمرة الثانية، على مسمع من الحاضرين جميعا، إنك كنت وضعيا فى تصرفك، وفى كذبك على، وخداعك لى .. وهذا جرم جد شائن !

وقعت كلمات الفتى على البارون وقع الصاعقة، فشحب وجهه حتى أضحى فى بياض الثلج .. وتعلقت به أنظار النزلاء وأخذ بعضهم يتلامزون ويتغامزون، فنفد صبر الام، وأهوت على الفتى الذى راح يرتجف انفعالا بقبضتها، وصرخت فيه بصوت محنق مغيظ :

– اصعد إلى غرفتك فورا.. وإلا انهلت عليك صفعا أمام الجميع ..!

ولكن الفتى تمالك نفسه واسترد رباطة جأشه، واستاء، بل ندم لتهوره، فقد كان يرمى إلى إثارة البارون دون أن ينفعل هو، ولكن فورة الغضب غلبته على أمره ..!

وسار الفتى نحو السلم بخطى وئيدة هادئة، بينما راحت الام تقدم الأعذار للبارون فى كلمات متلعثمة :

- لا تلق بالا إلى وقاحته يا سيدى .. واغفر له ما بدر منه فلا يخفى عليك أنه عصبى ..

وأثارتها نظرات السخرية الموجهة إليها، لأنها لم تخش شيئا سوى التعرض للفضيحة، وأدركت أن لابد لها من التشبث بالرزانة وكأن ما حدث ليس بذى بال.. فلم تشأ أن تخرج فورا، فاتجهت إلى حارس الباب وسألته عن خطابات باسمها، ثم تظاهرت بأنها تتحدث إليه، وبعد ذلك صعدت إلى مخدعها وكأن شيئا لم يحدث، ولكن النزلاء تابعوها وهى توليهم ظهرها بنظرات السخرية، وأخذوا يتهامسون ويتغامزون فى ضحكات مكتومة ..!

الفصل العاشر

تأمـــلات!

راحت الام تصعد السلم على مهل، فما كان يثيرها إلا التعرض لمثل هذه المواقف الشائنة .. وكانت فى قرارة نفسها لا تجسر على مناقشة الفتى، فهى لا تنكر جرمها وتهاب نظرات ابنها .. تلك النظرات الغريبة الجديدة التى أطاحت بطمأنينتها وطوحت بأفكارها .. وأهاب بها الفزع أن تتذرع بالملاطفة ، إذ قدرت أن لاجدوى من اتباع العنف أو القسوة مع الفتى ، لان ثورته ستغدو مصدر قوة له تفوق قوتها ..!

وفتحت باب غرفته فى وداعة بالغة، فأدهشها أن ترى الفتى يجلس هادئا مستكينا، وقد ملك زمام أعصابه فلم يبد فى عينيه خوف ما، أو أنه اقترف مالا يتفق مع الأدب، وإنما كان معتدا بنفسه كعملاق مارد ..!

وقالت له ، وقد أضفت على صوتها حنان الامومة :

– ماذا ذهب بلبك يا «داج» ؟.. لقد رثيت لك، وخجلت من تصرفك .. كيف تتحدث فى تحد هكذا وتسلك مثل هذا المسلك المعيب مع رجل كبير كهذا ؟ .. إننى أهيب بك أن تبادر فتعتذر له ..

ولم ينظر الفتى إليها .. بل تطلع إلى النافذة، وأجابها قائلاً :

– لا .. لن أفعل .. !

قال ذلك وهو مشيح عنها بنظره، يتطلع إلى النافذة كأنه يحدث الأشجار التى أمامه، وعجبت الأم لما بدا عليه من ثقة واعتداد بنفسه ، فعادت تقول:

– ماذا طرأ عليك يا «ادجار» ؟ .. تبدو كأنك تغيرت كثيرا حتى ليخيل لى أننى لا أكاد أرى فيك «ادجار» ابنى .. عهدى بك عاقلا لطيفاً يسهل التفاهم معك ، فإذا بك تنقلب فجأة شيطانا رجيما .. لماذا تحقد هكذا على البارون وقد كنت تتغنى بحبك له، كما كان من ناحيته رقيقا لطيفا معك ؟!

– نعم .. لقد كان كذلك لانه جعلنى قنطرة يرمى من ورائها إلى التعرف بك !

ووقع هذا الجواب منها موقع السهم المسموم ، فقالت :

- ما هذا الذى يجول بذهنك ؟ .. هل أنت من البلاهة بحيث تتصور شيئا كهذا ؟ .. ماذا يشغل بالك .. ؟

فصاح الفتى فى حنق :

- إنه مخادع وكاذب ، وكل أفاعيله تنطوى على الخبث .. لقد رآك وأراد أن يتعرف بك، فأخذ يتقرب منى ويتودد إلى ويتطلف معى إلى درجة أن وعدنى بأن يهدينى كلبا صغيرا جميلا، ولست أدرى بماذا وعدك أنت .. كما لا أدرى لمذا يتودد إليك ، ويصحبك كثيرا .. لاشك فى أنه يبتغى منك شيئا أو أمرا، وإلا ما اتخذ زيفا مظهر الرجل المهذب.. إنه رجل شرير.. يخدع ويكذب .. راقبيه فتنكشف لك حقيقته .. كم أبغض هذا الحقير النذل ..!

- ماذا دهاك يا «ادجار» ؟ .. ويحك ! .. كيف تخرج مثل هذه الالفاظ من فمك ..؟

وشعرت بالاضطراب، وتحيرت فلم تدر ماذا تقول بعد ذلك ، واستشعرت فى أعماقها بأن الفتى مصيب وعلى حق .. ثم استطرد «ادجار» قائلا :

- نعم إنه نذل وجبان ما فى ذلك شك ، وكان أحرى بك أن تفطنى إلى هذه الحقيقة .. واذا كان الامر غير ما أقول ، فبماذا تعللين خشيته منى وتهربه، إن لم يكن ذلك لانه يعلم تماما أننى أحدس نواياه السيئة، وأكشف خبثه وحقارته ..

- بالله عليك .. كيف تتكلم بهذه اللهجة وكيف تسمح لهذه الالفاظ أن تجرى على لسانك ..؟!

كان هذا أقصى ما وسعها أن ترد به، فقد شل عقلها فأضحى عاجزا عن التفكير، وزايله الصفاء فارتج عليها، ولم تنطق شفتاها إلا بتلك الكلمات التى أرادت أن تموه بها اضطرابها وارتباكها.. واختلط عليها الامر، فلم تعرف أيهما تخشى ، ابنها أم البارون، فاستولى عليها جزع أودى بالبقية الباقية من رشدها ، ولاحظ «ادجار» ما طرأ عليها وأدرك مبلغ تأثيره فيها،

فشد ذلك من عزيمته، وبعث فيه الامل بأنها ستكون فى صفه ضد البارون.. فاقترب منها فى دلال البنوة وأمسك بذراعها متوددا، وبدا صوته عذبا ناعما وهو يقول لها :

- ليس هناك شك فى أنك لاحظت سوء نواياه يا أماه، فمنذ أن دخل فى حياتك تبدلت حالك، ولست أنا الذى تغيرت.. فقد بث روح الكراهية لى فى قلبك، لسبب واحد هو أن يخلو له الجو معك.. إنه يخدعك ويريد أن يغرر بك، ولا أدرى بماذا وعدك، فهو كالحية الرقطاء لينة الملمس قاتلة اللذعة، وأنا أعرف تماما أنه لن يفى بوعد.. ثقى بما أقول، إن من يخدع واحدا يخدع غيره ما دام له هدف عنده.. إنه شخص سيىء لا ضمير له وليس جديراً بالاطمئنان إليه أو الثقة به ..!

وعجبت الام كيف يتحدث الفتى هكذا فى حكمة الشيوخ ، وخيل إليها أن هذا الصوت الناعم الذى تخنقه عبرات الاسى صدى لما يعتمل بين جوانحها، فقد راودها بالأمس إحساس بنفس هذه الكلمات ، راح يهيب بها فى إلحاح، ولكن الحياء منعها من أن تعترف برجاحة رأى الفتى ، فلجأت إلى الجفاء والغلظة، شأن من يضيق صدره بشعور مقبض يريد التخلص منه ، فقالت للفتى :

- إن من لا يزال فى طور الطفولة لا يدرك مثل هذه الامور، فليس لك وأنت ما زلت صغيرا أن تقحم نفسك فيها.. وتمسك بآداب السلوك ..!

فعاد التجهم إلى وجه الفتى، وبدا جامدا كالطود، وقال فى جفاء :

- انت وشأنك يا أماه.. لقد حذرتك وكفى ..!

- إذن فأنت تصر على عدم الاعتذار له ؟

- نعم .. لا أريد الاعتذار ..

وكانا وجها لوجه وهما يتحدثان، فأحست بأن مكانتها عنده قد تضاءلت بعد ما رأته من عناده وتشبثه برأيه، فقالت :

– إذن ستتناول وجباتك وحيدا فى غرفتك.. فلن تجلس إلى المائدة حتى تعتذر .. إننى أعرف كيف ألقنك السلوك السوى، الزم غرفتك ولا تبرحها حتى أسمح لك .. أتفهم ؟

ولم يجب الفتى واكتفى بالابتسام.. تلك الابتسامة الماكرة .. بيد أنه فى قرارة نفسه لم يكن راضيا عن مسلكه ، لقد أخطأ حين أفلت زمام نفسه تجاه البارون، فآثر الهدوء حتى لا يتكرر الامر مع أمه الكذوب ..

وغادرته دون أن تنظر إليه، فقد كانت تلذعها نظراته الثاقبة .. لقد ضاق صدرها به مذ أحست بذلك الوعى الذى هبط عليه، وأخذ يلاحقها ويحصى عليها حركاتها وسكناتها.. وهالها أن ترى ضميرها يتقمص هذا الفتى.. ابنها، فيحذرها ويسخر منها.. لقد كان فى نظرها مجرد ابن.. إحدى متع الحياة، تفرح بوجوده أو تتلهى معه أو تخصه بحبها، وقد يكون مبعث ضيق لها أحيانا، ولكنه أولا وأخيرا جزء منها، يكمل ناموس الحياة .. ولكن هذا الابن قد طفر فجأة وأخذ يقاوم ميولها ويعترض طريقها ويملى عليها إرادته فتولد فى نفسها إحساس بالكراهية له ..!

وغشيها بعض التعب وهى تهبط السلم، وتناهى إلى سمعها صوته الطفلى وكأنه منبعث من صدرها، يتردد فى أذنيها ويهيب بها :

– أحرى بك أن تحذريه ..

ولم تستطع أن تقبل هذا النذير الذى راح يلح عليها من أعماقها .. وصادفتها مرآة ، انعكس منظرها على صفحتها، فأخذت تتأمله فى تفكير عميق، وتأمل أن تغلغل إلى أغوار نفسها .. وانفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة، وكأنهما توشكان أن تطلقا كلمة سخرية ، وكان الصوت لا يزال يهيب بها فى إلحاح متواصل، ولكنها هزت كتفيها وكأنها تطرد هذه الهواجس، وحزمت أمرها ونزلت بخطى ثابتة .. وكأنها مقدمة على المحاولة الحاسمة الاخيرة .. !

وظل الفتى حبيسا فى غرفته، وحمل له الخادم الطعام إليها .. وإذ سمع صرير الباب، ثار محنقا .. لاشك أن أمه هى التى أرادت له ذلك، وكأنه حيوان يخشى أذاه ! وطافت برأسه مشاعر التفكير والاستنتاج والتساؤل :

- ترى ماذا يجرى الآن بعيدا عن عينى ؟ .. أية مؤامرة يدبرانها ؟.. هل يقدر لذلك السر أن ينكشف فى غيابى ؟ .. السر الذى أحس به عندما أكون بين الكبار، والذى يوصد عليه الناس الابواب فى الليل ويخفونه وراء قناع من الأحاديث التافهة حين أقبل على مجالسهم ؟.. ذلك السر الذى ظل يراودنى منذ أيام حتى لأكاد ألمسه لشدة قربه، ولكنى عاجز عن إدراك كنهه؟ ترى هل قصرت فى جهد أبذله فى سبيل كشفه ؟ .. لكم قرأت كثيراً من هذه الاشياء المشوقة دون أن أفهمها .. لابد أن هناك مفتاحا يجب أن أملكه لانفذ الى هذا السر، وربما كان المفتاح فى نفسى ، وربما كان فى نفوس غيرى .. لكم رجوت الخادمة أن تفسر لى ما استغلق على فهمه فكانت تسخر منى .. ما أبشع أن يكون المرء عاجزا عن الإدراك متعطشا إلى المعرفة لأنه صغير، لا سبيل له إلى سؤال الغير.. حقا ما أبشع أن أكون هكذا ألعوبة وأضحوكة لمن هم أكبر منى، ومخلوقا بهذه التفاهة لا شأن لى ولا يرجى منى نفع .. لابد لى من أن أهتدى إلى هذا السر.. إن قلبى يحدثنى بأننى لابد سأكشف عنه، فقد أمسكت بطرف الخيط ولن يهدأ بالى حتى يتكشف المستور ..!

وتناهى الى سمع الفتى أن ثمة خطوات تقترب، فأصاخ السمع .. ولكنها كانت ريح هبت فداعبت أوراق الشجر، فما لبث أن عاد الى الاستغراق فى تأملاته :

- لابد أنهما يسيران فى طريق معيب شائن، وإلا ما لجأ إلى الخداع والأكاذيب الدنيئة ليقصيانى هكذا بعيدا عنهما .. لاريب فى أنهما يسخران منى الآن، وأنهما مغتبطان إذ تخلصا منى، ولكننى قرأت أن من يضحك أخيراً يضحك كثيراً، لانه يكسب الشوط فى النهاية.. ما أشد غبائى حين

رضخت لأمر أمى وقبلت حبسى، فأتحت لهما الفرصة كى يسدرا فى غيهما دون رقيب يحصى عليهما حركاتهما وسكناتهما ، إننى أدرك أن الكبار يظلون على ظنهم بأن الاطفال صغار الاحلام على طول المدى، ويظنون أن همنا أن ننعم بالنوم فى ليلنا .. ناسين أننا على قدر كبير من المكر، وأن بوسعنا أن نتظاهر بالنوم ونحن مستيقظون منتبهون لما يدور حولنا .. بل ناسين أن باستطاعتنا أن نلبس مسوح البلاهة، ونحن أشد ما نكون يقظة وذكاء !.. فلقد سبق أن حدث أمر كان أهلى يرتقبونه منذ زمن، ولكنهم أظهروا الدهشة أمامى تمويها لى.. إذ كنت قد سمعت أبى وأمى يتحدثان به منذ أيام وهما يحسبانني نائماً .. إننى سأفاجئ هذين التعسين فى مغامرتهما الوضيعة هذه المرة .. كم أتمنى أن أسترق السمع وأن أرقبهما خلسة خلال الباب، بينما يظنان أنهما بمنجاة منى لأنى حبيس .. ماذا لو دققت الجرس فتأتى الخادمة وتفتح الباب .. وماذا لو أثرت ضجة وجلبة أو حطمت زهرية أو إناء فيفتحون الباب ليتبينوا ما حدث ، فأنتهز الفرصة وأندفع الى الخارج وأسعى لمراقبتهما .. ولكن ذلك يحط من شأنى ، فلا ينبغى أن يعلم بمهانتى منهما أحد .. لاقنع بها الأن، فلسوف تدور عجلة الزمن فأكيل لهما الصاع صاعين .. !

الفصل الحادى عشر

ترقب وتحفز!

اعترت الفتى رجفة، فقد تناهت الى سمعه ضحكة عابثة ناعمة، لاشك فى أنها ضحكة امرأة، تنبعث من الطابق الأرضى، فأخذ يتساءل :

- ترى هل هى ضحكة أمه .. فلتضحك الآن ملء شدقيها هازئة منى وأنا حبيس لائذ بأحد الأركان كأننى كلب مشدود ، ما دام وجودى ليس مرغوبا فيه ..

وأشرأب عنقه ، وأطل من النافذة فى حذر، فتبين أن الضحكة لم تكن لأمه، وأن التى أطلقتها فتاة ضمن حفنة من الفتيات الماجنات رحن يتعابثن مع أحد الشبان، وفطن الى أن النافذة قريبة من مستوى الارض، فخطر له أن يقفز منها ويسعى الى مراقبتهما وهما يظنان أنهما بمأمن من عيونه .. فاستشعر الغبطة لهذه الفكرة، وخيل إليه إنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من السر الخطير، وألح عليه هاتف فى أعماقه :

- أسرع .. ولا تفلت الفرصة ..

وكان الطريق غير مطروق ، فلم يخش أن يكشف أمره أحد .. وكالعصفور الصغير قفز من النافذة، وأحدث هبوطه على الارض صوتا لا يكاد يسمع، وكان قد استمرأ المراقبة خلال اليومين الماضيين ، ولكنه الآن أحس بشعور مبهم من التوجس والانقباض وهو يختلس الخطوات حول الفندق فى حذر، وتجنب الأضواء حتى لا ينكشف أمره .. وابتدأ بقاعة الطعام، واسترق إليها النظر فلم يجدهما ، وهكذا أرسل بصره خلال النافذة تلو النافذة دون أن يجسر على التسلل إلى الداخل خشية أن يكونا فى إحدى الردهات فيريانه، وساوره اليأس حين لم يعثر لهما على أثر، وفجأة لمح شبحين عند الباب ، فتراجع مضطربا وتوارى فى الظلام .. كانت أمه تتأبط ذراع البارون الذى أصبح أنيسها وجليسها .. إذن فقد حالفه التوفيق وظهر على المسرح فى الوقت الملائم .. ترى بماذا يتحدثان فى خفوت لم يستطع معه أن يتبين الكلمات؟ ،زاد من ذلك أن الريح كانت

تعصف .. وتناهت إليه ضحكات أمه، ضحكات منفعلة لا عهد له بها .. ومادامت تضحك ، فليس ثمة شر، وبالتالى ليس هناك ما يوحى بأنهما يخفيان عنه أمرا جللا .. فشعر بخيبة أمل .

وتساءل الفتى ترى ماذا يضطرهما الى مغادرة الفندق وحدهما فى جوف الليل ، والى أين يقصدان؟ .. لقد كانت فى الجو نذر رياح عاصفة، وفجأة اشتدت حلة السماء بعد صفاء وإشراق، حتى أصبح من العسير تبين موضع القدم، ولكن كوكبا لم يرقه ذلك، فتخلص من غلالته وغمر المكان بضوء فضى .. وهكذا تعاقبت الظلمة والضوء ، وكأن قبة السماء حسناء تتقنع ثم تسفر ، وأخيرا استقر الصفاء على صفحة السماء، فلمح الفتى شبحى البارون وأمه يسيران .. وكانا ملتصقين وكأن شعورا بالهلع يلفهما ، حتى لقد ظنهما شخصا واحدا، ترى ما وجهة هذين الآثمين؟.. وكانت الغابة تبعث الرهبة فى النفس فى ذلك الليل البهيم، وأشجار الصفصاف ترسل أصواتا تضاعف من شعور الخوف .. وكأن وحشا ضاريا أخد يروح ويجىء سعيا وراء فريسة .. وقال «ادجار» يحدث نفسه:

– سأتبعهما ولن يريانى فى ذلك الظلام أو يحسا بى أو بخطواتى ، لأن الريح تعصف فتتلاشى بجانبها جميع الأصوات ..

وتابعهما بنظرة وهما يهبطان الطريق المنحدر ، متواريا وراء الأشجار والظلال، فى إصرار ومثابرة وعناد .. مغتبطا بالريح التى حالت دون تنبههما له ، وناقما عليها لأنها حالت دون سماع حديثهما .. وقفزت إلى ذهنه فكرة وهى أنه لو أمكنه أن يجتلى أسارير وجهيهما فسيقرأ فيها السر..!

ورآهما يتوغلان فى السير، لايلويان على شىء ، وقد انتشيا بالسعادة لخلوتهما الآثمة فى هذا الليل الساكن والزاخر بشتى الأفاعيل ، واستسلما لنشوتهما الجياشة، دون أن يدور بخلدهما أن على كثب منهما فى تلك

الظلمة، عينا ساهرة تقتفى اثرهما وتتبع خطواتهما .. عينا زاخرة بالفضول مفعمة بالحقد والكراهية ، لا تطرف عنهما لحظة .. !

وفجأة توقفا عن المسير .. فتوقف الفتى تبعا لذلك، وتوارى خلف شجرة، وشعر بمزيج من الحنق والخوف .. كيف يكون الأمر لو أنهما قفلا راجعين، ولم يكن باستطاعته أن يصل إلى غرفته قبل وصولهما .. لسوف تفشل خطته وتنهار، لأنهما سيفطنان الى أنه يراقبهما فى غفلة منهما ، وسيذهب أمله هباء فى انتزاع سرهما الذى يهفو الى معرفته جاهدا .. ولاح عليهما التردد ، بينما لم يكن هو هدفا لضوء القمر ، فلم يتبيناه ، وإن كان يراهما فى وضوح ..!

ورأيا ممرا ضيقا يؤدى الى الوادى المنبسط ، شاعت فيه الظلمة، إلا من ضوء ضعيف يتسلل إليه .. فأشار اليه البارون ، ودهش الفتى لماذا يريدان أن يعبراه ، وبدت هى وكأنها ترفض فراح البارون يحثها ملحا ، واشتد الحمق والخوف بالفتى .. ماذا يبغى هذا اللعين من أمه إذ يستدرجها الى ذلك المكان المظلم.. ومما كان قد قرأه ، دار بخلده أن البارون مقدم على اقتراف جريمة قتل .. قتل أمه ، وأنه لذلك عمد إلى اقصائه .. فهل يستغيث مستنجدا ؟ ..

وهم بأن يصيح ، ولكن حلقه جف فلم يستطع .. وتوترت أعصابه لشدة الانفعال، وأحس بدوار وكاد يهوى إلى الأرض ، فتلمس ما يستند إليه ، وانكسر الغصن الذى أمسك به فأحدث صوتا اجفل منه الفتى كما بعث الرعب فى الشريكين ، فحملقا فى الظلام يستطلعان ما جرى ، فتوارى هو خلف الشجرة وظل ساكنا لا يتحرك ، ولفه الظلام فلم يش به .. وعاد السكون الى المكان، بيد أنهما ظلا متوجسين ..!

وإذ كان القلق لا يزال مستحوذا عليهما، فإن البارون لم يمانع حين أشارت عليه بالعودة، فقفلا راجعين فى خطى حذرة بطيئة وقد تلاصقا ..

واستشعر الفتى متعة لاضطرابهما وألمهما، وإمعانا فى التخفى ، زحف على يديه وقدميه متسللا حتى اجتاز الغابة، ثم راح يعدو بأقصى سرعته حتى بلغ الفندق، فصعد وفى لحظة كان مستلقيا على الفراش، وظل ساكنا فترة من الوقت يتصنت ، وقد اشتدت ضربات قلبه لشدة الجرى .. وبعد أن استعاد قواه وهدأت أنفاسه ، نهض الى النافذة واستند اليها بمرفقيه، وأخذ يرقب عودة اللعينين ..!

وطال انتظاره، إذ لابد وأن القلق والتعب قد نالا منهما، فسارا فى وهن وبطء، بيد أنه ظل ينتظرهما فى حذر وجلد، حتى لاحا له يتقدمان وئيدا، وقد انعكست أشعة القمر على ملابسهما فبديا كطيفين .. وعاد الفتى يتحدث الى نفسه متسائلا :

– ألم يكن القتل نية الرجل،، أم حال تسلله والصوت الذى احدثه الغصن الذى كسر دون اتمام الجريمة الرهيبة ؟! ..

وعندما اقتربا ، رأى وجهيهما، واتضحت له معالمها .. فلاحا له فى بياض الثلج، وقد نمت أسارير أمه عن شعور بالغبطة، أما البارون فكان على النقيض ، بدا عابسا مستاء .. ربما لإخفاقه فيما كان ينتويه ..

وإذ صارا على قيد خطوات من الفندق، افترفا .. ولم يفكر أحدهما فى التطلع إلى أعلى ، حيث النافذة التى يطل منها .. فعلل الفتى ذلك بأنهما نسياه ، واستبد به حنق اختلط باحساس خفى بالانتصار ، وقال لنفسه :

– إنكما تحسبان أننى أغط فى النوم .. إنكما جد واهمان ، فإننى يقظ.. مترقب .. متحفز .. لم انسكما .. سأثابر على مراقبتكما حتى أكشف عن السر الرهيب الذى اقض مضجعى ، فجافانى النوم.. سأفرق بينكما ، فلست نائما أو غافلا أو أبله ..

ودلف الاثنان من باب الفندق، الواحد تلو الآخر .. دون أن يدور بخلدهما أنه لهما بالمرصاد ..!

الفصل الثانى عشر

أزمة حادة

ارتد الفتى عن النافذة لاهثا يرتعد خوفا ، فقد أحس بأنه أضحى عن كثب من السر ، وكان يحسب أن ما قرأه في الكتب من أقاصيص المغامرات، من وحي الخيال ، بعيدا عن الواقع.. فإذا به يرى نفسه يعيش في هذه المغامرات والانفعالات، فارتعد لذلك كيانه .. ترى من يكون هذا المتطفل الذى أقحم نفسه فى حياته وحياة أمه ؟ .. أهو سفاك ويستدرج أمه إلى الخلوات والظلام ليفتك بها؟.. أغلب الظن أن حدثا جللا كان يوشك أن يقع .. أحرى به أن يكتب لأبيه أو يبرق إليه فى الصباح.. ولكن ربما وقع المحظور فى ليلته هذه، فإن أمه لا تزال مع ذلك الرجل البغيض ، لم تصعد بعد إلى مخدعها ..

واختفى الفتى خلف ستارة فى مكان مظلم بالردهة ، يرقب عودتها المتأخرة .. فقد آلى على نفسه ألا يغفل عنهما ، وانتصف الليل، وأقفرت الردهة وخفت ضوؤها ، ومضى الوقت متثاقلا .. وأخيرا تناهى الى سمعه وقع خطوات تصعد ، فأرهف السمع .. لم تكن مشية شخص يسرع الى غرفته ، بل كانت خطوات بطيئة مترددة، كأن سلحفاة تزحف.. وأصاخ السمع ، فتناهت إليه همسات بين الحين والحين ، يتبعها توقف عن السير .. فطغت على الفتى موجة انفعال حادة : ترى هل هما قادمان، وهو لا يزال فى رفقتهما ؟ وغدت الخطوات أكثر وضوحا ، وتبين صوت البارون يهمس، فتجيبه أمه قائلة :

– ارجوك لا .. ليس الليلة

وازداد ارتجاف الفتى ، وتضاعف ضربات قلبه، لأنه باقترابهما يسمع ما يقولان ، وشعر بالتقزز من صوت الرجل وهو يتوسل اليها ويتذلل فى إلحاح .

– اطرحى هذا العناد، وخففى من حدة تلك القسوة.. لقد كنت بالغة الروعة والجمال هذا المساء ..

– ارجوك .. اعفنى .. لا يحق لى ذلك ولا أستطيعه .. اتركنى .. ابتعد عنى .. !

واعترى الفتى رعب جائح .. إن أمه تتنهد فى حرارة .. ماذا يخيفها؟.. ماذا يريد منها الوغد ؟ .. إنهما يدنوان من الباب، وهو فى مخبئه يرتعد خوفا ، ثم سمعه يقول :

– هيا ياماتيلدا .. تعالى .. !

وكان تنهدها هذه المرة واهنا .. فقد ابتدأت مقاومتها تضعف وتتضاءل .

وواصل الاثنان السير ، ومرت أمه بمخدعها ولكنها لم تدخل .. فإلى أين هى ذاهبة ؟ .. ولماذا لا يسمع صوتها ؟ .. هل ناولها مخدرا ؟ .. وكاد الفتى يجن ، وبيد مرتشعة وارب الباب فرآهما ، وقد احتوى النذل أمه بين ذراعيه وراح يجذبها فى رفق ، وبدت مستلسمة لا تبدى مقاومة، حتى بلغا غرفة الرجل، وظن الفتى أنه سيدفعها قسرا ليرتكب جرمه .. فجن جنونه ، وفتح الباب فى عنف ووحشية، واندفع نحوهما ، فارتدت الأم مذعورة وصرخت صرخة مكتومة إذ رأت من يندفع نحوها بغتة فى الظلام، وبدا كأنه أغمى عليها .. وعاونها الجبان حتى لا تسقط على الأرض، وأحس فى تلك اللحظة بلطمة تسحق وجهه وشفتيه ، رغم اليد الواهنة الصغيرة التى هوت بها ، كما أحس بمن يتشبث بجسمه وكأنه قط متوحش أنشب مخالبه فى فريسته .. فترك المرأة التى فرت مبتعدة وقد تملكها الفزع دون أن تتبين ذلك المهاجم، بينما راح البارون يدافع عن نفسه وينهال لطما على غريمه ، ولم يتهيبه الفتى رغم الفارق بين عمريهما وقوتيهما ، فقد أراد أن يثأر لحبه الموءود .. فراح فى هياج يكيل اللطمات منفثا عن البغض الذى يكنه للرجل، وتبين البارون خصمه الذى يمقته لتجسسه وتعكير صفو أيامه ، والذى حال بينه وبين بلوغ مشتهاه ، وراح الفتى فى فورته يكيل الضربات للرجل دون أن ينسحب أو يستغيث ، وخجل البارون من نفسه أن ينازل طفلا، فهم

بإبعاده عنه .. ولكن الفتى عض بوحشية يد غريمه التى أمسكت برقبته ، فصرخ البارون من الألم ، وجذب يده ، فهرول الفتى الى غرفته ودخل ثم أوصد الباب .. !

كانت المعركة خاطفة فى ذلك الليل .. فلم يسمع بها أحد، وكأن شيئاً لم يحدث، ومسح البارون بمنديله يده الى أدمتها عضة الفتى ، وراح يجيل بصره ، فأدرك أن أحدا لم ير ما حدث .. ولكن خيل له أن الكون يسخر منه.. !

واستيقظ الفتى فى صبيحة اليوم التالى ، فوجد شعره مشعثا .. وأحس بأنه نهب لألم ممض ، فراح يتساءل فى حيرة :

– أحل بى كابوس مزعج فى نومى ؟ ..

وأحس بدوار يرهق رأسه ، وباضطراب ، وأدهشه أن يجد نفسه مازال بملابسه .. واتجه نحو المرآة ، فطالعه وجهه شاحبا ، وجبينه قد تورم وامتلأ بالكدمات والخطوط الحمراء .. وشيئا فشيئا استعاد هدوءه ، وتذكر والأسى يعتصر نفسه ماحدث .. تذكر المعركة والعودة الخاطفة، وأنه ارتمى على فراشه دون أن يخلع ملابسه متأهبا للهرب، فاستسلم لنوم مضطرب تخلله الفزع ، حتى راح دمه الفائر يتجمع على أنفه!

وعادت الحركة والحياة إلى الطابق الأرضى ، شأنه كل صباح .. وغمرت أشعة الشمس غرفة الفتى ، فأدرك أن النهار قد تقدم، ونظر الى ساعته التى خانته وتوقفت عن الدوران لأنه نسى فى انفعاله أن يملأها .. فاغتسل وصفف شعره وأصلح من هندامه بسرعة، ثم هبط الى الطابق الأرضى وقد اعترته صدمة نفسية واحساس بأنه اقترف إثما .. !

ورأى أمه فى قاعة الطعام ، وقد جلست بمفردها الى مائدتها ، وتنفس الفتى الصعداء حين لم يلمح غريمه، وتمنى ألا يرى ذلك الوجه المقيت الذى كال له بالأمس اللطمات ، واقترب من المائدة فى حذر ، وحيا أمه فى أدب

جم تحية الصباح ، ولكنها لم ترد على تحيته .. بل ولم تكلف نفسها عناء النظر إليه، فقد جالت ببصرها فى الفضاء المترامى الممتد أمامها ، وبدا وجهها بالغ الشحوب وعيناها فى نصف إغماضة، وطرف أنفها يختلج تلك الاختلاجة التى يعرفها والتى تنم عن اضطرابها، فجز الفتى على شفتيه .. إن صمتها يزعجه وهو لا يعلم مدى إصابة البارون ، ولا يعرف إن كانت أمه تعلم بالمعركة، فآلمه ذلك، وبدا له وجه أمه الساكن مبعث قلق له ، حتى لم يجرؤ على مجرد التطلع إليها ، خشية أن تباغته وتحدق فيه !

ولاذ الفتى بالصمت ، فلم يتكلم .. ولم يجرؤ على أية حركة، حتى لقد حرص أن يرفع قدحه ويعيده فى حذر شديد كى لا يحدث صوتا، وراح يختلس النظر بين الحين والحين إلى أنامل أمه التى كانت تعبث بالملعقة فى حركات عصبية تنم عن غضب كامن ..! وظل على تلك الحال مدة ربع ساعة، فى انتظار ما تتمخض عنه الأمور ، ولم تلفظ أمه لفظاً يزيح عنه بعض اضطرابه ، وعندما نهضت، متجاهلة وجوده ، اختلط عليه الامر .. فلم يدر ماذا يفعل ، أيبقى جالسا أم ينهض هو الآخر ويصحبها ، وآثر النهوض فنهض وتبعهما فى ذلة ، وتظاهرت بأنها لا تراه ، وأحس الفتى بالخجل بسيره هكذا فى أعقابها ، فأخذ يتمهل فى السير حتى تبعد عنه .. إلى أن بلغت مخدعها ، فدخلت وأغلقت الباب فى وجهه .. !

ترى ماذا حدث ؟ .. .. لقد تحولا وكأنهما شخصان غريبان .. ففارقته طمأنينة النفس، هل جانب الصواب بمهاجمته البارون؟ أم هل يعدان له عقابا جديدا؟.. إنه يشعر أن حدثا رهيبا يوشك أن يقع، وتلوح فى الجو بوادر عاصفة توشك أن تحدث بينه وبين أمه ويحس أنها واقعة لا محالة .. لقد ظل ساعات طوال يذرع ردهات الفندق وقاعاته وهو ينوء تحت وطأة هذا الاحساس ، حتى ضاق به وجدانه الغض.. وحان موعد الغداء فجلس إلى المائدة كسيرا ذليلا..!

وحيا «إدجار» أمه فى هذه المرة أيضا ، لأنه يريد أن يضع حدا لهذا الصمت الرهيب الذى يثقل عليه .. ولكنها لم ترد على تحيته ، بل ولم تنطلع إليه، فأحس الفتى بأنه أمام أزمة حادة، وموقف لا عهد له به مع أمه ، إن خلافاتهما السابقة كانت مجرد خلافات بسيطة سطحية ، تزول بابتسامة أو اعتذار ولا تترك أثرا ، أما فى هذه المرة فإن الأمر يبدو مختلفاً، ويظهر أنه أثار فى أمه شعورا عميقا ، وهو الآن يتوجس من ذلك .. وتناول طعامه وكأنه سم زعاف .. إنه كاد يختنق ، دون أن تأبه له .. وكأنها لا تلحظ شيئا، والمرة الوحيدة التى أبدت فيها ما ينم عن شعورها بوجوده كانت حين نهضا، إذ استدارت وكان ذلك مصادفة وقالت له :

– هيا بنا نصعد يا «ادجار» .. فإن لدى ما أقوله لك .. لم تقل ذلك بلهجة الأمر أو التهديد .. بل نطقت به فى منتهى الهدوء، حتى لقد توجس .. لقد حطمت كبرياءه وأذلت نفسه فتبعها كالكلب الذليل..

واحتوتهما الحجرة.. وظلت صامتة فترة ثقلت وطأتها على نفسه لفرط ما يعانيه وما يعتمل فى داخله ، وكان الصمت مطبقا حتى لقد سمع دقات ساعته ، وأخذت نبضات قلبه تدق تباعا .. كما كانت هى تعانى انفعالاً جائحا ، فكانت تتحاشى النظر إليه وهى تخاطبه وتشيح عنه بوجهها .. ثم ابتدرته قائلة :

– لن أتحدث عن تصرفك بالأمس .. إنها فضيحة مخزية يخجلنى مجرد التفكير فيها .. أنت المسئول عنها وستتحمل تبعتها، وكل ما أريد أن أفضى اليك به، أن ليس لك بعد الآن أن تجلس بين من يكبرونك، لقد بعثت إلى أبيك بذلك ، لكى يتخير لك رائدا أو يلحقك بالقسم الداخلى بإحدى المدارس .. حتى تتعلم آداب المعاشرة، فلست أريد أن أقاسى من جرائك وأتعذب ..

استمع إليها الفتى وقد وقف مطأطأ الرأس ، وأحس بأن ما ذكرته ماهو إلا تمهيد لما سيليه .. للموضوع الذى ينتظره فى قلق .

واستطردت الأم قائلة :

– وأول ما يجب أن تفعله أن تذهب فورا وتعتذر للبارون : وإذ سمع الفتى ذلك ، ارتعدت فرائصه .. وهم بأن يتكلم ولكنها لم تسمح له ، وأردفت:

– على أنه قد رحل اليوم .. لذلك ستكتب له خطابا أمليه عليك ..

وعاوده الارتجاف ، ولكن أمه لم تكترث لما اعتراه ، بل قالت فى حزم :

– ليس لك أن تعترض .. هاك الورق والقلم .. اجلس لتكتب ما أمليه عليك ..

الفصل الثالث عشر

هارب من الجحيم

نظر إليها الفتى وقد تحجرت عيناه خضوعا وامتثالا، فإنه لم يعهد أمه قبل الآن حاسمة هكذا ، فجلس وتناول القلم، ومال برأسه على المائدة .. وأخذت أمه تملي عليه بعد أن أرشدته الى كتابة التاريخ :

«سيدى .. بلغنى مع الأسف الشديد أنك غادرت «سيمرنج» ، ويحمل خطابى هذا ما كنت مزمعا أن أفعله شخصيا .. أى أننى أرجو أن تقبل أسفى على مسلكى بالأمس واعتذارى عنه ، ولعلك تذكر أن أمى أخبرتك أننى فى دور النقاهة من مرض خطير خلف فىَّ توترا فى أعصابى ، فأتهور فى بعض الأحيان وأقدم على أفعال أستشعر الندم عليها بعد ذلك ...»

وما أن انتهى الفتى من الكتابة، حتى اعتدل منتصبا .. ثم استدار ، وقد عزت عليه نفسه فاستكثر ذلك على كبريائه، وصاح فى وجه أمه :

- لن أسطر هذا .. لأنه يتعارض مع الحقيقة .. !

- ادجار .. ماذا تقول ؟ ..

- ليس ذلك صحيحا .. أننى لم أقترف شيئا أندم عليه، أو أعتذر عنه ، قد بادرت الى نجدتك عندما استنجدت ..! وغاض الدم من شفتى الأم ، فشحبتا .. واهتز طرف أنفها وهى تصيح :

- تقول إننى استغثت مستنجدة؟.. إنك تهذى ! .. أصابك خبل!..

فاستشاط الفتى غضبا ، ونهض فجأة وهو ينتفض ، وقال لها :

- نعم ، حدث ذلك فى الردهة مساء أمس .. فقد سمعت استغاثتك عندما أمسك بك ، فصحت فيه بصوت مسموع : «اتركنى .. اتركنى ..» ، وقد سمعت صياحك وأنا فى غرفتى .. !

- أنت كاذب .. فما كنت معه فى الردهة ، لأننى افترقت عنه عند أول السلم .. !

- وغاظه هذا الكذب الجرىء ، وكاد ينفجر .. ثم حدق فى أمه وجابهها .

– أحقا لم تكونى فى الردهة .. معه ؟ .. واحتواك بين ذراعيه ؟ .. وضربك بقبضته .. ؟!

فانفرجت شفتاها بضحكة جافة فاترة، وقالت :

– لقد كنت تحلم .. !

وكان يعلم أن الكذب والخداع ميسوران .. أما إنكار الحقيقة والواقع فى غير حياء أو خجل فمما لا تحتمله النفس، لذلك ثار الفتى فسألها ، وهو يشير إلى الكدمات التى أصابته :

– وهذه الكدمات الدامية .. أهى من آثار الحلم أيضا ؟..

– كيف لى أن أعرف .. كيف، أو ممن ، أصابتك .. لا داعى للجدل.. عليك أن تطيع وتكتب .. !

وبدت شديدة الشحوب .. تكاد لا تستطيع الاحتفاظ برباطة جأشها..

وبغتة انبثق من أغوار الفتى قبس انبعث من وجدانه ويقينه، وعجب كيف تطمس الحقيقة وتمتهن كأنها عود ثقاب ينطفىء .. فشعر بالتقزز ، وراح يتكلم آسيا دامى الفؤاد :

– أكان حلما .. ماحدث بالردهة؟ .. وهذه الكدمات الدامية ؟.. ونزهتكما بالأمس فى الخلاء يشهد عليكما القمر، ورغبته فى السير بك عبر الممر المنحدر ؟.. هل تراءى لى كل ذلك فى الحلم ! .. أظننت أننى أقبل الحبس فى غرفتى .. كلا ثم كلا .. ! لست أبله بالدرجة التى تظنينها .. إننى أعرف كيف أتصرف .. !

وأشاح عنها بوجهه فى أنفة .. وإذ رأت منه هذه المكابرة، زايلها هدوؤها، واحتقن وجهها وفاض بالكراهية، وانطلقت فى غضب تقول:

– والآن .. اكتب فورا ، وإلا .. !؟

فتحداها مستثيرا إياها :

– وإلا ماذا .. ؟

- وإلا انهلت عليك ضربا .. !

ولم يتهيب الفتى ، بل اقترب منها وأطلق ضحكة زخرت بالسخرية، فصفعته على وجهه .. فصاح وشعر بألم فى أذنيه وطنين، وأخذ يطوح قبضتيه على غير هدى ، وبدت له الدنيا حمراء ، وأحس بأنه أصاب بقبضتيه وجها ، وسمع صرخة، ردته إلى رشده .. لقد ضرب أمه وهو مالا يصدقه، فاستبد به ألم ممض وخزى شامل ووجل شديد، ورغب فى أن يهرب ، وتمنى لو انشقت الأرض وابتلعته ، وقفز نحو الباب وهبط السلم مسرعا وغادر الفندق ، وانطلق يعدو فى الطريق لا يلوى على شىء..

ونال منه الإعياء فوقف واستند الى شجرة، وساقاه ترتجفان وأنفاسه لاهثة، فقد هاله ما فعل، وشعر بوخز كاد يخنقه .. ترى ماذا يفعل ؟ .. وأين يلتمس المأوى ؟ .. وعذبته الوحدة رغم أنه كان قريبا من الفندق ، وخيل اليه أن أحدا لا يكترث له وأن لا سند له فى هذه الدنيا .. حتى الأشجار التى كانت حانية عليه بالأمس، قست بغتة وبدت وكأنها تتحفز للانقضاض عليه ، ولم يدر بخلده ما ينتظره من أمور أشد قسوة وإيلاما..! وأحس بلوعة إذ وجد نفسه وحيدا فى خضم الحياة.. بمن يلوذ ؟ .. إنه يخشى أباه السريع الغضب ، فقد يطرده ، كما لا يستطيع العودة إلى أمه وقد صفعها ، على وجهها ، فشعر بالرغبة فى خوض المجهول .. وتذكر جدته العجوز الطيبة القلب التى كانت تغمره بحنانها وتقف الى جانبه إذا تعرض لعقاب أو تأنيب .. إذن فليذهب إليها فى «بادن» ريثما يعتذر لأبويه بخطاب.

وأشعرته الوحدة بالذلة، لصغر سنه وافتقاره الى المعرفة والتجربة.. فسخط على اعتزازه بنفسه، وتمنى أن يظل طفلا طيعا مجردا من العناد، وتساءل كيف السبيل إلى «بادن» والشقة بينه وبينها بعيدة، وفرح حين تذكر أنه يحتفظ بقطعة نقود ذهبية من ذات العشرين فرنكا لم ينفقها ، كانت قد أهديت له فى عيد ميلاده .. ولكن هل تكفى ؟.. إنه يجهل تكاليف الأسفار،

وتبين عدم إلمامه بالكثير من شئون الحياة، وأن المعلومات العامة بالأمور لها قيمتها..

واشتد تردده ، وتعثر في سيره ، عندما اقترب من المحطة ووقف يتطلع الى مبناها فى وجل، وانحصر تفكيره فى قطعة النقود التى معه وهل تكفى لسفره إلى جدته، وراح يتأمل القضبان الممتدة، وكادت المحطة تكون خالية.. واتجه بقلب واجف الى نافذة التذاكر، وسأل هامسا مرتبكا عن ثمن التذكرة، ودهش الموظف لهذا السؤال من فتى صغير، وأجابه بأن ثمن التذكرة الكاملة ستة كورونات ، فألقى الفتى مغتبطا مزهوا بقطعة النقود التى يعتز بها إلى الموظف وطلب التذكرة ، ثم تناول ما تبقى من النقود ، فشعر بأن جيبه لا يزال عامرا ، وانتظر قدوم القطار وقد انزوى فى ركن بالمحطة ، وكان على الرصيف بعض الأشخاص ينتظرون القطار مثله، ظن الفتى أنهم يرمقونه بنظراتهم، وبدا لهم أنهم يدهشون لسفر فتى صغير مثله بمفرده .. بل لقد خيل إليه أن ذنبه يشى به .

وتنفس الصعداء حين سمع صوت القطار يقترب .. وتبين بعد أن ركب أن تذكرته بالدرجة الثالثة، وقد كان يركب فى أسفاره مع أبويه فى الدرجة الأولى ، فعرف أن الناس طبقات وأن البعض يمتازون عن البعض الآخر ، وكان لا يفطن الى ذلك قبل الآن ، وجلس أمامه عمال أصواتهم خشنة ويمسكون فئوسا، ارتسم التجهم فى عيونهم .. ولابد أن أعمالهم أضنتهم ، فقد استسلم بعضهم للنوم، وأدرك الفتى أنهم يكدون من أجل الحصول على المال، كما أدرك أن فى الحياة طبقات مترفة كالطبقة التى يعيش فى محيطها، ومستويات أخرى زاخرة بالآلام والمشاق ..

وألقى الفتى بصره خلال النافذة فامتلأ إعجابا بجمال الطبيعة وإبداع الكون .. وعلى الرغم من أنه استشعر الخوف لهروبه على هذه الصورة، فإنه

أحس فى الوقت نفسه باستقلال ذاته وبالاعتداد بنفسه وبأنه أقدم على عمل واقعى بإرادته .

وحز فى نفسه أنه ربما غدا مبعث حيرة وقلق لأبويه، فراح ينظر إلى الدنيا بعين تكشف عنها الغموض الذى كان يحجب عنه مغاليق الأمور قبل اليوم، وخيل إليه أنه أصبح يدرك طبيعة الأشياء وكنهها وحوافزها .. ولاحت له المنازل كأنها أسراب حمام طائرة لفرط سرعة القطار، واتجه بفكره إلى ساكنيها ، وراح يتساءل : أهم فى رغد من العيش أم مدقعون ؟ .. سعداء أم تحت وطأة الشقاء يرزحون .. ؟ أتراهم مثله يتوقون إلى تنوق منابع المعرفة.. المعرفة بكل شيء ؟ .. وهل أطفالهم لا يحفلون بغير اللهو واللعب ، كما كان هو من قبل ؟ .. وأدرك أن كل من يراه يعمل فى الحياة ويكدح إنما يفعل ذلك من أجل العيش وتنازع البقاء ..

وضاعف القطار من سرعته وهو يتجه الى الوداي، مخلفا وراءه منطقة الجبال التى أخذت تتوارى ، فرأى السهل المنبسط .. ثم التفت مرة أخرى الى الجبال التى أخذت تتضاءل أمام ناظريه لبعدها ، فغدت كضباب يتأرجح، أو ما يشبه الظلال المتراقصة..

وعندئذ خيل إليه أنه أودع طفولته فيها .. تلك التى أخذت تتلاشى شيئا فشيئا أمام عينيه .. !

***

وأخيرا وصل القطار إلى «بادن» ، وغشيت «إدجار» سحابة من الكابة عندما وجد نفسه وحيدا على رصيف المحطة الذى غمرته الأضواء المختلفة الألوان .. وفطن إلى أن الليل قد أقبل، لقد كان يستشعر الطمأنينة فى النهار الزاخر بالناس وجلبتهم ، تسرى عنه رؤيتهم فى غدوهم ورواحهم ، أما الآن فكيف يكون حاله وسط هذا الظلام والفراغ ، فقد آوى الناس إلى بيوتهم، وأحس بعزلة اشتدت وطأتها على نفسه، وشعر بأنه شريد هائم

تلاحقه جريرته .. فعقد العزم على أن يلجأ إلى مكان يأويه ويقيه شر بيئة غريبة عنه ، وانطلق متجها إلى منزل جدته ، عبر الطريق الذى يعرفه.. ويقوم المنزل فى بقعة جميلة، تلفه أشجار حديقته، وقد لاح خلال تلك الأشجار كأنه شعلة، من لهب بسقفه الأحمر .. وتطلع الفتى خلال سياج الحديقة، فوجد السكون يشمل المكان، حتى النوافذ كانت مغلقة ، وحدس أن هذه حال الواجهة، وأن سكانه فى الجانب الآخر، ووضع يده على مزلاج الباب، واستشعر عندئذ إحساسا غريبا : كيف يواجه جدته وكان يظن أن مواجهتها أمر عادى لا غرابة فيه ، وكيف يجيب عن أسئلتها ويتقبل نظرات الدهشة التى ستجابهه بها حين يجهز لها بفراره ، وكيف يبرر مسلكه الشنيع ؟! ..

وفتح الباب فجأة، فارتد الفتى مذعورا خشية أن يفاجئه أحد .. وأخذته الحيرة أين يذهب.. ووقف هنيهة أمام متنزه البلدية الذى خيم عليه الظلام، فعن له أن يستريح على أحد مقاعده ويفكر فى حاله.. فدلف إليه، وبدت له مصابيحه الواهنة خلال الأشجار كأنها أشباح .. وأوغل فى السير ، وخفق قلبه إذ مر ببعض أشخاص جلسوا يتحدثون، لقد ضاع أمله فى العزلة التى ينشدها .. ويمم شطر الممرات المعتمة ليخلو إلى نفسه فيها ، بيد أنه وجدها زاخرة بمزيج من الهمسات والضحكات والتنهدات مختلطة بحفيف الأشجار وأزيز الرياح ، فعرف أن الإنسان دائب الحركة تماما كالطبيعة التى لا تسكن ولا تهجع .. وأحس بهواجس أثارت فى نفسه القلق من تلك الحياة النابضة بنشوة الربيع، فاستشعر الألم والاضطراب ..

وانطوى على نفسه فوق أحد المقاعد يلفه الظلام الموحش، وراح يفكر فيما يفعله ويقوله لجدته، تاهت أفكاره واختلط عليه الأمر .. ودون إرادة منه كان يستمع إلى الهمسات والتنهدات والحركات المبهمة، وبالرغم من أن الظلمة كانت تفزعه، فقد رأى فيها فتنة وسحرا.. وساءل نفسه عن مبعث ما

يتناهى إلي سمعه من تنهدات ، فتبين له أن أزواجا من الناس هجروا المدينة بأضوائها ، وراحوا يعيشون حياة متخفية بين طيات الليل والظلام.. ترى ماذا حفزهم إلى ذلك؟.. ولماذا يتكلمون همسا ويتحركون فى حذر؟ .. وأخذه العجب والدهشة حين كان يرى بين لحظة وأخرى أطياف هؤلاء الناس وقد تلاصق كل اثنين تماما كما رأى أمه مع البارون.. لابد أنها جنت به ولعا وتعلقا ، فلولا ذلك لما جنحت إلى الكذب والخداع والتمويه .. إذن يكمن هنا أيضا ذلك السر الرهيب الخفى المثير !.. وسرعان ما سمع خطوات تقترب وضحكات خافتة، خشى أن يلمحه أحد وتوارى بعيدا، ولم يره القادمان اللذان مالبثا أن وقفا بالقرب منه، فرأى وجهيهما يتلاصقان دون أن يتبين ما يحدث ، بيد أنه سمع زفرة تند عن صدر المرأة، وتمتمة حارة من الرجل .. فأحس الفتى بشعور غامض ملتهب أشاع رعشة فى كيانه ، وظل الواقفان هكذا فترة سمع بعدها وقع خطواتهما وهما يبتعدان ..

وأحس الفتى بفورة عارمة فى دمائه ، واستبدت به رجفة حادة .. وشعر بالوحدة فى هذا الظلام، وبالحنين إلى صوت ناعم عطوف، وإلى أحضان دفائة حانية، بين أناس يحبهم .. وخيل إليه أن الليل بظلمته قد استقر فى نفسه وراح يعتصر قلبه .. ونهض الفتى وقد ضاقت نفسه .. ماذا يمكن أن يكون ؟.. قد يضرب أو يعاقب أو يؤنب ، إنه لم يعد يبالى منذ عرف الظلمة وذاق العزلة.. وانطلق على غير هدى ، فبلغ بيت جدته دون أن يعى ، ووقف عند الباب ، ورأى الأنوار فى هذه المرة تتسلل خلال النوافذ، فتخيل أصحاب الدار وقد جلسوا فى القاعة، فشعر بشىء من الاطمئنان وهدأ روعه لأنه أضحى قريبا من أحبائه، وتردد قليلا فى دق الجرس ليستمتع بذلك الشعور!

وفجأة على حين غرة ، ثقب أذنيه صوت حاد منفعل :

- أأنت هنا ؟ .. كيف جئت ؟ .. وماذا جاء بك يا «إدجار» ؟

لقد كان الخادم أول من رآه ، فراحت تربت على كتفه .. وإذ فتح الباب ، اقترب منه كلب أخذ يهز ذنبه، وطالعته الأضواء من الداخل، ثم سمع أصواتا مختلطة تشيع فيها الغبطة والدهشة .. وإذ اقتربت منه الأصوات فى لهفة وابتهاج، تبين جدته فى المقدمة وقد بسطت له ذراعيها .. وعقدت الدهشة لسانه ، وكاد يكذب عينيه إذ رأى أمه من خلفها وقد اغرورقت عيناها بالدموع .. فشملته رجفة من أقصى رأسه إلى أخمص قدميه ، وتنازعه الوجل والحيرة، واختلط عليه الأمر ، فلم يدر ماذا يفعل أو ماذا يقول؟ بل لم يستطع أن يدرك حقيقة إحساسه .. أخوف هو أم سعادة .. !؟

وكانت أمه قد ارتاعت لفرار الفتى رغم حنقها عليه، فراحت تبحث عنه وقد استبد بها الانزعاج، إلى أن أقبل شخص أنهى إليها أنه رأى الغلام عند نافذة التذاكر، وبالاستعلام عرفت أنه يمم شطره «بادن» التى كانت الأم قد أبرقت إليها كما أبرقت الى أبيه فى «فيينا» بنبأ فراره، فروع ذلك الوالد وراح يتنسم أخبار ابنه .. ثم رحلت الأم إلى «بادن» فى أثر ابنها .. وراح الجميع يترقبون وصوله.. !

وأحاطت به الأسرة، وأغرقته بالملاطفة ، وقد سادهم شعور بالبهجة لوصوله ، ولم تطل فترة التأنيب الخفيف الذى وجهوه اليه ، فلم يستشعر له وخزا .. إذ تبين مشاعر الحب تطفر من أسارير الأهل، وما لبثت جدته أن احتوته بين ذراعيها وهى تجهش بالبكاء ، ولم يعد أحد يسىء إليه بكلمة تقريع أو يشير إلى خطئه ، وازدادت رعايتهم له وحدبهم عليه .. وبدلت له الخادم ثيابه ، وراحت جدته تسأله عما يشتهى وعما إذا كان جائعا ، وتغمره بفيض حنانها .

وإذ فطنوا إلى إعيائه، تركوه وشأنه كى يستجم، فاستشعر الغبطة إذ عاوده الإحساس بأنه مازال صغيرا ، وكان قبل ذلك يضيق بهذا الشعور،

وتمنى أن يتعدى طور الطفولة.. فإذا به يستمرئه الآن ويستعذبه.. ويندم على ما تولاه من كبرياء وصلف .. !

وانبعث رنين التليفون ، وسمع «إدجار» أمه تردد فى كلمات متقطعة :

– نعم .. إدجار .. وصل إلى هنا سالما .. فى آخر قطار .. وحير الفتى وأدهشه أن أمه لم تبد نحوه جفوة أو قسوة، بل راحت تغمره بنظرات هادئة.. فشعر بالندم فى نفسه ، وود لو قوبل بعكس ذلك، ليسعى إلى أمه يسألها الصفح والغفران ويؤكد لها أنه سيطيع أوامرها ، سمع جدته تسأله فى خوف وهو ينهض :

– إلى أين .. ؟!

فسمر فى مكانه وقد عراه الخجل ، إذ رآهم يتوجسون من كل حركة تبدر منه .. ولعلهم كانوا يخشون أن يهرب مرة ثانية وما دروا أنه أشد منهم ندما على ذلك الهرب .. !

وعلى المائدة ، قدم إليه عشاء خفيف .. وكانت جدته لا تحول عنه نظرها، بينما جلست خالته إلى جواره ، وأحس بالاطمئنان إزاء هذا العطف الذى غمروه به .. ولكن أقلقه أن أمه ليست بجانبه ، وتمنى لو أنها عرفت مبلغ ندمه ..

وتناهى الى سمعه صوت عربة تقف أمام الباب، فاستولى على الأهل ذهول أزعج الفتى ، وغادرت جدته الغرفة.. ثم سمع حديثا يجرى ، أدرك منه أن أباه قد وصل .. وإذ رأى أباه ، فهو الوحيد الذى يهابه ويخشى بأسه . فأرهف السمع، وبدا له الأب محنقا، ينم عن ذلك انفعاله وارتفاع صوته ، وسمع جدته وأمه تهدئان من حنقه، بيد أن ثائرته لم تهدأ وظل على انفعاله، وأخذت خطى أبيه تقترب حتى بلغت الباب الذى ما لبث أن فتح ، وتراءت للفتى الصغير نفسه ضئيلة إلى جانب أبيه البدين الذى دلف إلى الحجرة بخطى تنم عن حنق وغضب، وصاح الأب :

- ماذا أصابك يابنى ؟ .. بل ماذا دهاك حتى تهرب على هذا النحو المزرى ، وتسبب لأمك هذا الانزعاج الفظيع .. ؟

ألقى الأب بهذا السؤال فى انفعال بالغ ، ويداه ترتجفان فى عنف .. بينما دخلت أمه فى هدوء ورفق وقد شحب وجهها ، وانعقد لسان الفتى فلم ينبس بكلمة .. إنه يدرك تماما أن المطلوب منه أن يبرر مسلكه وهربه ولكن أنى له أن يفصح عن أساليب الخداع والكذب التى اتبعتها معه أمه وضروب القسوة التى عاملته بها ؟ ترى هل يدرك أبوه الموقف ويفهم الأمر ؟.. وأردف أبوه يقول :

- ماذا جرى ؟ .. لماذا فررت بهذه الصورة ؟ ..

وحالت شجون «إدجار» دون انطلاق لسانه ، حتى إذا واتته القدرة على الكلام أومأت إليه أمه من خلف ظهر أبيه ألا يقول شيئا .. واهتز كيانه كله إذ شعر أن أمه تأتمنه وتثق برجولته فقرر أن يكون عند حسن ظنها ، واستعاد رباطة جأشه وقال :

- ليس هناك شىء إطلاقا .. وكل ما هناك أنه فرط منى ما لايليق ، وخشيت أن تعنفنى والدتى فلذت بالفرار ..

وسرى عن أبيه ، وظهر الرضى على قسمات وجهه ، وقال :

- إن من يشعر بذنبه يكفر بهذا الشعور عن خطئه .. وهذه آية على اكتمال العقل وعلى أنك تجاوزت طور الطفولة!

وشخصت عينا الفتى نحو عينى أمه .. فرآهما تغرورقان بالدموع ، والابتسامة تختلج على شفتيها وكأنها تسجل له شكرها،،

وعندما حان موعد نومه ، وذهب إلى فراشه ، رحب بتلك الخلوة كى يراجع انفعالات ذلك النهار .. فوجد لاسترجاعها لذة أشعرته بانتقاله فجأة من صفوف الصغار إلى صفوف الكبار؛ لأن الحياة كشفت له عن نقابها فرآها على وجهها الحقيقى غير مزوقة بخيالات الطفولة وسذاجتها ، وانتابته

من ذلك رهبة .. وقد بدأ يتبين ما ينتظره فى ممارسة الحياة من انفعالات عميقة ..

وكأنما أرضاه هذه الإحساس ، فغطى فى نفسه المتفتحة على مشاعر الحقد والكراهية .. حتى لقد خامره نحو البارون إحساس بالأمتنان ؛ لأنه كان المفتاح الذى فتح له باب الحياة الحقيقية الواعية على مصراعيه .. !

وأخذ الكرى يداعب أجفانه المثقلة، وهو يقلب تلك الخواطر والأفكار .. فلم يستطع أن يتبين بوضوح من هو الشبح الصامت الذى تسلل إلى مخدعه فى الظلام، وإن أحس بأنفاسه المعطرة وشعره الناعم وخده الدافىء يلتصق بوجهه .. كان يعلم فى أعماقه أن أمه جاءت تغمره بحنانها ، وتشكره على موقفه النبيل منها ..

وكانت هذه اللمسات الحانية مصدر سعادة كبرى وطمأنينة قلب «لإدجار» ، فأحس عندما غادرت أمه الغرفة مخلفة وراءها شذى عطرها أن آلامه جميعا قد تلاشت ، وأن الحياة قد أعطته أجمل تعويض عن كل ما تحمّله من آلام.. وجادت عليه بسر كنزها الأعظم .. كنز الحب ، ولو بلغ ذلك الحب درجة الجنون!

تمت

مؤلف الرواية

أنجبت النمسا وطن «ستيفان زفايج» نخبة من أعظم الموسيقيين، وانجبت مؤسس علم النفس الحديث «سيجموند فرويد» .. ولكنها لم تنجب كاتبا أعظم من «ستيفان زفايج» الذى تلقى العلم فى معاهد «فيينا» مسقط رأسه ، وظهر نبوغه فى الكتابة منذ وقت مبكر، وكان مولده عام ١٨٨١ .

وقد تميز أدب «زفايج» منذ البداية بأنه مزيج رائع من ثقافة العالم، واطلاع المؤرخ العارف بخفايا النفس والدارس لأطوار الإنسان، ومن رشاقة الفنان الذى يكاد نثره لرقته ينقلب شعرا.

وقد ألف «زفايج» فى التاريخ .. ويعد أعظم كتاب السير فى العصور الحديثة، إذ أن أحدا لم يبلغ منذ «بلوتارك»الذروة التى بلغها «زفايج» فى رسم الصور القلمية لشخصيات النابهين فى السياسة والعلم والأدب .

ومن الغريب أن شهرة «زفايج» لم تتأكد عند الجمهور القارئ باللغة الألمانية ، إلا عندما نشر ترجماته عن الفرنسية لشعر «بودلير» و«ذيرلين» مع دراسات نقدية أصيلة عميقة أثبتت مواهبه الفذة فى تذوق الأدب واستنباط البواطن النفسية للكتاب والشعراء .

وقد شجعه ذلك على الاستمرار فى هذا الاتجاه ، فنشر دراسات وصورا أدبية نفسية لثلاثة من الفحول هم : «بلزاك» الفرنسى ، و«دستويفسكى» الروسي، و«ديكنز» الإنجليزى ، تعد أحسن ما كتب فى هذا الباب .

وأما فى التاريخ ، فكتب حياة «ماجلان» قاهر البحار، وحياة «مارى ستوارت» ملكة اسكتلندا المنكودة الحظ . وحياة «مارى انطوانيت» ملكة فرنسا التى أطاحت برأسها مقصلة الثورة وسماها «صورة امرأة عارية!» لأنه بفطنته النفسية رأى فى تلك الملكة المستوى العادى جدا للأنثى بكل

خصائصها .. من المحاسن إلى العيوب . وكتب أيضا حياة «فوشيه» باعتباره نموذجا للسياسى الداهية على النمط القديم وله مسرحية واحدة هى «أرميا» .. وفيها يصور حياة ذلك النبى تصويرا شعريا أخاذا على ضوء باهر من الدراسة النفسية العميقة .

وبهذا الثراء الضخم فى ثقافة العقل والوجدان ، وفى الاحساس الفنى ، كتب «زفايج» قصصا أجمع النقاد على روعة صياغتها الفنية، ومن أهمها : ٢٤ ساعة في حياة امرأة، وجنون الحب، وخطاب من امرأة مجهولة، وأموك، والشمعدان المدفون، والشفقة، والخوف .

وقد لاحظ النقاد أيضا كما لاحظ القراء أن «ستيفان زفايج» عاشق متيم لما هو جميل، يؤمن بالإنسان وحريته وسعيه إلى الكمال، ولكنه يميل إلى الحزن ، فالقارئ دائما يخرج من قصصه والأسى يملأ جوانحه، لضعف الإنسان وقلة حيلته أمام طوفان عواطفه من جهة وأمام عتو القدر من جهة أخرى .

وقد وجد «زفايج» الحياة غير ممكنة فى النمسا عندما اجتاحها النازى ، وهو من أعدى أعداء الطغيان بكل كيانه ، ففر هاربا إلى إنجلترا وتجنس بالجنسية الإنجليزية .. ثم هاجر هاربا من لغط الحرب وإرهاقها لأعصابها إلى أرض بعيدة .. أقرب إلى الفطرة وأبعد عن انحلال المدنية المجنونة بالدمار ، واختار البرازيل مقرا له .

ولكن الحياة لم تطب لـه هناك .. ولم يستطع موطنه الجديد أن يبعد عن نفسه صدى الحرب الدائرة ، ولا صورة المجـزرة المستمرة ، فانتحر فى عام ١٩٤٢ .


كتاب الهلال
د. رمسيس عوض
فلاديمير نابوكوف
حياته وأدبه 1899-1977

الهلال

يوليو 2010 - الثمن 5 جنيهات

مفتى الديار المصرية فى اليابان

صالح جودت.. قيثارة مصر

التنوير والدين: وهم الأعداء

عمان.. أرض البخور والسندباد

استطلاع مصور

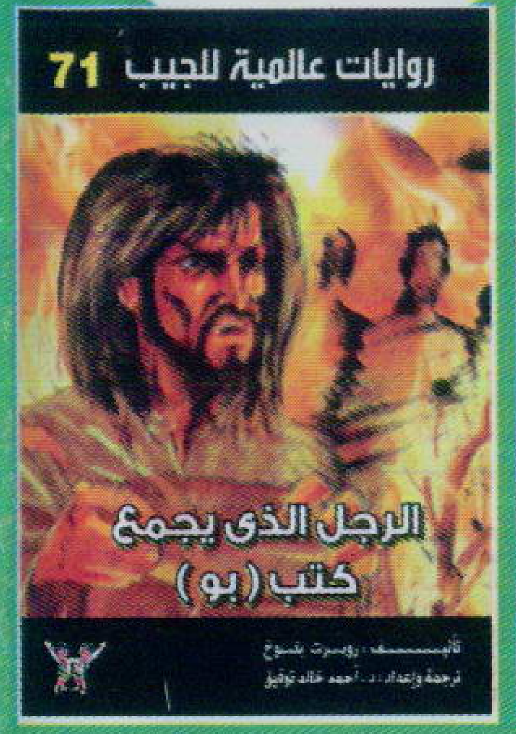


التحول الاقتصادى والاجتماعى فى مصر

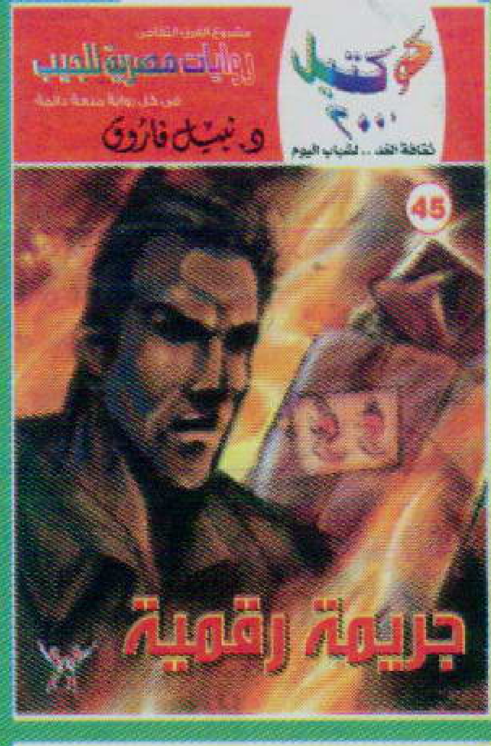
الإنسان فى فكرنا العربى الحديث والمعاصر

روايات مصرية للجيب

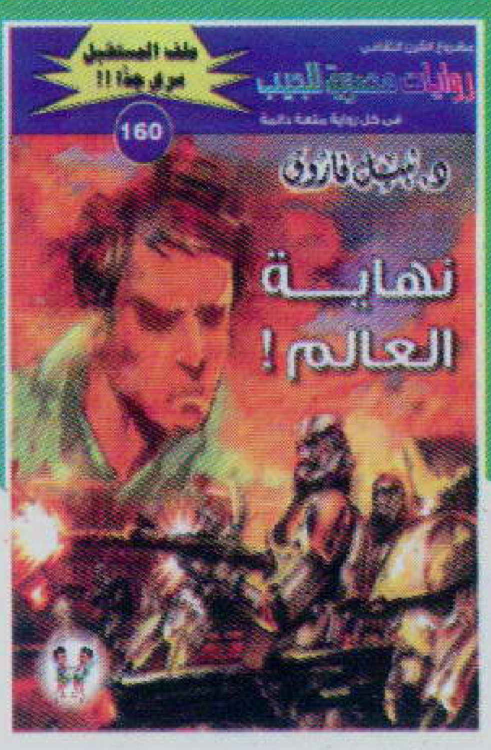
إنها بالفعل شىء ملائكى رائع











روايات مصرية للجيب

معشوقة شباب العالم العربى من مشرقه إلى مغربه

شلال متدفّق من الروايات لا يهدأ ، ولا يخمد .. يستولى على ألباب القراء ، ويبحر بهم إلى آفاق رائعة من الثقافة ، والمتعة ، والإثارة .

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10 ، 16 ش كامل صدقى الفجالة ،
4 ش الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة - ت : 26823792 - 25928202 - 22586197
فاكس - 202/25966650 ج.م.ع ، 4 ش بدوى محرم بك - الإسكندرية ت : 03/4970840 - 03/4970850


مصريات


مجلة
الابتسامة